

قائمة الفكر القديم

القرن العشرين

ترجمة

دكتور حسين فوزي النجار



دار المعارف



Bibliotheca Alexandrina



0018286

Journal of Management Education 30(6)

[illegible]

the 1990s, the number of people in the United States who are 65 years of age or older is projected to increase from 20 million to 30 million, and the number of people 75 years of age or older is projected to increase from 10 million to 15 million (U.S. Census Bureau, 1996).

[illegible]

قادة الفكر الدولى

في

القرن العشرين



تأليف: كينيث و. تومسون
ترجمة: دكتور حسين فوزى النجار

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف:
رقم التسجيل:	٣٣٧٠٥

دار المعارف

**MASTERS OF INTERNATIONAL THOUGHT :
MAJOR 20th CENTURY THEORISTS AND THE WORLD
CRISIS**

by
Kenneth Thompson

Copyright © 1980 by Louisiana State University Press. All rights reserved. Printed in the United States of America.

تقديم

كتب أمرسون فيما كتب يقول :

« من الأجدي أن ترقب سمكة كبيرة من أن تمسك برتل من الأسماك الصغيرة »

وهذا الكتاب عن رجال كبار وفكر نير، عرضت لهم من خلال أربعة جوانب هامة من جوانب الدراسات الدولية : معيار الفكرة، والتصور الأوربي الأمريكي للقوة والسياسة، وتحليل الصراع في الحرب الباردة، والنظرية السائدة للنظام العالمى.

وقد قمت بتحليل ومناقشة الطريقة الغالبة عليهم في تناولهم لها، وخلفيتهم الثقافية، وأخيلتهم، ومراميمهم وتصوراتهم، وتسلسل القيم والمراحل في تفكيرهم وما قدموه للسياسة العامة ونظرتهم للمستقبل، وما كان لتأثير المفكرين الآخرين عليهم. وقد طوّفت بكتاباتهم ومقالاتهم العابرة، وما كان من نقد لمؤلفاتهم وردّهم عليه، وأتيت على لقاءاتهم وذكرياتهم، ورسائلهم، وما كان من اتصالى اتصالاً شخصياً ببعضهم، كما رجعت إلى مختاراتهم من الكتب، وما كان لهم من شروح أو تعليقات على بعضها.

والغاية من هذا الكتاب هي أن أشرك الآخرين في الحكمة والمعرفة التي نلت عنهم في كتاباتهم عن العلاقات الدولية، وقد أنارت السبيل أمامي لمعرفة المحفل الدولي طوال الأعوام الثلاثين الماضية، وقام اختياري لهم على ما يمكن أن تثيره كتاباتهم من حوار أو تقييم أو رفض أيضاً، فقد جاءت كتاباتهم، كما أرى، وسطاً بين تفهم السياسة الدولية وتكوين إطار حيّ متماسك للفكر، فأحياناً ما توضح الكتابة عن الشؤون الدولية بأنها تعلو بعض الشيء على الكتابة الصحفية، ويقول عنها آخرون إنها الهالة المجيدة للأحداث المعاصرة، والميزة التي يقوم عليها اختيارنا لأي كاتب منهم هي إنجاز المنهجى السديد في هذا الميدان، وأن فكره يمكن أن يطبق على المشكلات والأحداث التي تتواتر على مدى من الزمن فسيح، كما كان للقيمة الباقية من كتابات هؤلاء المفكرين أثرها في اختياري لهم. وما كان الحكم على مؤلفاتهم بقيمتها التجارية في عرف الناشرين ولا برواجها لدى القراء. فالقلة ممن اخترناهم من هؤلاء الكتاب من لقيت كتبه بعض الرواج في قوائم الناشرين، ولم يتسن لأى منهم غير واحد، أن يختير كتابه ليكون كتاب الشهر، وإن كان لنا أن نقول إنهم على عكس هؤلاء الكتاب الذين تحفل بكتبهم ساحة «ماديسون» مازال أئمة السياسة والدارسون يقبلون على قراءة هؤلاء القادة من رواد الفكر إلى يومنا هذا وإن مرّ على مؤلفاتهم أكثر من نصف قرن.

ولا يفوتني أن أذكر أن اختياري لهؤلاء المفكرين كان مغامرة موضوعية وذاتية في نفس الوقت. ومن اليسير أن أشير إلى بعض المعالم البارزة التي

تبدو في ظاهرها موضوعية وإن خالفني البعض فيها، ومن هذه المعالم مؤلفات الكاتب وإن تفاوتت عددًا بين كاتب وآخر، فهي جميعاً حافلة بالفكر الجاد والنقد الصائب، يرجع إليها الصحفيون والباحثون يقتبسون منها وينقلون عنها في إكبار لأصحابها، كما كان من «جيمس ريستون» مع «سير هيرت بتر فيلد» في أعمدته الصحفية، وما كان من «دافيد برودر» مع «هانس ج. مورجنتو» وثمة معلم آخر في تلك المراجع الدراسية، والمساجلات المتواترة في المحافل العلمية وكذلك البحوث والمقالات الصحفية كتلك التي عرض فيها «ستانلي هوقمان» للدراسات الدولية في ربيع ١٩٧٨، والندوات التي تقام تكريمًا لبعض الكتاب، وغالباً ما ينجح بعض مشاهير الكتاب إلى إثارة الجدل، فيطرقون ميادين جديدة للبحث، ويقتحمون آفاقاً من الفكر في قدرة وحيوية تعيد البهاء إلى ماذبل وذوى من آثار الماضي.

وللزمنا أحكامه الصارمة ومعاييره الدقيقة، فقد تغضى الصحافة عن كاتب ما وتتجاهله، وقد يرفض الناشر مؤلفاته، أو ينبذه زهرة الكتاب في موضوع ما، أو يحمل على كتابه أعلام المربين. وإن بقى الناس في عالم الأدب والفلسفة يقبلون على قراءة شيكسبير وملتون، وأفلاطون، وأرسطو وهوبز ولوك، وقد غبر بهم زمن بعيد، وقد لا يدنو قادة الفكر هؤلاء من أولئك الخالدين كشكسبير وقد لا يقفون معهم على قدم المساواة، ولكن الناس مازالوا حتى وقتنا هذا يقبلون على قراءتهم مع ما يقرأون لهم من الكتاب المعاصرين ومازال أكثرهم يتسمنون الذروة بين كتاب العلاقات الدولية عندما أثبتت الموسوعة الدولية للعلوم

الاجتماعية من هو جدير بالذكر من بين المفكرين في ربع القرن أو نصف القرن الأخير، وقام الاختيار على ما كان لكتبهم من قيمة باقية.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الوقت مازال مبكراً للحكم على هؤلاء المفكرين، ومازالت كتاباتهم أحدث من أن تتصدى لحكم الزمن، والدراسات الأكاديمية للسياسة الدولية مازالت في بدايتها، إلا أن الدلائل تشير إشارة أكيدة إلى أن كتابات أمثال «ليبان» و«رينولد نيبور» قد قدّر لها البقاء إلى سنوات عديدة قادمة.

وإنى لأعلن عن ذاتي في الاختيار عندما أدلى بمثل هذا القول، فإننى لا أعرف ما كتب هؤلاء المفكرون فحسب ولكننى كنت قريباً منهم، ومازال للعامل الإنسانى أثره فى كل تقييم دراسى ومن العبث أن أنكر تأثيره فى هذا المقام، ومع عظمة إنجازهم، وما لتأثيرهم الشخصى من وزن، فإننى لم أحذر النقد الشخصى والفكرى لهم، وإن كنت أرى أنهم من عمالقة الفكر، إلا أنهم قبل أى شىء آخر بشر وليسوا آلهة، فإذا غاليت فى مدحهم والثناء عليهم فإنى استميحهم الإغضاء، وإذا لم أكن على حق فى نقدهم فإنى استميحهم المغفرة، إلا أن استواء أفكارهم وتكاملها قد زودنى بالعرض الأمين، وإنى لأرى دون تحيز ودون إغراق فى التمجيد، أنهم عظماء بحق.

البَابُ الأولُ

البحث عن معيار أساسى للسياسة

ليس من المستغرب أن يكون رجال اللاهوت ومؤرخو الأديان فى مقدمة الباحثين عن معيار أساسى للسياسة، وليس من الصحيح أن كل قاعدة دينية تشجع الاهتمام بالأخلاق والسياسة، فمنهم من يرى السياسة عبئاً ثقيلاً من أعباء الحياة لا منجاة منها لإنسان ما لم يدع جانباً كل ما يشغله بالحياة الدنيا، فالبوذى ينشد بركة النرقانا حيث يدعن المخلوق فيها لغير المخلوق وحيث تذوى المنى وكل عناء إنسانى. وإن كان الناس فى الغرب مع ما فيه من أعراف دينية، يعيشون حياتهم الدنيا وقد كتب عليهم أن يتكالبوا عليها على ما فيها من عثرات السياسة والأخلاق التى لا تريم. وإن كانت أديان الغرب قد أعدت الناس لحياتهم الدنيا والآخرة فإن عدد المفكرين المعاصرين من رجال الدين ممن يقبل على قراءتهم مرة وأخرى دارسو الأخلاق والسياسة الخارجية مازال ضئيلاً. وقد تكون علة ذلك تفاقم الشئون العالمية مما يستدعى السيطرة على العلاقات الخارجية التى لا يعيها غير حفنة من فلاسفة الأخلاق، وئمة علة أخرى

قد تكون في اتجاه رجال الدين لأن يكونوا في طليعة المصلحين الاجتماعيين تحدوهم رغبة عارمة، وإن كانت عرضة للتغير، نحو برامج الإصلاح الاجتماعي والسياسي الجديرة بالاهتمام وغالباً ما يتراجع المفكرون الدينيون ممن يعنون بالسياسة إلى تلك الذروة الروحية الرفيعة من الحقائق الأزلية، أو يجرفهم التيار الجارى لأولئك الذين يتغنون بتغير المجتمع، تاركين تلك المهام الجافة والإبهام الأخلاقي في دنيا السياسة لأولئك القادة العلمانيين،

ومن بين الطالع أن الرائي الذي يتجه إلى دراسة الأخلاق السياسية بعقل متفتح يستطيع أن يتبين تلك القلّة التي تخرج على تلك القاعدة من بين الغارقين في الأعراف الدينية العديدة، وإن كانت الفكرة السائدة لدى العلمانيين من الكتاب السياسيين وعلماء السياسة أن الكتاب الدينيين وعّاظ فحسب. وألقى هذا الحكم ظلاله الكثيفة عليهم فعدهم من غير رجال الدين. وحين تحرروا من أرثوذكسيتهم وحطموا قيود الجمود الديني. عمت عيون هؤلاء العلمانيين عمّا يستطيع أن يقدمه الفكر الديني في هذا الميدان. كما لو كان حتماً على مجتمع فكرى متفتح أن يستمدّ الحقائق من عمالقة الأعراف الدينية الكبرى، كما يستمد الحكمة من عمالقة الفكر العلماني. وقد غال حرية الفكر جمود الدينين والعلمانيين على السواء، أما أولئك الذين ينشدون فلسفة أخلاقية لعالم السياسة فإن عليهم أن يتحروا الحقيقة أينما كانت.

وقد حلق سير هيربرت بترفيلد في أجواء سامقة علا بها على كل

ما خطه مؤرخو الأديان عن فلسفة الأخلاق الدولية، ودرج باسمه بين الخالدين من من كتاب التاريخ التقليديين من الإنجليز عندما نشر كتابه «تفسير الهويج للتاريخ»^(١) ومالبت أن تحوّل إلى تاريخ الدين فكتب «المسيحية والتاريخ» و«المسيحية في التاريخ الأوربي» و«المسيحية والدبلوماسية والحرب» ثم مدّ رواقه إلى فلسفة الأخلاق السياسية من خلال «الجمعية البريطانية لدراسة السياسة الدولية» التي كوّنوها بجامعة كمبردج، وكان جديرًا بما يستحقه هو وجماعته من ثناء عندما قاموا بشرح الأبعاد الأخلاقية للحرب الباردة، وما أثاروه من حوار حول التصورات التاريخية كالتصور السائد عن «توازن القوى».

و حين كتب «رينولد نيبور» وهو كما نعتّه «جورج ف. كينان» أبونا جميعاً عن السياسة الدولية المعاصرة، قال عنه: «من العسير أن نبالغ فيما قدمه هذا اللاهوق الكبير لتاريخ الفكر الحديث» وجاء «والتر ليبان» ليضيف إلى ما قاله نيبور: «كم من الأجيال تمضي لتنجب ضرباً له؟».

وفي هذا السيل المتدفق من الكتب والمقالات أخذ نيبور يكشف عن العناصر الأساسية لما سُمّاه «الواقع المسيحي» في توافقه مع السياسة الدولية. وحين عكف دونها في أواخر الستينيات وبواكير السبعينيات على نشاطه المسيحي والاجتماعي، عاد إليها في خواتيم السبعينيات، وما كان

لأى باحث عميق جاد لفلسفة الأخلاق السياسية أن يجنو ما كتب أو ينكره.

أما الحبر الجليل «جون كورتني موري» فإنه ينفرد وحده بين كتاب الكاثوليك المحدثين بالاهتمام بفلسفة الأخلاق والحرب الحديثة، ومع أن موري قد أطلق لنفسه العنان في الكتابة عن فلسفة الأخلاق الدولية حين طرق ميدان الأخلاق والكتابة عن الحكومة. فكانت تلك المقدمة القصيرة التي قدم بها لفكره جديرة بالاهتمام إلى حد لا يداني..

ويقف موري وحده بين كتاب الأخلاق والسياسة الخارجية ليتخذ من العرف الذي سارت عليه الكنيسة الرومانية للكاثوليك قديماً في توقيرها للقانون الطبيعي أساساً لفكره، وهو عرف لا أستطيع أن أجد له مكاناً من التبرير.

ومن الضروري أن أعود إلى كاتب بريطاني لأكمل هذا العرض عن المفكرين الدينيين، هو «مارتن ريت» وإن حالت وفاته المبكرة دون إتمام عمله. فقد كتب لفكره البقاء على يد رواده ممن غذاهم بفكره، وخلدت أعماله مؤرخاً ودارساً للسياسة الدولية، وإن اتسمت بقيود لا نراها عند نيبور أو بترفيلد، وقد كرّس رفاقه وتلاميذه جهدهم لنشر بعض مؤلفاته بعد وفاته، وكان أكثر من أى كاتب معاصر صياغة لفكره على هدى الفلسفة الأخلاقية الشاوية في أعماق الحضارة الغربية وقد ظلّ مؤمناً بها حتى وفاته.

وليس من اليسير في مقدمة كتاب عن هؤلاء المفكرين الدينيين أن

نوجز ما يتفقون عليه وما يختلفون فيه، فلم يغامر نيبور مثلاً بالابتعاد كمؤرخ عن أرض الواقع الثابت للفكر التاريخي المدرسي، وقد بدأ كل من نيبور ومورى وإنتهيا لاهوتين وإن ابتعدا إلى حدٍّ ما عن المنهج اللاهوتي (وأكثر ما يصدق هذا على نيبور) إلى الاهتمام اللاهوتي بالمشكلات السياسية والاجتماعية المعاصرة. أما «ريت» فقد تواتر اهتمامه بين التاريخ الأوربي المعاصر بما ينم عن ميله الثابت للفكر القديم، وللسياسة الدولية الجارية.

وكثيراً ما واجه نيبور ومورى بعضهما البعض في حوار دائب حول سداد القانون الطبيعي وتوافقه مع العصر النووي، وقد اعترف هؤلاء الأربعة من قادة الفكر بضلال العلاقات المعاصرة بين الدول، وإن كان مورى أكثر من غيره قد رأى في القانون الطبيعي ما يفصح عن معايير ثابتة لتوجيه العلاقات بين الدول، ولم يبحث أحدهم المعنى البعيد للدين في السياسة الدولية، وإن عرض كل منهم له بطريقة الخاصة.

ولا تعدّ هذه المقدمة عن فكر هؤلاء أو غيرهم من قادة الفكر بديلاً لقراءتهم قراءةً وانيةً متمهلة، وليس لدى ما أنشده إلا أن أقدم لقرائ هؤلاء المفكرين بكلّ ما كتبوا وما خالهم من أفكار عن الإنسان وعن السياسة وما كان عليه تصورهم لطبيعة النظام الدولي، ونظرتهم لمعايير السياسة الدولية ولدور القوة وحدودها.

الرؤية التاريخية

هربرت بترفيلد

(١٩٧٩-١٩٠٠)

ولد هربرت بترفيلد في أوكسينهوب في السابع من أكتوبر ١٩٠٠ لأسرة متدينة من طائفة المشيخين، وأوكسينهوب قرية نشأت مع الثورة الصناعية على حافة البراري بعيداً عن حدود لنكشير - يوركشير ببضعة أميال ولا يزيد عدد سكانها عن ألفي نسمة.

ومع أن أباه قد ترك المدرسة في العاشرة من عمره ليعمل فرازاً في مصنع لغزل الصوف، فقد تعلم وأعد نفسه ليكون كتيباً، وإن ظلّ أمله الخابى في أن يكون قسيساً مشيخياً يراوده طوال حياته، وأراد لولده دون إصرار لم يخل من الهوى أن يسلك هذا الطريق، وكم سرّه أن يصبح هربرت ولما يجاوز السادسة من عمره شماساً مما أثار أكثر معلميه نشاطاً وحيوية في مدرسة القرية وكان صريحاً في عداائه للكنيسة. فلما التحق بترفيلد بجامعة كمبردج وتلمذ على المؤرخ الكبير «هارولد تمبرلى» وأغرم بالتاريخ وأدرك أن حياته يحول بينه وبين النجاح في العمل الكنسى عزف عنه، وإن بقى، على خلاف غيره من المفكرين السياسيين والدينيين الثائرين بطبيعتهم على كل ما يذكرهم بطفولتهم، دائم الحنين

للاهوت الأوجستيني في إيمانه السرمدي بقيمة الإنسان، وحقيقة الخطيئة وسيادة الرب، وحدود الطبيعة الإنسانية، وطبيعة الوجود الإنساني الممزقة، فلم يألف الماركسية على عكس رينولد نيور وبول تيلتس وهما مثله من رجال الفلسفة واللاهوت. وكان معها على ألفة وود، وإن درس الفكر الماركسي واستوعب منه البعض في نظره لطبيعة الصراع في التاريخ وما نسبه للعوامل الاقتصادية والاجتماعية من أهمية تاريخية، وكان التاريخ البريطاني وصلة الكنيسة بالتاريخ، ونظرية العلاقات الدولية هي جميعاً محور أفكاره.

وما كان لبرتفيلد على ما كانت عليه طفولته وظروف حياته الأسرية إلا أن يسعد بالمنحة الدراسية التي تؤهله لأستاذية التاريخ الحديث بجامعة كمبردج وتحرير مجلة كمبردج التاريخية، وقد أتم تعليمه بجامعة كمبردج حيث نال درجتي الماجستير والدكتوراه في الآداب ثم أصبح زميلاً لدارة القديس بطرس بالجامعة عام ١٩٢٣ ورئيساً لها عام ١٩٥٥، وعمل رئيساً للجمعية التاريخية البريطانية في أواخر الستينيات، ودعى أستاذاً للتاريخ بمعهد الدراسات العليا بجامعة برنستون.

وكانت «الرواية التاريخية» أول مؤلفاته مما يعكس اهتمامه المبكر بالصلة بين الأدب والتاريخ، وشرح فيها دور الخيال الأدبي في الكشف عن وقائع الماضي. ومن أخطاء التواتر التاريخي - كما كان يقول - أن نسلم بأن أحداث حقبة من الحقب يمكن أن نعيها على ضوء الحاضر أو الماضي القريب، ولعل الكتب المركزة أو المختصرة التي تجذب المؤرخ إلى

ميدان الأدب، إن لم تكن لسمو شاعريتها، أكثر بعثا للماضي، وغدت تلك قاعدته التي سار عليها في مؤلفاته. وكان كتابه الثاني «تكتيك نابليون للسلام: ١٨٠٦ - ١٨٠٨» (١٩٢٩) عرض فيه بإسهاب تحليله للصلة بين التكتيك العسكري و التكتيك الدبلوماسي في العصر بما فيه معاهدة تلسيت عام ١٨٠٧، وقرظ النقاد تصوره التاريخي ونوهوا بتنفيذه لادعاءات المؤرخين الألمان بأن الأسكندر قيصر روسيا قد تواطأ للتخلي عن بريطانيا، فقد كان البروس هم الذين أغروا القيصر بلقاء نابليون على طوف بنهر. نيمن ثم نشر «وثائق مختارة من التاريخ الأوربي: ١٧١٥ - ١٩٢٠» (١٩٣١) وبدأ بحثه عما يمكن أن نسميه الاهتمام الذي صاحبه طوال حياته بجورج الثالث، ونشر بحثه: «جورج الثالث، ولورد نورث، والشعب، ١٧٧٩ - ١٧٨٠» (١٩٤٩)، و «جورج الثالث والمؤرخون» (١٩٥٧)، وكان يزعم الكتابة عن «شارل جيمس فوكس وجورج الثالث» ولكنه شغل عنه باتجاه جديد نحو الدراسة التحليلية للتاريخ، وهو الاتجاه الذي سيطر على بحوثه خلال العقود الأربعة التالية.

وبدا بترفيلد يسفر عن هذا الاتجاه التاريخي الجديد بعيداً عن المنهج التقليدي عام ١٩٣١، عندما نشر كتابه «تفسير الهويج للتاريخ» وهو نقد لنظرة حزب الهويج والليبراليين للتطور الحتمي للتاريخ، وتسفر هذه الدراسة عن اهتمامه بعلم التاريخ، كما أضفت عليه تلك السمعة الحميدة كعقريه تاريخية. ومع نقده للسياسة الليبرالية والبروتستانتية التاريخية، فقد أثار بطريقة منهجية فشل المؤرخين في تبرير الأحداث الفريدة وتفكير

الأجيال السابقة، وبدأ واضحاً في كتابه هذا أنه يسير على نهج «ح. ي. ي. د. اکتون» (وإن كان اکتون هدفاً لنقده) ونهج «ليوبولد فون رانكه» على غير نهج أولئك المؤرخين التقليديين من الإنجليز الذين يركزون على الوصف التاريخي، وحملته كتبه التالية: «نابليون» (١٩٣٩) و «الرجل الإنجليزي وتاريخه» (١٩٤٤)، و «إدارة الدولة عند مكيافللي» (١٩٤٠) قدماً إلى ميدان فلسفة التاريخ، وأصحاب النظريات السياسية، وبدأ بترفيد مرحلته التالية في الكتابة التاريخية خلال الثلاثينيات والأربعينيات مستلهماً الأزمة العالمية، ولم يعد هناك من يمارى في مكانته كعلم من أعلام المؤرخين الإنجليز، ففي عام ١٩٣٩ ألقى محاضراته في أربع جامعات ألمانية عن تاريخ علم التاريخ أشاد فيها بالتقدم في القرنين السادس عشر والسابع عشر وقرر فيها أن حملته كانت على مؤرخي الهويج دون ساسة الهويج من المعتدلين الذين وقفوا إلى جانب الحرية في السنوات الأخيرة لحكم شارل الثاني، وقد أتاحت له هذه المحاضرات أن يقول، إنه بالرغم مما يراه من ضلال مؤرخي الهويج وسطحياتهم، فقد كان الهويج عوناً على تقدم الحرية، ولكن مؤرخي الهويج هم الذين زيفوا الحقيقة أما ساسة الهويج فقد كان ديدنهم التوفيق والضغط السياسى دون القوة والإرغام. ويعود بترفيد عام ١٩٤٨ إلى الدين والتاريخ فيلقى سبع محاضرات بدعوة من كلية اللاهوت بجامعة كمبردج، ثم عممها على أوسع مدى في ست إذاعات عن طريق هيئة الإذاعة البريطانية خلال شهرى إبريل ومايو ١٩٤٩، وأسهب في شرح الفكرة التي عرضها في محاضراته تلك في كتابه «المسيحية والتاريخ» (١٩٤٩). وقد تردد في البداية في إلقاء تلك

المحاضرات، فلم يكن على يقين من أن يقدم عليها رجل من غير رجال الأكليروس، كما كان يدرك ما يمكن أن تثيره من ريبة في نفوس زملائه من المؤرخين، ولم يتسن له أن يعتذر عنها عندما ألحّ عليه ممثلو كلية اللاهوت وبينوا له إستعداد الطلاب لسماع مؤرخ ذاع صيته عن سماع رجل من رجال الكنيسة ولم يكن هناك شك في عودة بترفيلد إلى قضايا الفلسفة بعدما رآه من تلك الأزمة المزدوجة التي تجتاح الغرب. أزمة التحدى السوقي بعقيدته الماركسية، وموقف الغرب المتهاوى في دفاعه عن كيانه القائم. هذا الكيان القائم على قيم حضارية تليدة في مواجهة هذا العدوان الجديد الجسور، كما حذر من هذا التآليه الوثني لإنسان أسمى أو لمجتمع أو دولة أو أى تنظيم شامل يمكن أن يغير من نظرة الإنسان إلى عالمه ليراه عالماً شبيهاً بعالم النمل فمن الخطر أن نحول التاريخ عن مجراه، أو نتخيل أن العلم الطبيعى قادر على تغيير مصير البشرية وقيادته إلى برّ الأمان، ولايكفى أن نرى الله أو الإنسان في الطبيعة، أو أن نقرر كما قرر أدولف هتلر في «كفاحي» أن الطبيعة طالما أنها لا تأبه بالحياة الإنسانية للأفراد قدر ما تأبه بارتقاء الأجناس البشرية، فلا محيص للتاريخ من أن يحفل بالقسوة والوثنية والقرايين البشرية، وهو ما وصفه بترفيلد بأنه هرطقة ناعمة لتربية ذاتية في عصر العلم «فمن اليسير أن نعدّ الإنسان آخر سلالات الحيوان فحسب، ونصل بذلك إلى تلك الفتاوى التي نحاول أن نطلقها على دنيا العلاقات الإنسانية» ويؤكد مرة أخرى في كتابه «المسيحية والتاريخ» إيمانه العميق بأن الشخصية الإنسانية هي محور العملية التاريخية، ويحمل على تلك

الفكرة المناقضة التي يأخذ بها بعض علماء السلوك الاجتماعى وأصحاب المذهب الطبيعى فى نظرتهم للتاريخ بأنه قصة الحشود الكبرى التى تخضع للدراسة العلمية والرياضية ولا تزيد فى ذلك عن كونها صفحة من صفحات كتاب فى علم الأحياء.

وأخذ بترفيلد يفصل ويتوسع فى نقده لهم، ويكرر رؤياه المسيحية فى كتابات متوالية يعلن فيها أنه يكتب كمؤرخ ولا يكتب كلاهوتى كما كان «أرنولد ج. توينبى» فى كتاباته، وإنه ينزع نزعة باحث فرد، دون أى تأثير بمؤرخ أو لاهوتى آخر، وإنه لا يطرح منهجاً تاريخياً محدداً كتوينبى ولكنه ينذر، كما يتصور، المسيحيين وغير المسيحيين على السواء بأن يجددوا من إدراكهم لمكانة التاريخ فى التصور المسيحى : وخرج بكتب أخرى عن «المسيحية فى التاريخ الأوروبى» (١٩٥١) و «التاريخ والعلاقات الإنسانية» (١٩٥١) و «المسيحية والدبلوماسية والحرب» (١٩٥٣). وأياً كان نقد النقاد لتصوره المسيحى. فقد بقى على رأيه من أن التاريخ قد ظل متوائماً بكل أبعاده مع النظرة المسيحية للتاريخ، وحمل حملة شعواء على التاريخ الآلى وقصوره عن الإلمام الواعى بالماضى، فالتاريخ فى جوهره مسرحية قد تتخذ طابع المأساة للشخصيات الإنسانية، والدراسة التاريخية الجادة فى حاجة إلى تواضع المؤرخ ومرونته العقلية، فعليه أن يمضى بين شخوصه التاريخية متمثلاً مواقفهم، دائماً على تصيد تصورهم للأحداث مدركاً لكل ما كان عليهم أن يتخطوه من عقبات.

ومن اللّمحات التى شابت فكره ما يعود إلى دراسته للعلوم، وقد

بدأ عام ١٩٣١ يلقي محاضراته في التاريخ الحديث على طلبته بجامعة كمبردج مبتدئاً بعام، ١٤٩٢ مع العناية بصور التقدم الكبرى والحركات التي امتدت على الزمن كالنهضة الأوربية والثورة الفرنسية والصلة التي تربط بينها جميعاً.

وحمل في محاضراته تلك، والتي حذا فيها حذو لورد أكتون. على الإغراق في التخصص الذي سيطر على الدراسات الجامعية للتاريخ الحديث والاعتماد على الملخصات والكتب الدراسية الجافة القاصرة على العلاقات الخارجية للدول، وفضل عليها التركيز على ظهور العالم الحديث وتقدمه الباهر وفكره الحديث، ومن ذلك مثلاً أنه أفرد ست محاضرات عن ظهور العلم الحديث، توثقت على أثرها العلاقات بينه وبين علماء كمبردج البارزين من أمثال جوزيف نيدهام ورجال معاقل كاقندش^(١) ممن كانوا يتوقون إلى حليف يذكرهم من بين المؤرخين، وبفضل هؤلاء الرجال أنشئت جماعة تاريخ العلم ١٩٤٧ وبعد جهد بالغ نجحت الجماعة في دعوة بترفيلد لإلقاء سلسلة من المحاضرات في هذا الموضوع في الموسم الثقافي لعبد الملاك ميكائيل^(٢) عام ١٩٤٨، وقد جمعت في كتاب من أنجح كتبه هو

(١) نسبة إلى العالم الكيماوى الإنجليزى هنرى كاقندش (١٧٣١-١٨١٠) وقد عين الحرارة النوعية لبعض المواد بابحاثه عن الأيدروجين وتركيب الغلاف الجوى والكهرباء والكثافة النوعية للأرض (المترجم).

(٢) يقع هذا العيد في التاسع والعشرين من سبتمبر كل عام، وهو عيد دينى تحتفل به الكنائس والمدارس اللاهوتية في الغرب تمجيذاً للملاك ميكائيل (المترجم).

«أصول العلم الحديث»^(١) (١٩٤٩) أيقظ الاهتمام بهذا الجانب في كل من أمريكا وإنجلترا وجذب كثيرًا من العلماء المتخصصين إلى هذا الميدان وأدى إلى قيام جيل جديد من مؤرخي العلوم.

وفي عام ١٩٥٣ طلب إليه أن يحاضر بجامعة كوينز في بلفاست واختار أن يعود إلى تاريخ علم التاريخ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو موضوع لقي اهتمامًا كبيرًا من مؤرخي الألمان وقلة من المؤرخين الأمريكيين، ولكنه لم يلق حفاوة من الإنجليز بالرغم من الجهد الذي بذله لورد أكتون وتلميذه «ج.ب.جوش» في هذا الصدد بكتابة «التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر»^(٢) (١٩١٣)، وحملته هذه المحاضرات على كتابة «الإنسان في ماضيه»^(٣) (١٩٥٥)، ووصلت بينه وبين عشرات من المؤرخين الأوروبيين والإنجليز تباينت مشاربهم حول هذا الموضوع فتناولوه بالنقد والتعليق. ولما نشرت هذه المحاضرات عام ١٩٥٥ أثارت اهتمامًا بالغًا بعلم التاريخ بين طلاب الجامعة، وطلبة البحوث والأساتذة، وعجب من أن يبلغ الحماس لعلم التاريخ هذا المدى، فحث الجامعات على قصر الدراسة بها على المؤرخين المؤهلين مزاجًا وخبرة لهذا الواجب، ومع غبطته باقتفاء أثر أكتون فقد كان يرى أن يبدأ طلاب البحوث بتبين الشواهد والأدلة والتمرس بأصول البحث العلمي قبل أي شيء آخر.

وبعد ذلك بعشر سنوات وفي عامي ١٩٦٥ و ١٩٦٦ دعى إلى محاضرات

The Origins of Modern Science.

(١)

History and historians in the Nineteenth century.

(٢)

Man on his Past.

(٣)

«جفورد» بجامعة جلاسجو والتي ذاع صيتها واشترك فيها بعض الأمريكيين منهم «وليم جيمس» و «جون ديوى» و «رينولد نيبور» واختار بترفيلد أن يطرح للمناقشة كيف أتيح للبشر القدرة على تصور الماضي وكيف ولماذا شغف البشرية بماضيها من قبل أن يبدأ تدوين التاريخ، وكان تصوره أن يكون للأديان الأولى أثرها في ذلك وإن أبدى دهشته من أن يكون الدين عدواً للحقيقة، ومضى يقول إن العقلية التاريخية برزت بالتدرج من خلال الرغبة العارمة للتوفيق بين الدين والتاريخ العلماني وكان على يقين من أن النتائج التي تمخضت عنها البحوث الحديثة في اللغات المصرية والعبرية ولغات ما بين الرافدين القديمة تتفق في هذا مع ما انتهى إليه مؤرخو الغرب في دراساتهم، وقد حدد في هذه المحاضرات مغامرته التاريخية الجريئة عندما أخذ على عاتقه أن يكشف عن التاريخ الحقيقي لعلم التاريخ مما أثار الاهتمام وخاصة في الولايات المتحدة، وإن بقى في شك من أنه قد ظفر أو يستطيع أن يظفر بالمعرفة الشاملة التي يراها ضرورية لنشر بحثه في هذا الموضوع. فينصرف عنه في منتصف الستينيات ولا يعود مرة أخرى إلى الفكرة التي تناولها في محاضرات جفورد.

وظل بترفيلد في كل كتاباته يعيد ويردد أن تفسير التاريخ في حاجة إلى البحث الدؤوب المضني وإلى القدرة على إعادة الحياة إلى الماضي الذي سلف باستخدام تلك الحشود من معالم التاريخ «يستعيد بها الماضي الذي ولى ليصنع منه هذا الشيء الذي يغدو صورة وقصة» وسعيًا وراء هذه الغاية يقتنى بترفيلد خطى معلمه وأستاذه سيد مؤرخي

الدبلوماسية «هارولد تمبرلى» ويستوعب طريقته فى الكتابة التاريخية الرفيعة ومبناها الدقيق، كما يقول أيضاً: إن المؤرخ ملزم بأن يتمثل موضوعه لا مدحاً ولا قدحاً، بل يعيه على حقيقته ويعى الظروف التى أحاطت به، ففى دراسته للمتغيرات الدبلوماسية التى صاحبت حملة نابليون على دول التحالف الرابع رأى نفسه فى حاجة إلى الرجوع إلى دور المحفوظات الكبرى فى لندن وباريس وفيينا وإلى الرسائل التى استخلصها من المحفوظات البروسية والروسية وإلى تقارير السفراء والوزراء والجواسيس لسانة ذلك العصر الكبار، وكل غايته أن يصور أفكار شخصيات العصر البارزة، وأن يميّط اللثام عن «التورط المهين، والتيارات الخفية، وصدام الشخصيات التى تختفى وراء الحروب النابليونية» وقد بدت نظرتة التاريخية الصائبة بارزة منذ البداية فى كتابه عن نابليون. فالقصة حقيقة عارية بعيدة عن التكهن ولا لبس فيها تقوم على عقيدة حتمية مسبقة لشعب متفوق أو ارتقاء حتمى، أو أنها تنذ عن مرام جلية مبينة، ولكنها من عمل تلك القوى الخفية للعناية الإلهية.

وقبل أن يصل بترفيلد إلى العام الحادى والثلاثين من عمره كانت أفكاره الجوهرية عن الدراسات التاريخية قد برزت جلية واضحة، فنال جائزة «ليياز» من كمبردج عن كتابه الأول «الرواية التاريخية» ولكن كتابه الثالث «تفسير الهويج للتاريخ» كان هو الأساس الذى قامت عليه مؤلفاته الأخيرة وبدت فيه فكرته عن «تشابك التغير الإنسانى» والطابع المبهم للعواقب القصوى لأى عمل معين أو أى قرار يتخذه الإنسان،

وعلى التدوين التاريخي أن يكشف عن التركيب الذي يقوم عليه هذا التشابك، كما يؤكد التغير التاريخي عند بترفيلد الحاجة إلى الإصلاح دون الثورة التي تفرز الكراهية، والمعاناة الإنسانية وتشيع الدمار حتماً. وعندما كان بترفيلد في بواكير الثلاثينيات كان على يقين تام بأن الشارح المسيحي أكثر حصانة من الوثنية والتهويمات الطائشة من أي مؤرخ سياسي آخر طالما لاذ بإيمانه من فجاءات التاريخ وأحداثه، وحين يعبد الله خالصاً فإنه يتقن أمثال تلك الغوائل الفاسدة كعبادة الدولة والتعصب لها، أو فكرة التميز، أو المذاهب السياسية المبهمة، فالإيمان بغاية الدين العليا يتيح للمؤرخ أن يعرف «هذا الغشاء الرقيق بعيداً عن لعبة الزمن واتجاه الأحداث» فالعناية الإلهية تخضع البشرية لأحكامها، وإن الله لأوسع رحمة على مدى التاريخ من أن يكون جباراً قاسياً، حتى وإن اضطرعت مشيئة البشر وغت عن صلف الإنسان وأنانيته الجائحة؛ فإنه ليس في هذا إلا أداة للمشيئة الإلهية لتفصح عن الخير من خلال الشر. فالثورة الأمريكية مثلاً قد حملت الإنجليز على إبداع تصور أكثر رقياً وتحضراً للإمبراطورية، وأعظم ما يبدع الإنسان ما ندّ عن الكرب وضيق النفس، وقد تندّ النظم السياسية التي قامت على السلب والنهب كنظام روما القديم والإمبراطورية البريطانية، على مدى الزمن بنظام سمح عادل.

لهذا يرى بترفيلد أن الدراسات التاريخية واللاهوتية صنوان لا يفترقان وأنّ كلاهما سند للآخر، فلكلّ منهما ركيزته في تناول الشخصية الإنسانية، وقد جلبت عليه هذه الازدواجية نقد المؤرخين

عامة، حتى المؤرخين التقليديين أنفسهم، فقد رأى البعض في كتاباته الدينية انحرافاً عن واجب المؤرخ في إبراز أعظم قدر من الحقائق التاريخية الصماء، وهو ما كان يمكن أن يقوم به فيما لو مضى على نهجه في بحثه عن «شارل جيمس فوكس وجورج الثالث» وقد وصل إلى ما وصل إليه من مكانة رفيعة كأستاذ وإداري بجامعة كمبردج حتى أصبح نائباً لرئيسها منذ عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٦١ لما عرف عنه من تمسك بالقيم الأخلاقية، وإن حالت مناصبه الجامعية، ودوره القيادي في الهيئات التعليمية الوطنية والدولية بينه وبين التفرغ للعمل الأكاديمي، كما كان للمحاضرات التي اضطلع بها وتناول فيها بوجه خاص الفكر الديني في ألمانيا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة مثل هذا الأثر. وقد أثار «بيتر جراي» وغيره من المؤرخين إصراره على أن الشر سمة على السلوك الإنساني كما أن الطمع والأثرة بعض طبيعة الإنسان في سلوكه الاجتماعي، مع أنه ضعيف الثقة بقدرة الشرفاء على التغيير الاجتماعي حتى من خلال الوقائع ذات العواقب البينة. وحمله هذا النقد لما أشاره حول العواقب الناجمة عن النوايا الأخلاقية والعقلية للقائمين على الأمور على أن يغضى عن أي جدل مع مؤرخي القرن العشرين من الإنجليز أمثال «لويس نامير» وحوارييه ممن رأوا السياسة صراعاً حول الكسب والمنافع الذاتية، فالأفكار والمواقف والنوايا العقلية، كما يرى بترفيلد، تتفاعل مع الاهتمام الدقيق بالسياسة، ويخطئ المؤرخون حين يخضعون السياسة لكل الأفراد ولكل حقبة لمستوى واحد لا يختلف، ومدرسة «نامير» كما يرى بترفيلد، غالباً ما تدعى أن السياسة ليسوا أكثر من

مستودع للاهتمامات الذاتية، وتخطئ بهذا في تفسير الحركات السياسية، والأحزاب، فإنها لا تتحرى اهتمامات الأفراد ومصالحهم فحسب، ولكنها تشدد على القيم والمثل أيضاً.

وكان هناك نقد أكثر جدية وله وجاهته إلى حد ما لرؤية بترفيلد وتصوره المسيحي لبعض المعايير التاريخية، ففي كتابه «المسيحية والتاريخ» (١٩٤٩) يفسر انهيار ألمانيا وهزيمتها في الحرب العالمية الثانية، كما لو كان عقاباً إلهياً جزاء ما اقترف الألمان من ذنوب، وكان أن سألته النقاد: وماذا عن تلك الكثرة من الألمان الذين تصدّوا لنظام هتلر بكل ما نالهم من سوء؟ وماذا عن شعوب البلطيق التي عانت كالألمان أضرار الحكم النازي، ولم يقترفوا ما اقترف النازي من قسوة ووحشية؟ وكتب بترفيلد عن حاجة الفكر التاريخي إلى نمطين مختلفين من الدراسة: هذا النمط المنهجي القاصر على الدنيويات ولا يحفل بغير البيانات التاريخية الجامدة الملموسة، وهذا النمط الآخر للعناية الإلهية البعيد عن تناول المؤرخين المنهجين، وبقي النقاد على موقفهم من بترفيلد، وبخاصة عندما يقتحم ميدان التاريخ العام، فإنه يقحم عليه ما يدين به من سنن المسيحية وعقيدتها وهي التي أغفلها في سرده المنهجي للتاريخ والتي حرص فيها على إبراز دور القبايل الفرد في التاريخ، وأشد من هذا كله إغراقاً في الخطأ أنه يبدو أحياناً كما لو كان يخاطب العناية الإلهية. ومن الإنصاف أن تقول، إن هؤلاء النقاد الذين يقتبسون هذه القيم الأخلاقية من كتاباته وكأنها للشعب الألماني عامة في عرضه المسهب للروح العسكرية، يجدون أنه يقول: «إذا كان

علينا أن ندين الألمان فإننا يجب أن ندين أنفسنا جميعاً وأن ندين كل نظامنا القائم والكيان العام لحضارتنا ذاتها»

ولا يقف تأثير بترفيلد في الفكر الغربى على إنجاز الضخم فى التاريخ التقليدى وتاريخ المسيحية فى عام ١٩٥٨ ينشئ الجمعية البريطانية للسياسة الدولية، ويرأسها قرابة عقدين من الزمان، وقد أخذت على عاتقها البحث فى طبيعة النظام الدولى، والفكر الدبلوماسى، وأصول السياسة الخارجية وأخلاقيات الحرب والعلاقات الدولية. وكانت أعمالها انعكاساً لأفكار بترفيلد التاريخية والدينية، وكان اهتمام هذه الجماعة من المفكرين الإنجليز قرين اهتمام أندادهم من المفكرين الأمريكين الذين أنشأوا بدورهم جمعية على غرارها، وكان لجماعة بترفيلد اهتمامهم الكبير بما هو تاريخى عما هو معاصر، وبما هو معيارى عما هو علمى، وبما هو فلسفى عما هو منهجى، وبالمبادئ دون السياسة، وكانت مطبوعاتها المبكرة الضخمة صورة لكل ما كتب بترفيلد، فتناولت القانون الطبيعى، والدبلوماسية الجديدة والدبلوماسية التاريخية والمجتمع، وفوضى العلاقات الدولية، والقيم الغربية فى العلاقات الدولية، وتوازن القوى، وقدم أقرب خلاصاته «مارتن ويت» مؤلفاً ضخماً بعنوان: «لماذا لا توجد نظرية دولية؟»

وكانت دراسة الجماعة البريطانية لنظرية العلاقات الدولية وتحليلها على نقيض الدراسة الشائعة للمدارس الأمريكية والأسترالية، إذ اتخذت من إدارة الدبلوماسية والمجتمع الدولى والسياسة القومية إطاراً لأبحاثها على أساس تاريخى وتجريبى وقياسى بدعوى أن الاستمرارية التاريخية أكثر أهمية

من الابتداء في النظام الدولي، حيث تصبح الإدارة الحكومية زاداً تاريخياً لكم من التجارب العملية الحكيمة، فليس لكتاب السياسة والدبلوماسية والقانون القدامى عهد بالدراسات الجديدة لعلم النفس والاجتماع، وإن هذا الحشد من الخبرات الدبلوماسية والعسكرية السابقة في ميسر الحاجة إلى دراستها وإعادة تقنينها لتواجه مطالب العصر. وتأييداً لما تضطلع به اللجنة من اهتمام بالأخلاقيات، يكتب بترفيلد: «إن الهدف الضمني هو إنارة السبيل للحصافة والإلتزامات الأخلاقية التي طوقت الجماعة الدولية على مدى التاريخ وما زالت تمسك بها حتى وقتنا هذا».

وكان الأثر الذي تركه بترفيلد والجماعة البريطانية أكثر قوة في الولايات المتحدة منه في بريطانيا، وجاء الإهتمام الأمريكي بعمل الجماعة متفقاً مع الوعي النامي خلال الخمسينيات والستينيات، لتلك الحفنة من الساسة الواقعيين في البداية، وأخيراً لأصحاب القرار والصحفيين عن الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وإنه أكثر من أن يفسر على أنه نزاع بين ما هو حق مطلق أو باطل مطلق إذ يشوبه نوع من الحرج البالغ فلو أن القوتين العظميين متساويتان في القوة وفي القيم، لكان لكليهما العذر في أن يخشى الآخر، ولكان كل منهما على يقين من نواياه الطيبة دون أن يثق بالآخر، ولأحس كل منهما بأن منافسه يمتلك هذا الشيء الذي يشعر معه بالأمن، وأن كلا من طرفي الصراع قادر على حماية أمنه بالتهديد واستعراض القوة. ولكنه يغفل حقيقة أنه يستطيع أن يصون أمنه تماماً بالقضاء على أمن الآخر وتدميره. إذ إن

مشكلة قوة الأمن كما يرى بترفيلد هى المشكلة العسيرة العاجلة فى الحرب والسلام. وما من سبيل للتغلب على هذا الفشل الممض، فى رأيه، إلا عن طريق بعض الخبرات الهامشية، وهى خبرة تحتاج من أمريكا إلى نوع من الصلابة الفكرية كما كان بسمارك فى فكره القوى الفائر، وليست فى حاجة إلى ذوى المشاعر الرقيقة ممن لا يرون أيسر من الاستسلام. وقد أعلن بترفيلد رأيه هذا قبل عقد من إعلان نيكسون - كيسنجر لسياسة الوفاق. وأقام عليها الدليل وقال إن التسوية فى حاجة إلى رئيس متمرس بسياسة القوى داهية جسور، صائب الفكر السياسى والعسكرى، وكان فى شك من أن ينجح رئيس فى البيت الأبيض إذ هو يتهول من ذوى الأخلاق التقليدية أو الفكر العادى أو من أولئك المثاليين فى صياغة سياسة للتعايش السلمى والدفاع عنها.

وكانت الاستجابة لأفكار بترفيلد من جانب الساسة الواقعيين، وإن كان من اليسير أن ندرجه بين المتحدثين عن الواقعية والأخلاق العملية، إلا أن عمله كمؤرخ فضلاً عن تقاليد السياسة البريطانية الخارجية المديدة قد خففا من واقعيته فلم تكن سياسة القوة لدى الإنجليز بذات بال.

وقد احتل بترفيلد كنيبور أعظم مكان بين أقطاب الفكر الدينى، وكثيراً ما كان يستشهد بالإنجيل كما يستشهد بالنصوص التاريخية يتخذ من حكمتها مثلاً للسياسة الخارجية، وكان مما يراه أن القلق الذى يساور الديمقراطيات الناشئة قليلة الخبرة هو أشد ما ينوشها من أخطار

فيقودها كجمهورية فيار في ألمانيا إلى أحضان الديكتاتورية. ومن
مأثورات الإنجيل البليغة: « لا تضحي بنفسك من أجل الأشرار » وعلى
أصحاب الرأي ألا يتوانوا في تحقيق السلام حتى يتم لهم استئصال شأفة
الشُرور من العالم، فإنَّ ما كابدته المسيحية لإقامة علاقات دولية لا يقوم
على اختيار الواقع الحقيقي من السياسات، كما يقوم على واقع فكري أو
خلة حضارية تقود الإنسان في خطاه . فالمسيحية تكشف عن حقيقة
المعصية في الإنسان في اعترافها بوجود الأشرار، وإشْد ما يواجه السياسة
الدولية من عثرات هو الطمع الواني عند العدد الأكبر من الناس في
أمل يرجون تحقيقه عن طريق شعوبهم بينما ينكره المجتمع على أفرادهم
فيارسون الضغط على حكوماتهم مما يتعذر معه إقامة علاقات سوية بين
الدول، وعلى الدين أن يحول بين الإرادة صاحبة السلطة في الشعب
وبين ممارسة القوة في تحقيق مراميها، دون الاعتماد على العناية الإلهية.

ويناشد بترفيلد قادة الحكم والدين في أمريكا أن يدركوا حدودهم
ويستلهموا فطنتهم حين أخذت الحرب الباردة في عنفوانها تشير مشاعر
المواطنين وتنذرهم بالخطر من حرب نووية مدمرة ويصل في هذا إلى
أوج فكره العظيم الخالد.

من اللاهوت إلى
الصحافة السياسية

رينولد نيبور (١٨٩٢-١٩٧١)

ولد نيبور (كارل رينولد نيبور) في الحادى والعشرين من يناير ١٨٩٢ في مدينة رايت بولاية ميسورى إلى الشمال الغربى من سان لويس بخمسين ميلاً. وهو الولد الثالث والطفل الرابع لأبويه جوستاف وليديا نيبور، ولم يكن قد مضى على مولده أسبوعان حتى أضرب عمال الصلب في هومستيد بالقرب من بتسبرج. وقتل في الإضراب ثمانية عشر عاملاً وجرح كثيرون على يد ثلاثمائة من المأجورين. وكان أبوه أحد قساوسة المجمع الأنجيلي الألماني من أتباع لوثر، وقد توحدت الكنستان اللوثرية والكلفنية في كنيسة أنجيلية واحدة عام ١٩٣٤، وكانت شقيقته الكبرى هيلدا قد أصبحت أستاذاً للدراسات الكنسية في كلية ماكورميك العليا للاهوت في شيكاغو أما شقيقه الثانى والتر فقد اختار العمل بالصحافة، وتوفى الابن الثالث طفلاً، وأصبح شقيقه الرابع «هيلموت ريتشارد» ويصغر رينولد بعامين من رجال اللاهوت المعروفين وأستاذاً للاهوت بجامعة ييل، وكان أبوه قد هجر ألمانيا في السابعة عشرة فراراً من قسوة أبيه وطغيان مترنيخ ونظامه الرجعى، وظلّ يتنقل حول كارل

شورز حتى عام ١٨٤٨ إلى أن استقر بأسرته في سانت تشارلس بولاية
ميسوري حوالى عام ١٨٩٠، وفي سنة ١٨٩٢ نرح إلى لنكولن في الينوى
حين أنشأ فورد شركته لصناعة السيارات.
وعاشت الأسرة حياةً هنيئةً برغم دخلها المتواضع الذى يبلغ ألفاً
ومائتى دولار فى العام، وظلّ نيور يعتز بمكانة أبيه فى المدينة، وأنه قد
درس له التاريخ واللغة اليونانية وآثار توماس ماكولى، الذى قال فى
بعض ما كتبه : « ما من شىء أقل جدوى من المآثورات العامة » وورث
الابن عن أبيه شجاعته فى التصدى للثراء والرجعية ودعوة الجيل
الصاعد من الفلاحين الألمان ليكونوا أكثر حذباً على جيرانهم وقربى إلى
الله. وكانت كلية « المهرست » وهى إحدى الكليات المحلية الصغيرة فى
الينوى تخصص منحاً دراسية لأبناء القسس، فبعث الأب بولديه رينولد
وريتشارد إليها، ولما أصبح ريتشارد عميداً لها بعد ذلك نالت الحق بمنح
خريجها درجة البكالوريوس، فأمضى بها أربع سنوات دراسية دون أن
ينال درجة علمية (مما عاق دراسته بجامعة ييل) فالتحق بكلية « إدن »
لدراسة اللاهوت لمدة ثلاث سنوات تتلمذ فيها على « الدكتور صموئيل
برسى » أول أستاذ متفرغ لتدريس اللاهوت باللغة الإنجليزية بدلاً من
الألمانية، وتوفى أبوه أثناء دراسته فى « إدن » فى إبريل ١٩١٣ بمرض
السكر، وأصبح عليه وما زال فى الحادية عشرة من عمره أن يقوم بأود
أسرته، فكان يقوم ببعض الخدمات الكنسية يوم الأحد بكنيسة لنكولن
حيث كان يعمل أبوه، ثم بما كان يقتصده من منحة الدراسة بجامعة
ييل إلى جانب ما يكسبه من الوعظ بين حين وآخر.

وقبل نيور للدراسة بجامعة ييل، فلم يكن القبول بمدرسة اللاهوت بجامعة ييل يخضع لنفس اللوائح التي تخضع لها الأقسام الأقدم ككلية اللاهوت العليا بالجامعة، وانتشى بمناهجها الدراسية وبالمصادر العلمية العديدة التي تمتلئ بها مكتبة الجامعة، وإن ظلّ في قلق من فاقته، ومن إحساسه بلهجة أبناء الغرب الأوسط التي تغلب على نطقه.

وبينا يكتب زميله «جون أوهارا» وكان من نفس طبقتة في مرارة لا يخفيها وكراهية سافرة عن هذا الفريق من الشباب المتسلق الذي يختال بأرديته الطريفة الرائعة وشبابه الغض في حرم الجامعة لا يرى نيور في هذا الحرمان إلّا أنه وخزة لاتدمى. ولعلّ ذكريات صباه، البهيجة في أسرته، وحبّه وتوقيره لأبويه، ونجاحه المبكر، ما صانه من أى هزة أو أثر لهؤلاء الطلاب المحظوظين.

ولم يكن نيور في ييل ينتمى إلى أقلية بعينها وإنما إلى عدد من الأقليات، فهو الفقير في زحمة من الأغنياء، وهو من أبناء الغرب الأوسط في هذا المحيط من الساحل الشرقى، ومن هؤلاء الجدد المهاجرين إلى أمريكا بين هؤلاء الرّواد الأوائل من أهل نيو إنجلند، والطلاب المتدين في جامعة علمانية، وطالب قد أتم دراسته ولا يحمل مؤهلاً، ومن المهاجرين الألمان في وقت كانت ألمانيا فيه على عداء مع أمريكا، وبق هذا الإحساس ينوشه لسنوات طوال حتى أنه حين سأله أحد أبناء ييل البارزين بعد ذلك بسنوات أن يرشح نفسه لرئاسة الجامعة، لم يعترض ولكنه حذر من أن اختيار رجل مثله بانتماؤه تلك العديدة قد لا يلقى قبولا، وكان على حق في هذا.

وبقى نيبور في ييل عامين حقق فيهما من النجاح الدراسي، ما أتاح له أن يستكمل دراسته العليا دون الحصول على البكالوريوس، فقرأ كتب «وليم ي. هوكنج» و «وليم جيمس» و «جوسيا رويس» بينما كان يؤدى موعظة يوم الأحد بأبراشية دربي الصغيرة في كوينكتكت، وترك ييل بعد أن برم بدراساتها الفلسفية، وإلحاق كنيسته في العودة إلى أبراشيته. وكان في الثالثة والعشرين حين آب إلى الغرب الأوسط، وإلى مدينة ديترويت الناشئة، وقد نما تعدادها من نصف مليون إلى مليون ونصف المليون نسمة في الفترة ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩٢٨، كما تضاعف عدد المشتركين في أبراشيته الإنجيلية في «بيتل» إلى عشرة أضعاف عددهم الأول، وقام بدلاً من بنائها الصغير المقدر بثمانية آلاف وخمسمائة دولار، بناءً سامق بلغت تكلفته مائة وثمان وعشرون ألف دولار، حيث نشر كتابيه الأولين: «هل الحضارة في حاجة إلى الدين»^(١) (١٩٢٧) و «أوراق من مذكرات ملحد تائب»^(٢) (١٩٢٩) وبهما توطدت مكانته راعياً لكنيسته، وأن تصدى لهنرى فورد على قوّته، حين حوّل الناس في جهازه الصناعى الضخم إلى مجرد آلات لينتج سيارة رخيصة الثمن، ثم ينبذهم بعد ذلك بلا عمل أو معاش وهم في ربيع العمر، وكان قد استغنى عن ستين ألف عامل من مصانعه حين غيّر طراز سيارته إلى طراز آخر، وردّ كل رجاء لهم بحجة أن ما قام به هو لصالح الجماعة، وحتى يجابه نيبور هؤلاء السادة الأقوياء من

Does Civilization need Religion.

(١)

Leaves from the Notebook of a Tamed Cynic.

(٢)

أمثال فورد، وإن سلم له بأن ابتكاره مورد رابع من موارد الجماعة، فقد رأى أن يعرض له بأسلوب عملي بعيداً عن النظريات وأثار هذا السؤال القديم عن أخلاقيات المجتمع، وهو العلاقة بين الحرية والعدالة.

ولم يقف نيبور طوال حياته عن نقد هؤلاء الرجال ذوى النفوذ والسلطان دون حساب للخسائر، وإن بدأ بهنرى فورد رجل الأعمال القوى، فقد حوت القائمة غيره من رجال الحكم «كجون فومستر دلاس» وأقطاب الناشرين «كهنرى لوس» والأنجيليين «كبيلى جراهام» وقد اتهمه نيبور بأنه أصبح الملاذ الدينى للرئيس «ريتشارد نيكسون» وكان له من اتحاد المدارس اللاهوتية العليا فى نيويورك منبراً ينطلق منه صوته الشبيه بصوت الأنبياء خالصاً من كل إحنة أو موجدة، حين وقف إلى جانبه، يزودون عن حقه فى التعبير عن رأيه، رؤساء الاتحاد «هنرى سلون كوفن» و «هنرى بت فان دوش» و «جون س. بنيت» واحداً بعد الآخر، فعند انتقاله إلى نيويورك عام ١٩٢٩، كان إنبهار سوق الأوراق المالية، وحلول الفقر الجائح وطواير الخبز، وبداية القحط، وأخذت الأوهام تكتسح المجتمع، وتطيح بالكثير من عقوله المفكرة. وقبل ثلاثة أيام من تنصيب «فرانكلين ديلاانو روزفلت» فى الرابع من مارس ١٩٣٣، كتب نيبور فى صحيفة «ورلد تومورو»^(١) يقول: الرأسمالية تحتضر..وعليها أن ترحل» (وقد عاد من بعد ليجحد هذا القول ويقول إنه كان عليه أن يجتر هذه الكلمات. وكان نيبور خلال العشرينات

(١) عالم المستقبل الغد.

يتشيع للمذهب الليبرالى المحافظ، ثم عاد فى خلال الثلاثينيات، يفضل الماركسية للمجتمع الأمريكى، وكان أن تنقل بفكره ما بين الليبرالية والماركسية فى مرحلة تطوره.

وقد تأثر نيبور فى فكره اللاهوتى إلى ما قبل عام ١٩٣٢، بنزعة التحرر البروتستانتى، وإلى حدّ ما بفلاسفة الإصلاح الإجتماعى، ففي عام ١٩١٥ عندما انتهى من دراسته بمدرسة اللاهوت بجامعة ييل، وحتى عام ١٩٣٢ عندما أصدر كتابه «رجل أخلاقى ومجتمع لا أخلاقى»^(١) كانت فلسفته السياسية قريبةً إلى حدّ ما من ليبرالية القرن العشرين، وبخاصة فى عواقبها العملية، ففي خلال تلك الأعوام اجتاحت تلك الأفكار الليبرالية، كتنأيده لعصبة الأمم، والتسامح العنصرى، والتعاطف مع نقابات العمال، وسيطرت على فكره، فاعتنق الكثير من دعاوى الفلسفة الليبرالية التى أخذ من بعد يحفوها أو ينبذها. حتى إذا رأى من أوضاع النظام الصناعى الأمريكى على الطبقة العاملة فى ديترويت، عندما كان يعظ فى أبراشيته هناك، انقلب يدعو فى حماس دافق إلى الحلول الليبرالية، فحمل على البروتستانتية فى تأييدها للمتأفزيقية على حساب الفلسفة الأخلاقية للمجتمع، فى وقت غلبت فيه النظرة العلمية فأفرزت رؤيا جديدة وحلولاً أخرى جديدة للظلم الاجتماعى وللتوفيق بين العلم والدين.

وإن كان نيبور قد أخذ منذ عام ١٩٢٩ يشكك فى بعض الأفكار

الليبرالية، إلا أنه حين أصدر كتابه «تأملات في نهاية حقبة»^(١) (١٩٣٤)، كانت تلك هي البداية في تحول أفكاره، ففي عام ١٩٣٦ وفي صحيفة «راديكال ريلجن» وكان له دوره في إصدارها، وضع ستة نقاط للمذهب الليبرالي ما زالت تحجب حقيقته عن العالم، وأن عليها أن تشيع للمبادئ التالية :

١ - الجهل علة الظلم، ولا يلقي الظلم سلاحه إلا بالتعليم والذكاء المتميز.

٢ - الحضارة تتحول لتصبح حضارة أخلاقية

٣ - أن الأخلاق الفردية وليس النظام الاجتماعي هي أساس العدالة.

٤ - أن أي دعوة للإخاء والنوايا الطيبة يجب أن يكون لها ثمرتها في النهاية، ومالم تكن لها ثمرة. فما علينا إلا أن ندعو لها وأن نبذل المزيد من الجهد في الدعوة لتحقيقها.

٥ - الخير مرقاة السعادة، والسعى إليه والإيمان به هما السبيل إلى قهر الأنانية في نفوس الناس.

٦ - الحرب جهالة وعليها أن تستجيب للعقل.

وحين قدم نييور نقاطه الست هذه، قال إنها تخضع للحوار كما تحتل الشك، فما كان فشل الليبرالية الآمن غفلتها عن تبين الخلاف الأبدي بين أهواء الإنسان وعلمه، والتشاعر الخالد بين حياة

وحياة أخرى، والجمود الذهني في سلوك البشر، والإلتواء الذي يصم التاريخ الإنساني.

فالليبرالية حين غالت في قدرة الإنسان على قهر الطبيعة وإخضاعها لخيرها، وفي مسيرة التاريخ الإنساني وتقدمه، قد قوضت كل السجايا الطبية للعقيدة الدينية، وتلك حالة مرضية ليس من اليسير شفاؤها. ويمضي نيبور فيقول «لأن الذين يحملون الهم هم تلك الفئات التي تتخيل نفسها قادرة ولها رؤيتها الصائبة، وبعبارة أخرى، لأن الليبرالية لم تعد قادرة على مواجهة أزمات العصر لتصورها الساذج للإنسان ولطبيعة النظام السياسي، بعد أن غدت انفعالاً مذهبياً لتبرير أثره الإنسان وسيادة الطبقة الوسطى» ويفصح نيبور في جانب من نقده عن الحاجة إلى فلسفة لا تتناقض مع التجربة السياسية، وفي جانب آخر، عن أن برمه بالليبرالية قد استوحاه من الماركسية وما عرفه من تخيلاتها، وقد ظلَّ حقةً مديدةً من الزمن غارقاً في تلك التخيلات قبل أن ينبذها جانباً.

وظلَّ نيبور حتى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ينشد الواقع الاجتماعي يغذيه برمه المطرد بالليبرالية، وما نجم عنه من جاذبية نحو الماركسية، فما من خلل في الأولى إلا وجد صوابه في الأخرى، فالليبرالية قد فشلت في أن تربط الفرد بالمجتمع رباطاً عضوياً، بينما اتخذت الماركسية من المجتمع بدايةً ونهايةً، وبينما ترى الليبرالية أن نمو المصالح الفردية نوا لمصالح الجميع، ترى الماركسية أن ذلك ليس

إلا تعبيراً عملياً عن أيديولوجية الطبقة الوسطى، وبينما تحجب الليبرالية صراع المصالح المتفشى بين الطبقات، تكشف الماركسية عن حقيقة الصراع الاجتماعى والاقتصادى الدائب بين الطبقات، وبينما تنادى الليبرالية بأن العدالة تتحقق فى نظام اقتصادى حر، تعلن الماركسية أن الظلم باق ما بقيت التفرقة الاقتصادية قائمة، وبقي نيور حتى عام ١٩٣٢ على يقين بأن الماركسية لم تقع فى أى خطأ فى إبراز الهدف الرشيد الذى تسعى إليه الإنسانية فى عدالة المساواة، أو كما تراه فى أدراك الأسس الاقتصادية للعدالة.

وبالرغم من تأثير النظرة الماركسية واتساقها لدى نيور، فإنه منذ العشرينيات يغدو فى ريب من أكثر فروض الماركسية ولا يطمئن إلى ما يسفر عنها، ففي العدد الأول من «راديكال ريلجن» يرى أن تمجيد الشيوعية يشير العديد من الأسئلة التى تعوزها الإجابات، وأثار موضوع التفسير المادى للتاريخ، «فإذا نبذنا التفسير المادى للتاريخ كلية كما يقول ضاعت منا تلك النظرة الصائبة».

وقد أعادت الماركسية الكشف عن الحقيقة القابعة فى رسالة الأنبياء، وهى أن كل ثقافة الإنسان وأخلاقياته ودياناته ليس تجريدات مطلقة ولكنها مغلفة بطاقة الإنسان وإن أفسدتها خطيئته، وإن كان من يدين بالماركسية صراحة ويعتنقها دون تحفظ، يقع فى العنف من بين ما يقع فيه ويعزوه إلى منطق الجدل ما بين الماهية والكنه وما بين الحرية والضرورة، وقد حذر نيور الشباب الأمريكى من الإنسياق وراء

العواطف الليبرالية أو عدم التسليم بدجمائية الماركسية وإلا وجدوا أن إيمانهم الليبرالي ما لم يتسم بقدر واف من الإيمان المسيحي الفريد قد حل محله إيمان فطري قد يبدو قريباً من الواقع عند تحليله للأوضاع الاجتماعية حتى وإن تضاءلت فيه النظرة المسيحية الشاملة للحياة.

وقد برهنت الماركسية على أنها حليف وإن كان عابراً في حملة نيبور على ما تقدمه الليبرالية من حلول لمشكلة العدالة في المجتمع، فالليبرالية تنشأ حلولاً لكبريات الأمور باستجداء عواطف الرحمة والحب عند الناس، بينما تدرك الماركسية أن العدالة لا تتحقق دون صراع عنيف بين ضحايا الظلم ممن يقع عليهم الغرم وأولئك الذين يفيدون منه، وإن بدا لنيبور عام ١٩٣٥ أن الماركسية لا تقدم أكثر من صورة منقوصة يقوضها إيمان ماركس اليوتوبي بأن هذا الصراع لن يزول إلا بالقضاء على الرأسمالية، وفصل بين ما أضفته الرأسمالية من تهويل لمشكلة العدالة وطبيعتها الثابتة منذ القدم في كافة المجتمعات الإنسانية، كما أن الصراع من أجل القوة يمضي في صورة أو أخرى في كافة المجتمعات، وقد نجم هذا الوهم الماركسي من التسوية بين الصراع الطبقي والتنافس البشري، بينما يرى نيبور أن الصراع من أجل القوة لا ينتهي وأنه يعبر عن ذاته دائماً فيما يصدر عن الطبيعة الإنسانية الزائلة وعن الخطيئة.

ومن الحق أن نقول إن نيبور قد تقبل في وقت ما نقد الماركسية لليبرالية بغير حذر أو فطنة ودون بحث جاد أو نقد حصيف، وأن كان ذلك لا يجدي في التدليل على أن تأثيرها عليه مما يمكن إنكاره، فعندما

خيمت الكتابة وألقت بظلالها الكثيفة على الفكر العالمى خلال فترة الإنهيار الكبير بدت توقعات الماركسية وتقديراتها وكأنها صادقة فى عديد من الدوائر، فالرأسمالية تدمر نفسها وما عليها أمام تلك الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى اجتاحت أمريكا إلا أن تخلى السبيل للملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وليس هناك ما هو أقل من ذلك لقيام مجتمع سليم فى هذا العصر الصناعى. فإذا كان نيبور قد غير من نظريته لتتوافق مع الواقع المتغير للنظام الإقتصادى الأمريكى قبل غيره من الباحثين الاجتماعيين، فقد ظل لا يدرك لأسباب ماركسية، الطبيعة البرجماتية للثورة الاجتماعية فى النظام الجديد (نيو ديل). المناقض لنبوءة ماركس، وكان الرئيس الأمريكى فرانكلين ديلاانو روزفلت يخوض معركة الأليمة لبرنامج الإصلاحات تواقاً إلى الإصلاح الاجتماعى الذى ينشده نيبور، فإن الفيلسوف السياسى قد رأى روزفلت المسئول السياسى متردداً يترنح ولا يؤمن تماماً بجدوى ما يعتقد، وقد لا يكون ثمة خطأ آخر فى تفكير نيبور له مثل هذا الأثر العميق فى تطور هذه المرحلة الأخيرة أو المرحلة البرجماتية الواعية فى فلسفته.

هذا إلى أن الخطر الحقيقى على الشعب قد نجم عن الخلط وسوء التقدير للقوى السياسية والاقتصادية فى تلك الفترة، وقد رجع نيبور عام ١٩٣٢ إلى نبوءة برتراند راسل التى يرى فيها أن العصر الصناعى يواجه حتماً بعض صور الأوليجاركية وأردفها بسؤاله أى الصورتين من صور الأوكيجاركية الشيوعية أوالرأسمالية أشد من الأخرى ضرراً،ومن المحتمل

على المدى الطويل إذا صدقت نبوءة رسل أن تكون الأوليجاركية الشيوعية أقوم وأفضل؛ فإن سلطة الأوليجاركية-كما يرى نيبور- في النظام الشيوعي سلطة سياسية فحسب، ولن تحول أى مصالح اقتصادية خاصة بينه وبين متابعة السياسة الاقتصادية التى تتفق مع المصالح الوطنية، وقد نبذ هذه الفكرة فيما بعد، وقال: «لم يكن هناك من يدرك أن الاشتراكية الديمقراطية قد تجد حلاً لمشكلة الخوف في اقتصاد جماعى، وإنما تستطيع أن تفصح عن أوضاع تركيز القوى الاقتصادية والسياسية في أيدي البيروقراطية حتى وإن اتخذت قالباً ديمقراطياً».

ولم يكن تنديد نيبور بالماركسية لينبذها من بعد إلا انعكاساً لتاريخ تلك الفترات وحتى نكون على بينة فإنه حين بدأ يثير الشك حولها، كان ذلك من الناحية الفلسفية لا من حيث الخبرة والممارسة، ففي بواكير الثلاثينيات بدأ تنديده المؤسسى بأوهام الماركسية في تصورهما لطبيعة الإنسان، فالإنسان في نظر الماركسية يتغير بتغير الحكم، بينما يرى نيبور أن المجتمع اللاتبقى عليه أن يتحرر من القيود التى يفرضها على الإنسان، وأن مشكلة السلطة أوتوبيا مثالية شبيهة بحنان الليبرالية وعواطفها الرقيقة، وكانت النقطة الأخرى التى عرض لها بالنقد قبل أن يعرض لها أى مفكر آخر من أقرانه هى التجربة الروسية ذاتها، ففي عام ١٩٣٦ عرض لكتاب «بياتريس» و «سدنى ويب»: «الشيوعية السوفيتية، حضارة جديدة»^(١) وأخذ يندد بما شابه من خلط بين الأصول والأسس القانونية والحقائق السياسية. وفي الدراسة التى أفرد لها ويب

للإدارة المحلية في مدينة نيويورك تناسى أن يشير إلى «قاعة تاماني»^(١) وحتى عام ١٩٣٩ لم يكن ثمة بيئة على لاجحة. وبينما تذهب الماركسية إلى أن الشر يخفى باختفاء الرأسمالية ودمارها، كان الواقع الروسى يكذب ذلك تماماً. وبينما تذهب الليبرالية إلى أن التعليم قادر على انتشال الناس من وهدة الظروف الاقتصادية، ليصنع منهم أطياً زاهية تحدد النوايا الطيبة، فإن مجتمعنا ينفى ذلك ولا يصدق هو الآخر.

وفيا عدا ذلك، فإن نيور لم يعرض في نقده الاجتماعى لما تصوره عن طبيعة الماركسية الشيطانية كديانة علمانية إلا في مرحلة متأخرة. فبين المرة والأخرى خلال الثلاثينيات كان يشير إلى أن ماركس وقد أمسك بطرف من الحقيقة، قد خلط بين الأمور حين عزا المشكلات الجوهرية إلى أسباب خاصة، ولكنه لم يكتب العبارة التالية إلا في الأربعينيات «إن مأساة جيلنا الفادحة.. هي أن البديل للرأسمالية قد أصبح علة أشد سقماً من العلة التى تصدى لعلاجها» وهذا الفشل، كما يرى، هو الحصاد الطبيعى لأوهام الماركسية، وليس حصاً لإفساد الستالينية للماركسية، وهذا الوهم الذى وقعت فيه أنها عزت كل الفضائل الإنسانية لطبقة بعينها، هى طبقة البروليتاريا، وأن الشرور الإنسانية حصيلة نظام بعينه، هو الملكية الخاصة وهما فرضان ليسا على ضلال فحسب، ولكنها يتناقضان أيضاً فى وضع كل منهما قبل الآخر، فإن

(١) قاعة تاماني Tammany Hall مقر التنظيم السياسى للحزب الديمقراطى فى مدينة نيويورك. المترجم.

أولهما يفترض أن مجتمع الخير يخرج من أحشاء التغير الاقتصادي، طالما كان الإنسان وليداً ضالاً للقوى الطبيعية، أما البروليتاريا وإن انفردت بالقوى الاقتصادية وفقاً للفكرة الماركسية، فقد اختارت أن تلجأ إلى السلطة المطلقة خلال فترة من المجتمع القديم إلى هذا المجتمع اللاتطبق الرهيب المأمول، ويؤدي هذا الوهم من تهويمات الفكر الماركسي إلى هذا الخطأ المميت القاتل، طالما كان يضافى هذه القداسة على نمط من الإصلاح الاجتماعي المقنن خالياً من كل تأثير أو توجيه عام ويتكفل بحل معين لمشكلة الخلق الاجتماعي، ويفترض أن طبقة بعينها هي التي خلت من الرذيلة.

وليست هذه القداسة التي غلفت الشيوعية السنوفيتية وكست طبيعتها الجماعية المطلقة شيئاً عارضاً ولكنها تدين بكل طاعة لفروضها المنطقية، فالحقيقة الجزئية تختلط بالحقيقة الكلية تقوم عليها وتديرها طبقة وكأنها إله على الأرض، وتحولها إلى عقيدة عالمية تبدو فيها القسوة والعنف والظلم وكأنها أدوات مشروعة في عرف التاريخ.

فالماركسية حين ألقت الضوء على أسوأ ما في الليبرالية من أوهام، فغلقت فكر نيبور بأخيلتها، قد انتهت بوضع قوانين، وأقامت سنناً أكثر شراً وإثارة للفرع، وقد يبدو غريباً أن نيبور وقد اجتاحه الوهم مرتين، قد ثوى خلال الثلاثينيات إلى هذا الركب من الباحثين عن نظرية سياسية أكثر حياة وقدرة، فأخذ يستعيد بعض الحقائق الخالدة من تراث الليبرالية والماركسية خالية من كل بريق سييء، من قبيل ماتقدمه

الليبرالية من رؤى أخلاقية تضيء على السياسة في مجتمعنا رقة ووداعة، وهى مايدعوها نيبور جوهر الليبرالية، وهى أبعد جذوراً في تاريخها من كل ماتحفل به ثقافة البورجوازية، تقوم على روح التسامح والصدق وبدونها تغدو الحياة كثيبة مجردة من إنسانيتها، والحرية والتحرر هما الآخران هدفان من أهداف السياسة والأخلاق، لم يكف نيبور عن نسبتها إلى جوهر الليبرالية في فكره السياسى، وإن لم يكن ذلك بما تدين به الطبقة الوسطى في تطبيقها أو تفسيرها.

وعلى نفس المستوى، كانت للفلسفة الماركسية معالمها في فكره، وإن كان قد نبذها نبذاً عنيفاً كاملاً أكثر مما نبذ الليبرالية فقد بقيت بعض ملامحها تسود منهاجه، في تلك العناصر الثلاثة التى يراها صالحة إذا ما فسرت تفسيراً سليماً في تأكيدها لأبعاد الحياة الاجتماعية والمصير الجماعى للوجود الإنسانى، وقد فسرنا نيبور بمسئولية تحقيق العدالة لا للفرد وحده، ولكن على المستويين القومى والدولى أيضاً، ولكنه يضيف أن هذه الكيانات العضوية للحياة، لا تخضع للجماعية أو المثالية في إلزامها بأوضاع آلية أو مصطنعة، وفي جديتها في تناول الأبنية السياسية والاقتصادية للجماعات الإنسانية؛ إذ أن الماركسية لا تؤمن ولا تسلم بأن هذه الأبنية لا تستحق الاهتمام طالما كان القائمون عليها من الأخيار، ثم إن الماركسية في تأييدها للصراع الطبقي تؤمن باتساق المصالح ومسايرها اليسير، على النقيض من الليبرالية التى تنبذ الصراع الطبقي وتؤمن باتساق البواعث ويسرها دون المصالح، ويرفض نيبور فكرة الصراع

الطبقى ما لم تشمل الصراع السياسى فى سعيه الدائب لإعادة التوازن بين ضحايا الظلم والمنتفعين منه.

وخرج نيبور من الماركسية بصورة أوفى من الرومانسيين المتأخرين أمثال «هنرى برجسون» كانت وقاء له من أبشع أخطاء الماركسية، ومن التشاؤم الزائد الذى لجّ فيه بعض قادة الفكر خلال الثلاثينيات، فالجماعة والدولة القومية، فى رؤياه، لكل منها كيانه العضوى المتطور مع الزمن، ولا يقوم أى منها بصورة مطلقة على قاعدة علمية أو اقتصادية بقدر ما يقومان على الفطرة الاجتماعية للإنسان، فمن اليسير أن نعرض للمجتمعات عن هدى العقل، إلا أن للعقل حدوده، ولا تقلّ قوى الحياة ذاتها ولا حيوية الإنسان أهمية عن الحتمية الاقتصادية، وقد توقع فى سنوات الكساد انهيار المجتمعات الليبرالية، وأخذ عن بعض المفكرين أمثال «أزقالد شبنجلر» خلال الثلاثينيات، ولفترة قصيرة فكرة الدمار والكارثة فى التاريخ، كما تبدو فى كتابه «رجل أخلاقى ومجتمع لا أخلاقى»^(١) (١٩٣٢) وقد رأى أخيراً أنه كان من الأحرى أن يكون عنوانه: «رجل لا أخلاقى فى مجتمع أخلاقى» ثم كان أكثر جلاءً فى تعبيره عنها فى كتابه: «تأملات فى ختام حقبة»^(٢) (١٩٣٤). وعاد يكررها فى كتابه «أبناء النور وأبناء الظلام»^(٣) (١٩٤٤) وفى كتابه «الذات ودراميات التاريخ» (١٩٥٥)، وإن كانت تجربته السياسية وتحويره

Moral Man and Immoral Society

(١)

Reflections on the End of an Era.

(٢)

Children of Light and Children of Darkness

(٣)

لفلسفة «أوجستين» حين لجأ إليها، قد انقذتاه من الوقوع في حمأة القنوط، فالإنسان إلى حدٍّ ما مختار فيما يراه في القريب وفي البعيد لحياته، وكذلك البشرية بدورها، وقد استعان نيبور بكتابات «كيركيجورد» وفلاسفة الوجودية المحدثين في تجديد صياغة فكر أوجستين وتطبيقه على عالم السياسة، وقد مزج نيبور، في تطور فلسفته السياسية، بين العديد من الأصول السياسية والفلسفية، فأصبح من العسير تبين المنابع الأصلية لفكره. فلم يبرز منها غير فكره الفلسفي الذي تفرّد به وثم عن موقفه. وإن بقي ولعه بمصير الإنسان مستمراً، كما بقي إيمانه بأن مصير الإنسان يقوم على رؤية مسيحية كما يقوم على نظرة عضوية للمجتمع لا يهدأ ولا يخمد له أوار.

فلما كانت الحرب العالمية الثانية كان نيبور قد استوى على القمة من نضجه السياسي وبقينه الثابت، ففي محاضرات جيفورد التي ألقاها بجامعة أدنبرة في ربيع ١٩٣٩ تبرز محاولته المنهجية الدقيقة في وضع نظرية عن الطبيعة البشرية والسياسة، وقد استهلها بقوله: «كان للإنسان على الدوام مشكلته الخائقة فكيف يتسنى له أن يفكر في نفسه؟» ثم انساق وراء الفكر الجدلي الذي يميز كتاباته عن أبعاد الفلسفة الأخلاقية للسياسة، قائلاً إن تقرير أي شيء عن الإنسان لا بدّ وأن يتضمن صراعاته ونقائصه، فإذا عنّ لراء أن يبرز تفرّد الإنسان وسماته العقلية، فإنه يفصح عما في الإنسان من جشع وولّه بالتسلط، وشراسة كامنة في طبيعته، فإذا قال كاتب من الكتاب بأن الناس

أينما كانوا هم أبناء الطبيعة، ولا يملكون القدرة على تجاوزها أو الارتفاع فوق الأحداث، فإنه ينكر الإنسان هذا المخلوق الذي يحلم بالألوهية ويأن يجعل من نفسه إلهاً، والإنسان بعاطفته الجياشة التي لا نعرف لها حدوداً. فإذا عنّ لدارس التاريخ أن يعلن أن الإنسان خير بالضرورة وأن يعزو كل شر إلى أسباب تاريخية واجتماعية ثابتة، فإنه يستجدي فحسب السؤال عما إذا كانت علّة الشرور قابضة في فطرة الإنسان، فإذا ما انتهى إلى أن الإنسان مجرد من كل فضيلة فإن المحمول الذي يصل به إلى مثل هذا الحكم يدحض فروضه، وإن كافة الصراعات المحيرة في المعرفة الإنسانية تنم عن العثرات التي تقف دون ممارسة الإنسان للعدالة من ناحية مع تفردّه وامتزاجه في نفس الوقت بالطبيعة. ويندّد نيبور تنديداً بالغاً في نقده لنظرة الإنسان المعاصر المدمرة في اهتمامه البالغ بكبريائه أو فاقته وفشله في أن يدرك أن الخير والشر يتزاوجان في طبيعة الإنسان.

ويبدو هذا التناقض البالغ في حيرة الإنسان المدمرة بين حريته وقدره وكنهه وماهيته، وبين ما هو إنساني وما هو إلهي، فإن الإبهام والتناقض اللذين يشوبان موقفه في اللقاء ما بين حريته وقدره يضافى عليه حالة من القلق يراها ضرورية لمعرفة سلوكه السياسى، فالإنسان مهموم بتسلط الآخرين ويحس إحساساً خفياً بالفزع من قصوره ومن تعرضه للهلاك. ولقصوره لا يستطيع أن يحكم حكماً كاملاً على قدراته فيلتزم جانب الأمان بادعاء أنه قد تغلب على قصوره وحدود طاقته الإنسانية، ويمدّ سلطانه ونفوذه ليتقى طغيان الآخرين.

والتطلع إلى السلطة أبرز تعبير سياسى عن الجزع الإنسانى، فالإنسان صنو الحيوان فى شهواته وأشواقه وحرصه على البقاء، ولكنه وقد تميز عنه بإنسانيته وقدسيته فإنه يستمدّ سلطانه من طبيعته المادية ومن روحه، وتقتضيه حاجاته أن ينقيها ويسمو بها إلى مستوى الروح لتتطلق بلا عائق ودون حدود، ومن أجل أن يتغلب على قلقه الاجتماعى فإنه ينشد القوة والتسلط على أنداده فيخضعهم لسلطانه وإلا خضع لهم هو نفسه، فالصراع من أجل السلطة السياسية مثال للتنافس على كافة مستويات الحياة، تراه فى العلاقة بين الأزواج والزوجات، وبين الآباء والأبناء، وبين الزوجة والعشيقة، وبين الجماعات العنصرية، وبين الأطفال وأزواج آبائهم أو أمهاتهم وبين الدولة والشعب، وبين السلطتين التنفيذية والتشريعية فى الحكم.

أما فى ميدان السلوك الجماعى، فإن شدة الانفعال الذاق من القوة، بحيث يغدو السبيل الوحيد للوفاق هو محاولة تحييد القوى المتصارعة عن طريق توازن القوى باتخاذ موقف مشترك ضدّ أى تطرف فى ناحية من نواحيها، واتخاذ كل الوسائل الفنية لتذليل طاقتها للغايات الاجتماعية، فالوحدة الاجتماعية تقوم على مزيج من فضائل الإنسان وأنانيته وهما العنصران المتوائمان لقوة المجموع فى أى شعب، فحيث يكون الولاء للتضحية الذاتية، يكون عدوان الجماهير العابث، وينجم عن هذا أن السياسة سواء أكانت لجماعات سياسية منظمة أم لتنظيمات كبرى تصبح أكثر حاجة وقسوة لما تتصف به من ولاء خال من الأثرة،

أو أى التزام لأعضاء الجماعات. ويصل نيبور فى النهاية إلى أن المجتمع الدولى فى داخله أنانى وإن كان الناس فى شعوبه رجالاً أخياراً تحذوهم النوايا الطيبة، فلن يكونوا أكثر حباً لشعب آخر من شعبهم، ويقول فى ذلك: «المجتمع... ما هو إلا جماع أنانية أفراده فتراه يحول الغيرية لدى أفرادها إلى أنانية جماعية، ولأنانية الجماعة قوتها المضاعفة، وما من جماعة تمضى، لهذا السبب، خالية تماماً من الأنانية، أو من المصالح المشتركة؛ ولهذا فإن السياسة أقرب إلى أن تكون نزلاً من أجل السلطة.

والشعوب فى عالم السياسة تسلك سبيلها إلى السلطة والنفوذ، والمكانة الرفيعة، يورى أوراها عمق الولاء الجماعى، محترجاً بما يسود عالم اليوم من الغربة والإحباط، فالشعوب كافة تنشد أمنها، وتتبع مصالحها القومية، ونيبور أدنى إلى التسليم بأن الشعوب جميعاً ليست على شىء من الأريحية وأن مصالحها الذاتية المعقولة هى الحد الأدنى الذى تقف عنده أخلاقياتها، وإن كانت مصالحها الذاتية وحماية طابعها القومى قد تحملها أحياناً على انتهاك القيم الأخلاقية السائدة، ففى أوائل الخمسينيات، كان قرار إنتاج القنبلة الهيدروجينية إساءة إلى عواطف الكثيرين من ذوى الإحساس الرقيق، ويردّ نيبور بأن أى شعب لا يستطيع أن يغضى عن حماية أمنه، مهما كان الطريق إليه مليئاً بالندر والمغارم، وإن راعه وأفزع ما ينجم عن التجارب النووية من أخطار.

وكان نيبور قد انتهى إلى يقين بأن الناس والدول حين ينشدون

مصالحهم الخاصة، يدعون أنهم يخضعون في هذا المنهج من القيم، فيتساءل بدايةً : أليس التشدد في المصالح القومية والثبات عليها نوعاً من قهر الذات، أهنالك شعب، كما يفصح بصورة أخرى، لا تعنيه مصلحة تماماً فيفسر تلك المصالح تفسيراً ضيقاً، ويضحى بأمنه في سبيل ما يؤمن به من مبادئ العدالة والتفاهم المشترك بين جماعة الأمم؟

وقد غالت أمريكا في سياستها الخارجية في تقدير أريجيتها وإحسانها، حتى امتلأت بالحنق على الشعوب التي تنفس عليها قوتها وثراءها، والمصالح القومية يحفّ بها على الدوام مغارم العبث الأخلاقي من ناحية، والإدعاء الأخلاقي والرياء والتبرير الأيدولوجي من ناحية أخرى، وقد ندّد تنديداً بالغاً في كتاباته الأولى بالعبث الأخلاقي، ثم أصبح في الآونة الأخيرة أكثر اهتماماً بالرياء والتبرير الأيدولوجي، وانتهى إلى أن العبث والإدعاء وجهان لمشكلة واحدة، فالتناقض الوجداني المستمر في مسئولية الشعوب، يبدو تارةً في التزام الشعوب بمصالحها فحسب، وتارةً أخرى في تزمّتها الأخلاقي مجرداً من أي نزعة ذاتية.

وكان لإدموند بيرك تأثيره البالغ على نيبور حين أخذ عنه هذا التصور الذي غدا محوراً لأفكار هذا اللاهوتي العظيم في المرحلة الأخيرة من حياته، فقد ذهب أصحاب النظريات، وبالذات علماء المجتمع إلى أن عالم التاريخ مثال لعالم الطبيعة، وأن اختيار المنهج العلمي السليم والنظرية الفنية الثابتة يضمن للناس التحكم في مصيرهم التاريخي، ومن ثم كانت الدراسات العلمية لا تتفق مع ممارسة الحكم حين يسود

شعار: «يكفى ليوم يند منه الشر». . . وكان برك يرى أن الصلة بين النظرية والتطبيق في السياسة تقوم على الفطنة والحصافة، فالفطنة وليست العدالة أولى فضائل السياسة، فهي المرشد وهي الدليل الهادي، فالميتافيزيقا لا تبقى دون تعريف واضح، أما الفطنة فهي دقيقة في تعريفاتها، لأنها تعرف كيف تبقى مع أى واقع متغير وتعايشه، والسياسة ليست علماً ولكنها فن.

وعندما أخذ نيبور يقترب اقتراباً مطرداً من النظرة البرجماتية لعالم السياسة، أدرك حدود المعقول إدراكه للتفكير المعيارى القديم. فعندما يغم عالم السياسة بالضلال ويتفاقم الصراع، فلا سبيل للسلام إلا بنزع السلاح، والنسق الوحيد إليه، توازن القوى الموقوت، وإن كان من النادر أن تتحقق المعايير الأخلاقية المباشرة في الواقع العملى للسياسة، فلا معدى لرجال الدولة من أن يصلوا إلى تسوية غير مضمونة، ويقدر ما تدعو الضرورة إلى التخفيف من غلواء الدعاوى الأخلاقية لكل الانداد في صراع القوى بقدر ما تدعو الحاجة إلى الصراحة الأخلاقية فيما يتصل بالمصلحة القومية. وقد كان نيبور في العشرينيات من دعاة الإصلاح الاجتماعى وعلى قدر كبير من التفاؤل، وفي ثلاثينياته الماركسية، كان متطرفاً، ولكنه في سنواته الأخيرة أصبح مسيحياً واقعياً، وعندما حذره النقاد بأنه يوشك أن يقع في محاذير الابتعاد عن البرجماتية، وأن البرجماتية متهمة بقصورها العاطفى وسطحيها الأخلاقية، أجاب بأن برجماتيته محدودة وأنها وسيلة فحسب، وإن كان وهو يعترف بذلك، كان

قد غامر بالوقوف على «حافة العبث» ولم يجد الخلاص، كما كان رجاؤه، إلا في قبوله نقد الصديق والعدو ورجاء الرب، وقدرته التي استمدتها من الدين ومن القانون الاسمي في النظام الدستوري الأمريكي، لينأى بنفسه عن الأحداث «حتى نمسك بخوافيها» فقام بشرح القديس بولس وقدمه هدى للناس: «فما من عمل يستحق أن تقوم به إلا مضينا ولما نكمله في حياتنا ولا خلاص لنا إلا في الأمل... ولا نقوم بعمل مهما كان حسناً، وإن كنا قادرين عليه وحدنا، ولا منجاة لنا إلا بالحب، وما من صنعة نراها حسنة كما يراها الصاحب أو الشافى، ولا محيص لنجاتنا إلا بأسمى ما ينتهى إليه الحب من العفو والمغفرة»

وليس من العسير أن نتبين تأثير نيبور على غيره من المفكرين، وقد دعاه «جورج ف. كينان» أبانا جميعاً، كنايةً عن التقاليد الفكرية التي أرساها وسار على هديها كينان وأضرابه، فإذا كان نيبور هو الأب، فقد أخذ الأبناء يفسرونه كل بطريقة، فرجال الدين ممن اعتزوا بأحكامه فيما دعاه «الواقع المسيحى» يؤثرون أن يتناسوا كلماته: «الدين منة للمهتدين وسوأة للضالين».. وقد فقدت الكنيسة تأثيرها عندما اهتدى أربابها طريق العقل «أما العلمانيون، فلعل تشككه، هو الذى لفت أنظارهم إليه، فتكونت منهم جماعة في «هارفارد» دعت نفسها «الملحدون مع نيبور» ولا مرأى فيما انتاب هؤلاء المتشككين من حيرة، عندما تشيع لكلمات «جون بايى»: «قد لا يهم مدى ما أذهب إليه، إلا أننى لا أستطيع أن أغرق في الإلحاد، فهل يتسنى لى أن أدرك ذاتى

يوما، ولا أدرك ما الله، كما لو كنت أدرك ذاتي، ولا أدرك غيري من المخلوقات البشرية»

وهذا المزج الفريد بين الرؤيا النقدية والدينية قد وضع نيبور في طليعة المفكرين، النقيدين ذوي النظرة الفاحصة، وعلمًا لا ينازع في حلبة الفكر الأمريكي، ففي لقاء الجمعية العلوم السياسية الأمريكية عام ١٩٧٤، لخص «أرثر شليزنجير» الابن، فكر نيبور بقوله: «ما من إنسان يستطيع أن يحتل مكانته، ولا أن يقوم بما قام به من الثلاثينيات حتى الستينيات»

ولم يفقد نيبور تأثيره الواضح على أي جماعة من الجماعات، فقد تحدث إلى جماعة ممن دعاهم «فردريش شليرماخر» المفكرين الذين يمتنون المسيحية، كما كان من هذا اللفيف العصري الذي يخوض متحدثاً ومحاضراً وواعظاً في الكليات والجامعات والمحافل العامة ودور الوعظ، تحمل كلماته اليقين لأنه لم يكن يخفي حيرته وشكوكه، ففي صباح يوم من أيام الأحد خلال الأربعينيات، وهو يعظ في أبراشية صغيرة بالقرب من مسكنه الصيفي في «هيلت» بولاية مساشوسيت، قاطعه صديقه وجاره «فيكاس فرانكفورت» عضو المحكمة الدستورية العليا ليقول: «إنني أحب ما تقول، يا ربي، ولكنني أتكلم كمؤمن لا يؤمن، وأجابه نيبور: إنني لسعيد بما قلت لأنني أتحدث حديث من لا يؤمن ليؤمن»

وكثر أتباع نيبور على مرّ السنين، ومنهم أولئك الذين أيدوه

ورشحوه لأستاذية فلسفة الأخلاق الاجتماعية بكلية اللاهوت الأمريكية العليا، من الشخصيات الأدبية أمثال : «و. ه. أودين» و«آلان باتون» و«ت. س. إليوت» ومن القادة السياسيين أمثال : «أدولف أ. بيرل» و«شستر باولز» و«هينريك براننج» و«رالف ج. بانس» و«هيوبرت ه. همفري» الابن، و«هربرت ليمان» و«إليانور روزفلت» و«رادا كريشنان» و«أدلاي ستيفنسون» و«نورمان توماس» ومن المربين أمثال : «تشارلز و. كول» و«س. ه. دود» و«لويس فرنكلشتين» و«وليم ي. هوكنج» و«كلارك كير» و«جريسون ل. كيرك» و«روبرت م. هتشتر» و«هنري ريستون» ومن رجال الأعمال أمثال : «فرانك التشكول» و«بول ج. هوفمان» و«هنري ر. لوس» و«ج. إروين مللر» ومن قادة العمال أمثال : «دافيد روينسكى» و«جوزيف ل. روه» و«والتر رويتر» ومن رجال اللاهوت أمثال : «أميل برانر» و«توماس دوجلاس» و«المجوس دن» و«شيروود إدى» و«جورج ب. فورد» و«هارى إيمرسون فوسدك» و«ويل هيريج» و«جاك مارينين» و«بول تيلتش» ومن محلى السياسة الخارجية أمثال : باربارا وارد جاكسون» و«جورج ف. كينان» و«والتر ليبمان» و«أرثر شليزنجر» الابن، و«أرنولد ج. تويني» و«أرنولد ولفرز».

ومن العسير أن تجد مفكراً أمريكياً على تعددهم وما بينهم من فروق لم يكن من أتباعه أو ممن يحملون له أطيب المشاعر، أو يعترفون له بالقدرة على اختيار الشباب من كافة المشارب للكتابة في صحفه التى

يصدرها، وبالذات لصحيفة «المسيحية والأزمة»^(١) وما من كاتب من الكتاب الذين جاءوا بعده من الليبراليين والمحافظين والسود والبيض على شتى عناصرهم، والمتطرفين، ومفسري الحرب الباردة على اختلافهم إلا وعدّه من رجاّهم. وما كان لكاتب ألف سبعة عشر كتاباً وكتب أكثر من خمسمائة مقال صحفى إلا أن يقدم حفنة لكل طاحن.

وفي كل ما كتب نيبور، كان تركيزه على بحوث أساسية قليلة: كالطبيعة الإنسانية والخطيئة الأولى، وتحري الحقيقة بين شتى المزالق المتنافرة، والتناقض والإبهام في الشرائع، والاحتكام إلى العقل دون تسخيره لدواعي السياسة أو السلطة أو الفطنة، أو لذريعة أخلاقية، أو لاتجاهات الجماعية أو التوفيق بين الالتهامات السياسية، وكان يستبجح أن ينبذ المنطق إذا ما انتهى إلى رأى قاطع، ويعرض للعلاقات المعقدة التي تتنافى مع المواقف الإنسانية، كما يعرض لسخرية التاريخ والأمل البعيد فيه: «فسواء حيننا أو متنا فمردّنا إلى الله تعالى».

وفي الأزمات السياسية لم يعزف إطلاقاً عن ضرورة الاختيار بين الأخلاق والسياسة، فيكتب في ٢٥ أغسطس ١٩٤٣ في كريستيان نيوزلتر عن الحرب العالمية الثانية، «ليس التذرع بالسياسة عاراً طالما كان مستقبل السلام العالمى هو الثمن» فإذا تردد بعض قادة الفكر السياسى أمثال «ي. ه. كار» و«ا. ج. ب. تايلور» في الاختيار بين الديمقراطية الأمريكية، وحزب هتلر الوطنى الاشتراكى، بما له من

حيوية شاملة، فإنه يعلن أنه إذا غابت الحكمة الأخلاقية في مثل هذا الأمر، فما من شيء يبدو مستحيلاً فوق هذه الأرض.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، يقول: إن تحدى الشيوعية للحضارة الغربية قد لا يتماثل مع التهديد النازي ولكنه لا يقل عنه خطراً. ونخال له في كتابه «بناء الشعوب والإمبراطوريات»^(١) (١٩٥٩) إن التهديد الشيوعي يتهاوى. ومن المحتمل أن يتراخى التوتر عندما يحل الجيل الثاني والثالث من الثوريين مع جماعة التكنوقراط محل الثوريين القدامى المتعصبين، ووقف يؤيد السياسة الأمريكية نحو الاتحاد السوفيتي، كما أيد مشروع مارشال وحلف شمال الأطلسي (ناتو)، وإن أدان التدخل الأمريكي في فيتنام.

ولعله كان يحسّ بشيء من الارتباك أمام هؤلاء الذين يجدونه دائماً على حق في أحكامه السياسية، وإن كان له أن يفخر بما كتبه عنه صاحب سيرته، فوصفه بأنه كان عنواناً على شجاعة التغير، وسبق تراثه سمّة على تمسكه بأصول النظرية السياسية، وليس في قدرته كفيلسوف من فلاسفة السياسة الملهمين، على جلال ما ترك من مؤلفات تضم خواطره وتعليقاته السياسية.



جون كورتني موري

(١٩٠٤-١٩٦٧)

كان الحبر الجليل جون كورتني موري من أعظم أصحاب النظريات الأمريكيين ممن كتبوا عن قضايا الأخلاق في العلاقات الدولية في عرف الكاثوليكية الرومانية، وكان موري من رجال اللاهوت الذين يعتزون باستقلالهم الفكري، وقد أعلن مسئولية كل مفكر مسيحي في أن يجهر برأيه صريحاً قوياً في شئون السياسة الدولية، ونادى بأن تخضع السلطة لحكم الأخلاق في كل ما تمارسه، وكتب عن طبيعة السلطة يقول: «إن مبادئ الأخلاق وحدها سياج السلطة، ومن الأصول التي تقوم عليها الأخلاق أن تحكم ممارسة السلطة، وأن تنهى عنها وتحد منها، بل وأكثر من هذا أن تفصح عامة عن الغاية منها أو ضرورتها، وما قانون الأخلاق إلا ميراث العقل من أعرافنا كما يعرفه مفكرو القانون الطبيعي في الكاثوليكية»، وقد عاد يؤيد فكرة الحرب العادلة وفكرة التعادلة وفضيلة الفطنة السياسية، وأتاح له هذا التصور الأخلاقي أن يزن الشئون الجارية ويقدرها حق قدرها، ويزوده بمستوى معين للحكم على القواعد الأخلاقية للآخرين. فحذر، مثلاً من سذاجة من يقول

بأن التماس السلطة مفخرة ويحكم على ذلك بسوئها، وأن الامتناع عنها هروب من المسئولية وهذا هو الأسوأ.

ولد جون كورتني موري بمدينة نيويورك في الثاني عشر من سبتمبر ١٩٠٤ لأم إيرلندية وأب من أصل اسكتلندي، توفي وموري في الثانية عشرة من عمره، وكان يشتغل بالمحاماة، والأبوان كاثوليكيان. وإن كانت الأم أكثر تزمناً في المحافظة على الشعائر الدينية في الأسرة. وكان موري يميل في بداية حياته إلى دراسة الطب، إلا أن تعليمه الثانوي بمدرسة القديس فرانسيس اكسافيير اليسوعية، حمله على الاندماج في المجتمع اليسوعي وهو في السادسة عشرة من عمره، فالتحق بكلية ويستون في مساشو سيت القريبة من كلية بوسطون حيث نال درجة البكالوريوس عام ١٩٢٦ ودرجة الماجستير عام ١٩٢٧، وانقطع عن الدراسة ثلاث سنوات، كلف خلالها نزولاً على تقاليد اليسوعيين بتدريس اللاتينية والأدب الإنجليزي بجامعة اتينيو في مانيلا بالفلبين وهي من أبرز المؤسسات الكاثوليكية للتعليم العالي هناك، عاد بعدها إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٠ ليدرس اللاهوت لمدة أربع سنوات بكلية ودستوك في مرييلاند وهي إحدى الكليات اليسوعية لتأهيل القسوس، تلاها أربع سنوات أخرى للدراسات اللاهوتية العليا بجامعة جريجوري البابوية في روما حيث نال درجة الدكتوراه، ليعود بعدها إستاذاً للاهوت بكلية ودستوك عام ١٩٣٧ حيث عمل طوال حياته إلى جانب محاضراته في معاهد أخرى، وفي جامعة ييل حيث أختير أستاذاً زائراً لفلسفة العصر

الوسيط وثقافته، وفي ودستوك عكف على دراسة عقيدة التثليث والخلاص وقضية الإلحاد في عالم العصر، ونشر كتابه «الله» في الغابر والحاضر..^(١) (١٩٦٤)، وعمل مع آخرين من أمثال «جوستاف فيجل» ليجعل من ودستوك واحدة من أقوى كليات اللاهوت في الولايات المتحدة.

وفي بواكير الثلاثينيات، أخذ ينشر، وما زال طالباً. فكره في صحيفة اليسوعيين اللاهوتية وإن لم يلمع اسمه كمفكر ديني حتى الأربعينيات حين بدأ ينشر مقالاته الأثيرة عن قضايا الكنيسة الكاثوليكية في عصر الديمقراطية والحكومات النيابية، ثم تولى تحرير مجلة «الدراسات اللاهوتية» التي تصدرها كلية ودستوك، وأخذ يدعو فيها وفوق كل منبر ديني، دون ملل إلى التعاون بين الكاثوليك والبروتستانت في المجتمع الأمريكي، ولم يكتف بأن يبرز حرص الفاتيكان وقبوله لنظام الأغلبية السائد في الولايات المتحدة، بل أخذ يبرز أن الفاتيكان يعترف به كنظام جديد صالح في ذاته، فلم يكن للأقلية الكاثوليكية مع الأغلبية غير الكاثوليكية ما لها من تلك المكانة الطيبة في أى وقت مضى خلال القرون الأربعة الأخيرة، وكان للحوار والجدل الذى أثاره من الحيوية والقدرة ما حمل رئاسة الكنيسة اليسوعية على منعه من الكتابة ما لم يعرض ما يكتبه عن شئون الكنيسة عليها. فقد أثار مقاله «الكنيسة الكاثوليكية والشئون العالمية» (١٩٥٤) حنق الكنيسة، حتى قيل على

لسان «والديمار جوريان رئيس التحرير» إنها فكرت في سحب ترخيص الصحيفة بسبب مقالات موري.

إلا أن أفكار موري قد أخذت تلقى نوعاً من التبرير عندما أخذ البابا يوحنا الثالث عشر خطوته للتغيير، وقد حاول الذين تصدّوا لتحرره الديني ووقفوا منه موقف العداء، أن يحولوا بينه وبين المشاركة في الاجتماع الأول لمجلس الفاتيكان الثاني، إلا أن البابا بولس السادس دعاه للاشتراك كخبير في الاجتماع الثاني. كما كانت أفكاره هي الأساس الذي صدر عليه الإعلان بحق كل فرد في التعبير عن فكره، وكان لموري القدر المثلّي في صياغته وبدأه بقوله: «إن الإحساس بالكبرياء الإنساني قد أخذ يتأصل ويزداد عمقاً في ضمير الإنسان المعاصر، وما زالت الرغبة عارمة في أن يصدر الناس في أعمالهم عن كل ما يدينون به من أفكار وبكل ما يستمتعون به من حرية واعية دون قهر أو إرغام في حدود المسؤولية والواجب، وقد صيغت هذه الرغبة على تلك الصورة لتضع الحدود الدستورية لسلطة الحكومة حتى لا يكون منها قهر لحرية فرد أو جمعية» وقد غدت هذه التجربة الأمريكية في تحديد علاقة الكنيسة بالدولة مثلاً يجب أن تحتذيه الكنيسة العالمية، «ومما أضفى على موري تلك المكانة البارزة، كما قال عنه رينولد نيبور في مرة من المرات، إنه يفكر بمنطق اللاهوتي الكاثوليكي من خلال الطابع الأمريكي، وإنه لسعيد بطابعه الأمريكي» وكانت الصلة بين نيبور وموري بكل ما فيها من تعاون مشترك أو تباين، وما كان لهما من حوار

وما دار بينهما من جدل زاداً ثمراً في تاريخ الفكر الدينى والسياسى الأمريكى، وكان كلاهما قوى الفكر صائب النظرة، ولم يحاول أى منهما أن يروض أفكاره ومعتقداته لفكر الآخر.

ويقدر ما كان مورى يؤمن إيماناً صادقاً بجدوى الماثورات الأمريكية للاثورات الكنيسة الكاثوليكية بقدر ما كان يؤمن بجدوى الماثورات الكاثوليكية للتجربة الأمريكية، فى كتابه «نؤمن بتلك الحقائق»^(١) (١٩٦٠) يقول: كثيراً ما يجد هذا السؤال: هل تتوافق الكاثوليكية مع الديمقراطية الأمريكية؟ وهو سؤال سقيم بقدر ما هو سليط، فإنه على صورته تلك يقلب معيار القيم رأساً على عقب، والأجدر أن يقال: هل تتوافق الديمقراطية الأمريكية مع الكاثوليكية؟ وأخذ مورى يزود عن مكانة الدين وأن له الأولوية على كافة المستويات من الصحف العلمانية والدينية بدايةً من حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية حتى الأفكار الكاثوليكية، وقد عرف بهدوئه وأحاديثه المنطقية، ووضوحه الفكرى، ورقته التى لاتخذله فى كل مايقدمه، وقد دعاه «روبرت مانيارد هتشنز» خلال الستينيات، لعضوية مركز دراسات المؤسسات الديمقراطية مع «رينولدنيبور» و«هنرى بت فان دوسن» و«اليانور ستيفنسون» و«ا.ا. بيرك» و«أريك جولدمان» وآخرين، وفى عام ١٩٦٦ أصبح مديراً للمعهد اليسوعى الذى أنشأه «جون لا فارج» ليضم قادة المجتمع من كافة الاتجاهات، ليكون لهم حوار حرّ

حول الحرية الدينية، والتفرقة العنصرية، والرقابة على المطبوعات، والإجهاض، والأخلاق السياسية والتجارية، والدين، والفن والحرب، والعصيان المدني، والانفجار السكاني، ولم يكن القصد من هذا الحوار الوصول إلى اتفاق، كما يرى موري، بقدر ما كان التوصل إلى رؤية واضحة يؤدي إليها اختلاف الرأي الحرّ السديد، وكان موري من المؤمنين بتوافق القانون الطبيعي، وفي هذا يكتب دوجلاس أوشينكلوس في مجلة تايم بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٦٠، فيقول: «إذا ما كان هناك إنسان يستطيع أن يقود الكاثوليك وغير الكاثوليك في الولايات المتحدة، نحو الخلاف الذي يسبق التوافق، فهو جون كورتني موري». فهذا الرجل موري بقامته الفارهة التي تصل إلى ست أقدام وأربع بوصات، وصوته الرنان، وهو يتحدث عن القانون الطبيعي أو يسأل النادل كاساً من المارتيني، كان شخصية جذابة في حياة أمريكا الفكرية.

أما موري المواطن الأمريكي في حفاظه على الحضارة الغربية فقد كان ينشد من التعاليم الكاثوليكية عن الحرب العادلة أن تواجه قضايا الموت والحياة في العصر النووي، ويصر موري، قبلما ينبذ هذه التعاليم كما لو كانت متهاففة، على أن نظريات الحرب العادلة هي المحور المميز في الإطار السياسي «فالمقومات الثلاثة الأساسية للحرب العادلة - كما يقول - هي: أن الحرب إثم يستحق اللعنة، وأن هذا الإثم الناجم عنها مما يجب الحد منه، وأن يغدو مسارها إنسانياً ما أمكن». وأخذ يحمل على أصحاب البدائل المتهاففة من النظريين» الذين يغرقون في أحلام السلام الوردية أو يواجهون السواقع المرير. «فبالضلالة الكبرى أن

تفترض أن الحرب والسلام يلتقيان ويتواصلان في عالم الوجود أو دنيا الحوار. . إذ أننا نعيش عالماً وسطاً بين الحرب والسلام» فالحوار العام كما يرى موري قد يتناول الحرب المحدودة، أو حتى حرباً نووية ضيقة. (مما دعا ناقديه على تسميته الداعية الأخلاقية للحرب النووية) وما زالت الأسس التي تقوم عليها الحرب العادلة حقيقة سارية في العصر النووي، فما من حرب عدوانية إلا ويدينها قانون الأخلاق، وليس العدوان هو السؤال القائم ولكنه التحيف والظلم، فسرعان ما يزعم الفرد أنه يملك بيديه الحجة العادلة (ولو أن موري عاش ليشهد حملة العالم الثالث على النظام الدولي الغاشم لكان من المحتمل أن يثير نوعاً من الحوار مع فلاسفة الأخلاق، كهذا الفيلسوف الأندونيسي سيد جاتموكو). ومن ناحية أخرى فإن الحرب الدفاعية حرب مقبولة من حيث الواقع ومن حيث المبدأ، فالدليل الأخلاقي عامل نسبي في الحكم على تحيف الحرب أو عدالتها، والاعتبار الأول هو للآلام الناجمة عن نظام متحيف، في مقابل الدمار الذي يمكن أن ينجم عن حرب قامت للقضاء على التحيف. والقياس في هذا حسبة أخلاقية تقوم على أن الموت والدمار ليسا في ذاتهما أسوأ ما ينجم عن الحرب من شرور. ولهذا فإن الالتجاء إلى القوة يجب أن يقف عند حدود الضرورة، وما يكفي لتأييد القانون والسياسة، ولهذا فإن الحرب الشاملة والتسليم دون قيد أو شرط مما يؤدي بقواعد النسبية ويطيح بالحد من القوة. ولو أن موري عاش ليشهد امتداد الحرب في فيتنام لطبق هذا الحكم على ما يجري في تلك الحرب.

ومجد موري في القانون الطبيعي زاداً لنظريات أخلاقية أخرى،
فحيث يرفض التهوين من أحلام السلام أو الواقع المرير، نراه ينقد
الإبهام الأخلاقي، إذ إن لهذا الإبهام الأخلاقي جذوره الضاربة في النزعة
البروتستانتية وفرديتها وذاتيتها وبكل ماتصر عليه، وليس على مايقوم به
الفرد، ولكن عن العلة فيما يقوم. (وكان يقصد نيور بشيء من هذا
النقد) فالأخلاقيات الجديدة التي حلت محل الأخلاقيات القديمة، ترى
في تلك الأخلاقيات القديمة سداجةً بادية، لجت بها في القرارات
الأخلاقية المبهمة إذ يصل الإبهام بأصحابه إلى التذبذب بين الخطأ
والصواب ويغدو الحكم مبهماً يؤدي إلى الخطيئة. وإن رأى موري أن
القضايا وإن كانت معقدة ومتشابكة إلا أن التمييز بين الخطأ والصواب
أمر يسير. وقد أدى هذا الإبهام الأخلاقي إلى مزيد من نقد العلاقات
السياسية القائمة، ولكنها لم تترك غير أثر قليل في البناء الفكري لإقامة
أبنية جديدة وسياسات أكثر سداداً، وخشية القول بأن العقل يبرر
الإجراءات السياسية المتحيّفة، فإنه يقول: «إن فلسفة الأخلاق القديمة
حين تؤكد حكم العقل في الشؤون العامة فإنها لا تتوقع أن يكون
ما حققه الإنسان في اهتدائه بالعقل من نجاح على مدى تاريخه، أكثر من
حدوده، بل يقف به عند حدٍّ معين يختلف فيه التقدير، وليس لأمرىكا حتى
تعي ذاتها، كما يدعوها موري إلا أن تعود إلى هدى القانون الطبيعي».

وقد سئل موري عن شعوره حين حيل بينه وبين حضور الدورة
الأولى في الاجتماع الثاني لمجمع الفاتيكان، فأجاب: «الإنسان لا يعيش
طويلاً، فإذا كان ثمة شيء على هذا القدر من الضخامة، فإن الإنسان

ليحس بالحاجة إلى وجوده فيه» فلما كان العام التالى كان بين الحضور وشهد الاحتفال بتنصيب البابا يوحنا الثالث عشر، ورأى أفكاره تتوج إعلان المجمع للحرية الدينية، وشارك حفاوة الجماهير بالبابا بولس السادس.

وقد يعنف فى نقده، كما علمت حين تصدى لبحث أعدده للمجلس عن الدين والشئون الدولية وقد يتردى فى الخطأ. وهو ما لاحظته الكاتب الكاثوليكي «جون كوجلى»: فإن توقعاته السياسية قد تخطئ أحياناً، وإنه لا يستطيع أن يخفى فى الغالب جموده وتحيزه لرأيه، وإنه كثيراً ما تغيب عنه الفكرة التى يراها مفكر آخر. وإن كان كوجلى يرى أنه لم ينطق يوماً عن ميل أو عاطفة أوقسوة متعمدة. وكان له أسلوبه الأصيل المتميز وعبارته المترفعة وبنائه اللغوى المنمق إلى درجة الجمود وإن نم عن أناقة رقيقة، وما كان يعنيه شيء كما يعنى بالمسائل العقلية إلى الحد الذى يجنى على الحوار، وكان غرماؤه من المفكرين فى شك من أنه يخفى شيئاً وراء ثيابه الكهنوتية، وإن لم يحجب أبداً إيمانه الذى لا يحيد بالعقل.

وقد تحرى فى حملته ثلاثة دواع تعارض الحرب :

١ - النظرة النسبية للسلام المسيحى التى تقوم على أن الحرب قد أصبحت من الدمار بحيث غدت سخفاً أخلاقياً (وقد رأى أنها كذلك. ولكن ليست كل حرب)

٢ - أن العدو لا يدين بأى مبدأ وعلى محاربه ألا يدين هو الآخر بأى مبدأ ليضمن البقاء والاستمرار.

٣ - وأن الأمم المتحدة تستطيع أن تدين الحرب، فالحرب الذرية - كما يؤكد - ليست حرباً أخلاقية ولا يمكن أن تجد في ذاتها مبرراً أخلاقياً فهناك من السوء ما هو أكثر من الموت، ويجب أن يكون لها حسابها من الحكم الأخلاقي ومن القدرة الفعالة على كبح جماح التحيف فالحرب والسلام لا يتصلان ولا يلتقيان في عالم الوجود. فالناس يعيشون حياتهم وسطاً بين الحرب والسلام، وما السياسة إلا لقاء بين عالم القوة وعالم الأخلاق، وكان البابا بيوس السابع يأمل أن تقوم سلطة دولية تهيمن وحدها على القوات المسلحة وقد فشلت الأمم المتحدة في تحقيق هذا الهدف.

ويلح موري في العودة إلى الأخلاقيات الأولى القديمة التي تجزم بأن ما هو خير، خير لأنه من أمر الله، والأمر الأساسي هو طبيعة الأخلاقيات ذاتها، ويقرر القانون الطبيعي أن المجتمع والدولة مؤسستان أفرزهما العقل بكل ماتشدانه وتنتهيان إليه مما وقر من قبل في طبيعة الإنسان السياسية والاجتماعية، فمن الواضح أن الأخلاقيات التي تتوافق مع حياة المجتمع وأحداثه وحياة الدولة وأحداثها لا تتوافق في مبنائها مع أخلاقيات الحياة الشخصية فمن حيث الأخلاق السياسية، والمصالح الذاتية كحافز للعمل القومي يرى أن كليهما مشروع وضروري، إلا أن ما يهتدي به العقل لا يدعو إلى خطأ القول بأن كل التجاء للسلطة مدعاة للفخر، إذ إن العقل يدعو إلى التمييز بين الإرغام والعنف، فالإرغام هو الإجراء الذي تراه السلطة ضرورياً وكافياً لدعم المرامي الثابتة للقانون والسياسة (ولكن الدولة التي تقاوم نظاماً دولياً متحيفاً، فمن ذا الذي

يقول إن أى غرض هو الثابت ؟)، أما العنف فإنه يتجاوز ذلك، ويبقى الإرغام كأداة للسياسة الدولية هو الصورة الأخلاقية المعتدلة.

وقد أراد مورى أن يتصدى لمن يتهم القانون الطبيعى بالتجريد والغائية والجمود، والتحديد فقال إنه على العكس من ذلك ينشد للإنسان حياةً إنسانيةً رشيدةً وينشد للجماعة مدنيةً صحيحة، وغاية المسيحية أن تعلو بالطبيعة ولا تتخطاها، والقانون الطبيعى مرفأ الأمان للحقيقة السائدة بما يستند إليه من الفروض التى يقوم عليها الواقع المنطقى لفلسفة المعرفة، (فن السير على الإنسان أن يعرف) كما يستند إلى غائية الطبيعة (فالتاريخ يمضى نحو غاية أو غرض) وإلى لا هوية طبيعية (فالله يستوى على عرشه فوق الخلق) وعلى الإيمان بأن نظام الطبيعة ليس نظاماً حتمياً يمضى عشوائياً. ولكنه نظام رشيد، ولذلك فهو الحرية، وهو مصفاة للخبرة والإدراك السليم، وله إطاره المتغير ومسيرته قدماً إلى الأمام وهو الحفيظ على القيم الإنسانية المكتسبة، فى الوقت الذى يتمتع فيه بكل الحيوية التى تشبع الذاتية الكاملة للإنسان.

ويؤمن مورى بالطابع التعليمى للقانون، كما يؤمن بسمو القانون الذى يقوم على العقل دون الإرادة، وأن مصدر السلطة السياسية هو الجماعة التى يتكون منها الكيان العضوى للدولة. وأن سلطة الحاكم محدودة، وأن الحكومة تقوم على طبيعة تعاقدية للعلاقة بين الحاكم والمحكومين، ويحملة التشبث بتلك الأفكار الكلاسيكية على إقامة نوع من التعادل بين الاتجاهات المتضاربة للسياستين القومية والدولية، وهى

اتجاهات لا يرفضها ولكنه يتخطاها. فالسياسية كما يراها نشاط عقلي وأخلاقي للإنسان.

وقد توفي موري نتيجة أزمة قلبية أصابته في السادس عشر من أغسطس ١٩٦٧، وكان قد بلغ الثانية والستين من عمره، بعد أن ترك بصماته على الكنيسة الكاثوليكية وعلى الناس.

وقد حاول «ولتر بورجارد» في الحفل الذي أقيم لتأبينه أن يتصيد جوهر هذا الإنسان عندما قال: «كان جون كورتني موري تجسيداً حياً للإنسانية الكنيسة حيث تمتزج أرسقراطية العقل بديمقراطية الحب، لقد كانت منة من أعظم المنن أن نعرف رجل الكنيسة هذا وأن نحبه، هذا «الرجل الذي عاش للحكمة وبالحكمة».

قيم الحضارة الغربية

مارتن وايت (١٩١٣-١٩٧٢)

مارتن وايت العلم المفرد في تدريس العلاقات الدولية، وقد درج فيه على غير مადرجت عليه مناهج العلوم الاجتماعية وما التزمت به من نظريات، واختار اللهجة المدرسية الدارجة للتاريخ والسياسة والقانون وعلم اللاهوت، وارتد إليه ينشد منه التوجيه الجاد، أولئك الطلاب الأمريكيون الذين راحوا يدرسون في الخارج ويتعلمون على الأستاذ البريطاني «تشارلس ماننج» أو على حواريه ممن أخذوا يوجهون الدراسات الدولية توجيهًا علميًا، وأصبح لهم خير مرشد ودليل، فقد كان وايت على النقيض من ماننج يرى أن الدراسات الدولية منهج وليست علمًا، وما من معلم حفز تلاميذه وزودهم بالوعى الصادق والدأب الذى لا يكل كما كان وايت، حتى ليبرز أثره البارز في أفكار تلاميذه الناضجة كما يبرز في كتاباته.

وقد ولد وايت في بریتون عام ١٩١٣، لأب طبيب، وتلقى تعليمه الأول في برادفيلد وفي كلية هرتفورد، ثم في أوكسفورد حيث كان الأول على أقرانه عام ١٩٣٥ في التاريخ الحديث (وكان من ممتحنيه هيربرت

بترفيلد) ويصفه أحد أصدقائه بأنه كان طويل القامة جداً رقيق المعشر، أقرب ما يكون شبيهاً إلى لنكولن، يوقر الحقيقة ويجلّها. وقد أوفى على النضج العلمى فى سن مبكرة، فكان يجمع المخطوطات والمشغولات اليدوية والدمى عن كل ما يتصل بمضى أوربا، ويبدى نهياً بالغاً بالتفاصيل، حتى قال عنه صديقه «آدم واطسون» «إنه الثرثار الأعظم»

وتخرج وايت من أوكسفورد ليعمل مع هيئة «المعهد الملكى للشئون الدولية» فى تشاتهم حيث واصل دراساته وتأليفه حتى عام ١٩٤٩، لم يقلقه خلالها غير قيام الحرب العالمية الثانية ولم يبعده عنها غير عمله كمعلق صحفى فى الأمم المتحدة. وفى دارة تشاتهم التى قامت على المنح والهبات الخاصة والعامة من المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وقع وايت تحت تأثير «أرنولد ج. توينبى» والتقى الشاب الناشئ بالمؤرخ الذائع الصيت واشتركا معاً فى إصدار مجلدات متعاقبة للمعهد عن الشئون الدولية، وفى موسوعة توينبى «دراسة التاريخ» وقد ذيل المجلد الثانى عشر منها بكتيب بالحواشى والتعليقات التى يختلف فيها مع توينبى فى نظراته التاريخية واللاهوتية، وأما كان هذا الاختلاف فقد كان يتفقان معاً فى الالتزام الدينى وفى النظرة العالمية للتاريخ دون النظرة الإقليمية الضيقة، وفى الاهتمام بالعلاقة المتبادلة بين التاريخ العلمانى والدينى والمقدرة على تبين الإتساق بين الماضى والحاضر.

وعندما راجع «ه. أ. ل. فيشر» أحد هذه المجلدات رأى أن توينبى، وبما استدل عليه وايت قد عمل على أن يربط الحاضر بالمجرى الهادر

للتاريخ على سعته، وأن يبرز فحوى هذا الاتساق التاريخي، وأن يضيف على مشكلات العصر هذا التميز البارز في عرضه لها، على النقيض من تلك العروض الصحفية في الحوليات السنوية الضخمة الصادرة عن مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك مما نأى بتويني ووايت عن المجري السائد لعلم التاريخ المدرسي والملخصات الوصفية للأحداث السنوية للولايات المتحدة في الشئون العالمية، وفي الحوليات السنوية لمجالس العلاقات الخارجية في البلدان الأخرى، وكان وايت، حين يعرض للتاريخ، يتحدث عنه كما لو كان دراما صاغتها رسالة نبي، أو «فلسفة تحذوها القدوة» مما نأى به عن التقاليد المدرسية المحافظة، وحال بينه وبين جماعات السياسة الخارجية.

وقد عين وايت ناظراً لمدرسة «هيليبوري» قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، ومالبت أن غدا معلماً لامعاً بالرغم من قصور خبراته في هذا الميدان، واستطاع أن يلقي التلاميذ أن التاريخ أبعد من أن يكون معرفة بالواقع فلكل حكم فحواه الأخلاقي مما يعدّ خروجاً على الإطار الذي اتخذته تويني لدراساته، وقد أخذ وايت بتصوير تويني لما يعتمل في باطن الشعوب وفيما يبدو من ظاهرها وعن صحوة الحضارات وانهارها على مدى حقب التاريخ، فلم يقف باهتمامه على ما هو تاريخي فحسب بل عداه إلى الحاضر، وإن قل طوال حياته أن وقف متحمساً لها، أوذائداً عنها، فلما أخذ يزود عن عصبة الأمم كان يفصح عن تحرره من الوهم والظنون.

وكان وايت في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية داعيةً مسيحياً للسلام، وأول المتشيعين لعصبة الأمم وإن خاب رجاءه فيها حين فشلت في توقيع عقوبات جماعية على الدوتشى موسوليني في أزمة الحبشة. فقد كان يأمل أن تقيم عصبة الأمم بناءً جديداً للسلام، فإذا اجتاحت الحبشة فلا أمان لغيرها. وقد تأثر في دعوته للسلام عام ١٩٣٦ «بديك شيبارد» نائب رئيس أساقفة كنتربري ومؤسس «اتحاد الالتزام بالسلام» وكان من قبل راعياً لكاتدرائية القديس بولس، ولم يتبن وايت دعوة السلام المسيحية فحسب ولكنه أخذ يدير أيضاً مكتبة مملأها بالكتب الداعية للسلام في «لدجيت هل» وكان عنيداً في دعوته لا يهدأ ولا يلين، قريباً فيها إلى حد ما من دعوة جماعة الكويكرز البرجمانية في أمريكا أو من دعوة الجمعية المسيحية. وبكلمات سبق إليها هربرت بترفيلد بحجته في أن تقدم إحدى القوتين العظميين في حربيها الباردة على نوع من التضحية الجوهرية في سبيل السلام فقد كان وايت يرى أن السلام يحتاج من أي الشعبين إلى بعض الإغضاء عن الأمن ليكون ذلك أداة للسلام على المدى الطويل.

وكان وايت بإيمانه المسيحي غير راض عن الحرب العالمية الثانية وكان يراها إدانةً لمادية الحضارة الغربية ونزعته العلمانية وأنها تعكس ردة العصر عن الروحية كما كان يرى في الحرب العالمية محنة حياته فقد رأى فيها حرباً أهليةً تحطم كيان الحضارة الأوربية تحطياً كاملاً. وأساء ما فيها أن الشرور الناجمة عنها أشد قسوةً من الشرور التي قامت

للقضاء عليها، فلم يكن لهذا الرواء الزائف الذى استغله موسوليني فى إيطاليا فى أعقاب الحرب، ولا ضمور عظمة الإغريق واختفائها فى اليونان إلا نذيراً بالأسى الذى اجتاحت وايت عن المستقبل، فإذا أدرك المسيحى فحوى العدالة الألهية فليس له من خيار إلا أن ينبذ الحرب أو أن يشارك فيها أو أن يتخذ بديلاً عنها حضارة تستمد أصولها من مملكة السماء. وحتى ذلك الوقت من حياته لم يكن وايت قد انتهى إلى رؤيا واضحة لهاتين الفكرتين المتضاربتين لتكون أساساً جوهرياً لنظرته العالمية، فلم يكن هناك ما يتوهمه عن حقائق السياسة الدولية القاسية، ولم يصدق إطلاقاً أن المسألة يمكن أن تؤدى إلى هزيمة أدولف هتلر. وكان يحمل إعجاباً صريحاً بخطب ونستون تشرشل فى زمن الحرب، فى الوقت الذى يسفر فيه عن نفوره الأخلاقى من مغارم السياسة الدولية، ومع مرور الأيام تنحى عن مسألمته، ولربما كان لخلاصه من الوحدة بعد زواجه المتأخر بعض السبب فى ذلك. ولم يعد هناك من يدرى بالتزامه المسيحى البالغ غير تلك القلة من المحيطين به، فإذا نزع إلى حلّ للتوتر القائم لديه بين الواقع والمسألة، فإن هذا الحل لن يعدو المعاونة بين هاتين الفكرتين المتضاربتين: أينذ الحرب أم يشارك فيها.

وفى الفترة ما بين عام ١٩٤١ وعام ١٩٤٦، يعمل وايت «مارجرى بيرام» (المتخصصة فى شئون نيجيريا وطليلة الدارسين لمشكلات العالم النامى) وآخرين من الدارسين فى أوكسفورد فى بحث عن الاستعمار. وفيما عدا هذا التجربة ينشر ثلاثة كتب من تأليفه: «تطور

المجلس التشريعى. ١٦٠٦-١٩٤٥^(١)»، (١٩٤٦)، و«المجلس التشريعى فى ساحل الذهب (غانا)^(٢)» (١٩٤٧)؛ و«الدستور الاستعمارى لبريطانيا: ١٩٤٧^(٣)» (١٩٥٢)، ومما هو جدير بالتفكير أن يعود وايت إلى شئون البلاد المتخلفة فى نموها، والأقل تميزاً وذلك خلال الحرب العالمية الثانية، وقد يرجع هذا إلى مايساوره من قيم مسيحية، وشاركه ثلاثة من كبار الأساتذة: «ى: آرثر لويس» (وقد أصبح فيما بعد نائباً لرئيس جامعة جزر الهند الغربية) و«ميشيل سكوت» و«كولن ليجم» فى تأليف «اتجاهات نحو أفريقية^(٤)» (١٩٥١) فإذا كان مؤلفه هذا الذى طرق به ميدان الدراسات الاستعمارية أعظم ما قدم كمؤرخ يسير على النهج الاصطلاحي القديم، وإذا عدّ مؤشراً لانفلاته من الإطار العالمى للتاريخ عند توينبى فإنه قد يمثل شيئاً ما. غير ولائه المقيم لاتجاهه الفكرى.

وكان لغلبة فكرة القوة على فكرة الحق فى الحرب العالمية الثانية ما نزع به فى مؤلفاته الكبرى عن فكرة المسألة والأخلاقيات إلى الاهتمام بالقوى السياسية وتوازن القوى، كما كان لتأثير بترفيلد عليه، وإلحاحه فى تحليل منطق الأحداث، ما أدّى به إلى هذا التحول فى كتاباته، فأخذ يدرك ما ينجم من خسران فى استرشاد السياسة الخارجية بمبادئ الأخلاق الخالصة.

The Development of the Legislative council

(١)

The Gold Coast (Ghana) Legislative council

(٢)

British Colonial Constitution

(٣)

Attitudes to Africa

(٤)

وبدأ وايت المرحلة الثالثة في تطوره الفكري عام ١٩٤٦ (التاريخ العالمي هو الأساسي أما القضايا الاستعمارية فتأتي في المقام الثاني) بنشر «القوى السياسية»^(١)، ولو لم يكن لوايت غير هذا الكتاب الصغير، لكفاه ذلك ليدرجه بين قادة الفكر، فقد لخص فيه كل شئون السياسة الدولية للحقب الثلاث التالية: وعرض للقوى الكبرى، والقوى الصغرى، والفوضى الدولية، والمصالح الحيوية، واعتبارات الهيبة، وتوازن القوى، ومناطق الصدام، وعصبة الأمم، والأمم المتحدة، وخفايا القوى السياسية حتى ليتعذر على أى باحث في المستقبل أن يجد شيئاً لم يعرض له وايت. ومازال كتابه هذا أكثر كتبه شيوعاً في وقتنا الحاضر، وأضاف إليه تلميذه النابه «هادلي بل» ما تركه من مذكرات ليصدر في طبعة مزيدة وموسعة شاركه فيها «كارستين هولبرود».

وفي عام ١٩٤٩ يترك وايت دائرة تشاتهام وعمله كمراسل للأونزرفر في الأمم المتحدة إلى قسم العلاقات الدولية بمدرسة لندن للاقتصاد، بدعوة من تشارلس ماننج غريمه الفكري (وقد عجبت لما كان بين الرجلين من أناة وتسامح في عملهما معاً في زيارتيهما لها خلال الخمسينيات والستينيات)، أما هؤلاء الطلاب الذين تبينوا ما بين «ماننج» و «وايت» من اختلاف الفكر وتناقض الرأي. وما كان بينهما من تفاعل فهم أشبه في ذلك بما كان من طلاب جامعة شيكاغو الذين مروا بمثل هذه التجربة عندما تتلمذوا على «هانس ح. مورجنتو»

الواقعي، و«كوينسي رايت» المثالي. فقد تحول «ماننج» المحامي إلى ميدان العلوم الاجتماعية ولعله كان أكثر استجابة إلى الطابع العلمي للمدرسة الأمريكية في السياسة (وقد رأى أقطابها: «أرنولد ولفرز» و«وليم ت. ر. فوكس» و«كارل دويتش» في «ماننج» الأمل الذي يعقدونه على المدرسة الإنجليزية) أما وايت فقد بقى على نهجه المدرسي للتاريخ والسياسة التقليدية، وألقى بتعويذته السحرية على أولئك الذين يتشبثون بواقع الدبلوماسية المعاصرة. ولم يكن الدراسون الأمريكيون وحدهم هم الذين رأوا وايت أكثر سدادا من غيره فيما يتصل باهتماماتهم الغالبة ولكن الصحفيين من أمثال: «هاوارد ك. سميث» و«ساندر فانكور» قد وجدوه بدورهم كذلك. وإن كان وايت قد استبقى عباراته الحماسية الصريحة لبحوثه في الفلسفة والتاريخ وتؤكد لقاءات مع ماننج ما تناقل الناس عنه. حين شغل نفسه بما يجب أن تقوم عليه مدرسة فكرية، أكثر مما شغل بإقامة كيان لكتابات الخاصة، وقد وجه نظري إلى رفاقه ممن يراهم أخذان فكره.

وبدا وايت كما لو كان بمعزل عن أولئك الذين يصنعون قواعد الدراسات الدولية الجديدة حيث سلك طريقه في البحث عن المسائل الكبرى من حصاد التاريخ والسياسة، ولكنه ظفر بمنزلة رفيعة بين زملائه وطلابه تستمد جذورها من تكامل مؤلفاته وتميزها.

وفي مدرسة لندن للاقتصاد وقد عرفت باتجاهاتها الاشتراكية، مع تمسكها بنزعتها المحافظة في الاقتصاد والتاريخ. قام وايت بإلقاء محاضرات

عن المؤسسات الدولية بدءاً من الحركة الكنسية (١٤٠٩-١٤٤٩) إلى مشروعات السلام في القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى قيام عصبة الأمم والتي يراها تحقيقاً لأفكار توماس هوبز، ثم الأمم المتحدة التي يراها متفقةً مع اتجاهات لوك. أما هذه المؤسسات الدولية الجديدة فهي مؤسسات تافهة تأتى في الدرجة الثانية بالنسبة للدبلوماسية والتحالفات، وكانت أحب المحاضرات إليه محاضراته عن النظرية الدولية، بأبعادها الثلاثة في الفكر الأوربي، الواقعية أوالمكيافيلية، والعقلية أو الجروتسية، والتورية أو الكانتية^(١). فعرض لهذه الأبعاد الثلاثة التي يراها أساساً للنظرية الدولية ولما بين الواحدة منها والأخرى. وخرج منها يبحث اتخذ له عنواناً «القيم الغربية في العلاقات الدولية» أدرجه فيما بعد في كتابه: «استقراءات دبلوماسية»^(٢) (١٩٦٦).

وترك وايت مدرسة لندن للاقتصاد عام ١٩٦١، إلى بریتون أستاذاً للتاريخ وعميداً لمدرسة الدراسات الأوربية بجامعة سسكس الناشئة، فأثار من دهشة من يرون لندن قمة الفكر العالمى، ما أثاره انتقال «أرنولد ولفرن» من جامعة ييل إلى مركز بحوث السياسة الأمريكية الخارجية بمدرسة واشنطن العليا للدراسات الدولية. وقد يكون ذلك كما يرى. جورج ف. كينان - لنزعة رومانسية تملكه، أو وفاءً بالتزامه أمام

(١) الجروتسية إلى هوجو جروتسيوس أبى القانون الدولى. والكانتية نسبة إلى الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت. (المترجم).

Diplomatic Investigations.

(٢)

«لورد فولتون» للاشتراك في إنشاء الجامعة الجديدة، أو لعله اختار العودة إلى ميدان الدراسات الأوربية، لما لأوربا من أهمية كبرى في تصوره للسياسة العالمية، وكانت مدرسة سسكس للدراسات الأوربية شيئاً جديداً على التفكير البريطاني، وفيها غرق وايت في دراسة الحضارة الأوربية منذ كان الإغريق حتى الوقت الحاضر، وقام بإلقاء محاضرات في التاريخ القديم وعن دانتي، وجاكوب بوركهارت، والعلاقات الدولية، واحتل الذروة من الحماس والغيرة بين رفاقه الجدد، واتسمت علاقاته بطلابه بالحزم والعطف، وكانت له حميته (لِلدراسات الدينية، ولتاريخ الفن، واهتمامه بمكتبة الجامعة) وظفر بمكانة سامقة كمعلم، وفي وضعه لخطّة الدراسة، ولكنه لم يهجر اهتمامه البالغ بالنظرية الدولية. وقدمت له الجمعية البريطانية للسياسة الدولية الفرصة لنشر مؤلفاته الجديدة (وخلف هيربرت بترفيلد في الدعوة لاجتماعاتها)، وكانت أمتع ساعات حياته تلك التي يحك فيها آراءه مع تلك الصفوة من المفكرين في الجمعية البريطانية. وأثمرت تلك الرسائل الخالدة في دراساته العلمية، وحين تعرضت الجمعية للتفكك، أخذ يلمّ شعثها، وعمل على زيادة تمويلها. وفتح المجال لعضويتها.

ويستمد وايت واقعيته من تصور «وليم ستبس» لما بين التاريخ الحديث والتاريخ الوسيط من فروق تبدو في سيادة القوة على الحق في التاريخ الحديث، فالقوى الكبرى أشبه بالغاز يتمدد ليملأ الحيز، فلا يصدها القانون، ولا تقمعهما الوصايا الإلهية ولكنها تخضع لقوى أخرى،

ولا تتراجع عن التوسع والامتداد مالم تصل إلى أقصى ما تفرضه عليها سياسة توازن القوى ، أو تحس بالعقبات أمامها، ويميز «هيدلي بل» بين واقعية وايت وواقعية «ى. ه. كار» (وقد كان لكتابه «عشرون عاما من الأزمات» أعظم الأثر على وايت فى الأربعينيات) أما «هانس ج. مورجنتو» و «جورج ف. كينان» فإن «بل» يراها أكثر جدلاً وأحسن اتساقاً، وأقوم حكماً من «وايت» وقد كان وايت كغيره من الواقعيين متشائماً (وعرف بأنه المسيحى المتشائم) فلم يسلم أبداً بأن العالم يتحول عن سياسة القوة إلى نظام دولى أفضل، وفى مقاله : «لماذا لا توجد نظرية دولية؟» يرى لو أن «سير توماس مور» أو «هنرى الرابع» قد رجعا كرة أخرى إلى إنجلترا أو فرنسا فى الستينيات لرأيا المسرح الداخلى قريباً مما يبغيان، أما فى المسرح الدولى «فإن المسرح يتسع واللاعبون قلة. (وهو تصور يبدو أكثر سداداً عام ١٩٦٠ منه فى عام ١٩٨٠) والأسلحة أشد إثارة للفرع، إلا أن اللعبة فى ذاتها هى اللعبة القديمة، فالسياسة الدولية هى عالم التواتر والتكرار، وهى الميدان الذى يبدو فيه الحدث السياسى أهم معالمة، وتوقع وايت أن تتكرر الصورة، فالنزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى هو النزاع الذى كان بين فرنسا والهابسبرج، والتراشق المذهبى بين الغرب والكتلة الشيوعية، هو ما كان بين الكنيستين الغربية والشرقية، والماركسية تحيّف علمانى ضال لتعاليم العهد الجديد فى الفكر المسيحى، والسوبر مان النازى ليس إلا صورة شائهة لما جاء فى العهد القديم عن الشعب المختار. ويكتب فى «القوى السياسية» فىقول : «ستبقى القوى تكذّ سعيًا

وراء الأمن دون اعتبار للعدالة، وتضني بالسعى وراء مصالحها الجوهرية دون رعاية للمصالح العامة، وإن كانت مزقاً من التحيف تفصح عما بين الغاية والتقاليد الأوربية من فروق « ويرى « بل » أن وايت بعد أن كتب « القوى السياسية » وكان في الثالثة والثلاثين، قد تحول عن قصده، فأخذ في كتاباته الأخيرة يبدى مزيداً من الاهتمام بالالتزامات والمصالح العامة كدعوته بريطانيا للالتحاق بالجماعة الاقتصادية الأوربية مثلاً، فإذا قيل إنه نبذ نوااميس القوى السياسية، فإن ذلك يحمل الكلمة أكثر مما تطيق، فإذا كان لنا أن نتقبل مقدمة « بل » الرائعة الأخاذة لكتابه الذي صدر بعد وفاته « نظم الحكومات »^(١) (١٩٧٧) (وقد حوى كل ما كان من تحليلاته السابقة) فإن القارئ ليتساءل عما إذا كان التلميذ قد أقحم أراءه على شروح أستاذه.

وبقى كتاب « القوى السياسية » أعظم ما كتب وايت في التعريف بالسياسة الدولية وتصورها، وهو ميدان عانى من التعميم ومن المناقشات الطريفة للأحداث الجارية كما ذهب أكثر الكتاب فيه إلى عدد من التعريفات لهذا العمل الكبير تتعدى حدود الواقع المسلم به. « فالقوى السياسية - فيما كتب - هي العلاقة بين القوى المستقلة، ولا تم إلا مع توافر شرطين: ألا تدين هذه الوحدات المستقلة لسلطة سياسية أعلى، وأن تقوم بينها علاقات دائمة منظمة وقد يضني الواحد إذا ظن أن وايت، مهما كان تحول أفكاره، يستطيع أن يغير من تعريفاته في

الثمانينيات، أو يعيد صياغتها، وإن كان وايت قد سلم بأن النظام الدولي الذى قام على شرحه لم يكن له صفة الدوام، ولكنه ظهر إلى الوجود فى فترة الإصلاح، وما كانت تلك العبارات، كعبارة «سياسة بريطانيا الخارجية» اختزالاً لتلك الصورة اللانهاية المعقدة للمقومات السياسية التى لا تقوم على وزارة الخارجية وحدها، ولكن على رئيس الوزراء ومجلس العموم، وعلى كم من التقاليد والمصالح وعلى الأجيال المتعاقبة من الأحياء والأموات. وليست القوة ولا التهديد بالقوة بالعامل الفرد فى القوى السياسية فإذا أغفلنا هذا البعد، كما يؤكد، فإننا نغفل بعداً لا يحول ولا ينقطع قد يعكس الواقع السياسى.

وقد عرفت القوى الكبرى أول ما عرفت فى ممارسات مؤتمر فيينا الدبلوماسية عام ١٨١٤، حين خرج الدبلوماسى البريطانى كاسلريه بتصور جديد، يقصر مفاوضات المؤتمر على «القوى الست التى تتميز بثقلها الدولى وكثافتها السكانية» وهى بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا وأسبانيا والدولة المهزومة فرنسا، ولكن الواقع الذى تم أنها اقتضت على الحلفاء الأربعة، وتكرر ذلك مرة أخرى فى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩، إذ اقتصر على بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان إلى جانب القرارات التى تقدمت بها الولايات المتحدة من قبل، «فالقوى»، كما يؤكد وايت، قد أصبح قوة عظمى، فى انتصاره على قوة عظمى أخرى «فالقوة العظمى تفقد مكانتها، ما غلبت قهراً أو هزمت فى حرب، واكتسبت القوى العظمى أول اعتراف بها فى عصبة الأمم، عندما احتلت مكاناً دائماً فى مجلس العصبة، وطالما اتسعت مصالحها

وزادت مواردها، طالما كانت لها اليد العليا في المشكلات الدولية، وتكمن قوتها في قدرتها على الوقوف وحدها، أما القوى الوسطى التي تتمتع بمكانة خاصة في الهيئات الدولية كالأمم المتحدة، فإنها تستمد كيائها من النوايا الطيبة للقوى الكبرى، كما هو حال المكسيك مع الولايات المتحدة، وبولندا مع الاتحاد السوفيتي، وإن جنحت القوى الكبرى إلى قلة تستزيد من قوتها بعد أن آذنتها الحرب العالمية الأولى بظهور ما يسمى بالقوى العالمية، ولا تملك القوى الصغرى غير الدفاع عن مصالحها المحدودة، أما البعض منها حين يلاحق تلك المصالح بطريقة سلبية من خلال سياسة الحياد، فإنها في الواقع قوى تتمتع بمكانة خاصة. ومع الثورة التكنولوجية في معدات القتال اتسعت الهوة بين القوى الصغرى (التي تضمن بقاءها لما لها من صلات تربطها بإحدى القوى الكبرى) والقوى الكبرى، وقد تزداد اتساعاً بالرغم مما يقال عن المساواة بين الدول، وواجب الحكام في أى نظام من نظم القوى السياسية أن يحموا استقلال شعوبهم ويصونوا مصالحها الحيوية (وهي المصالح التي يمكن أن تشعل حرباً للدفاع عنها) قبل أى مصالح تزاوجها لشعب آخر. والمصالح الحيوية لأى دولة هي مآثرها هي لنفسها، وإن كانت لا تقوم على واقع أو إنها عرضة للتغيير، وهي ما تختلف فيه مع قوة أخرى، والهيبة هي الهالة التي تحيط بالقوة، وهي اعتراف الشعوب الأخرى بما لها من مكانة وسلطان، فالقوة تقوم على السمعة، والسمعة تقوم على القوة.

والأصل في كل صراع ينجم، هو الاتجاه العام لكافة القوى نحو

التوسع الاقتصادي والثقافي والسياسي، أو التوسع الإقليمي على وجه التحديد. ولا يقتصر هذا الاتجاه على القوى الاستعمارية والإمبراطورية الكبرى كبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة، وإنما يتعداه إلى القوى الصغرى كالبرتغال وهولندا وبلجيكا وقد خرجت كلُّ منها في أعقاب الحرب العالمية الأولى بإمبراطوريات استعمارية تزيد على أضعاف مساحتها كثيراً، «وما من قوة إلا وتتجه إلى التوسع حتى تصل إلى حالة من التوازن، هو نتاج عاملين: الضغط الخارجي، والتنظيم الداخلي» وما من قوة من القوى جميعاً تسلم بضياغ أملاكها دون مقاومة، وإن استثنيت بريطانيا بالذات والولايات المتحدة من تلك القاعدة لأنها تعلمتا مما أصاب الغير كيف تكونان جارتين طيبتين.

أما المبدأ الأساسي للقوى السياسية فهو مبدأ توازن القوى، فمن الناحية الموضوعية، هو تطبيق لقانون المحافظة على الذات «فإذا نمت قوة ما وغدت مصدراً لخطر، فإن القوى الأخرى تتجمع ضدها، ويلعب توازن القوى دوره عندما تحاول قوة طاغية فرض سلطانها على العالم» ويقوم توازن القوى المركب أشبه بثريا ذات مصابيح عديدة، وهو ما كان في أوروبا القرن الثامن عشر حيث كانت بريطانيا وفرنسا وأسبانيا تعمل على التوازن فيما بينها في غرب أوروبا وفي أعالي البحار بينما كانت النمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تعمل على التوازن في وسط وشرق أوروبا كما يقوم التوازن بين الفريقين على حدٍّ سواء فإذا انقسمت القوى الكبرى إلى فريقين يواجه كلُّ منهما الآخر فإن الثريا بمصابيحها العديدة تتضاءل

ليحل محلها ميزان ذو كفتين فيما يسمى التوازن البسيط، وهو ما حدث في أوروبا في ختام القرن التاسع عشر حين تم التحالف بين روسيا وفرنسا عام ١٨٩٣ في مواجهة التحالف الثلاثي بين ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر، وإيطاليا، وما حدث عام ١٩٣٦ بقيام محور برلين - روما في مواجهة قوى عصبة الأمم.

والتوازن شبيه بالأمن القومي له معنيان : التعادل، أو الزيادة (كالتوازن المصرفي) وعند ذاك يلعب التفسير الذاتي دوره فالمؤرخون حين يتجردون من عواطفهم في نظرتهم للنزاع قد يلمون بنوع من التوازن عندما يتساوى الفريقان المتنازقان في القوة حيث يرى رجل الدولة التوازن قائماً عندما يبدو جانبه أقوى من الجانب الآخر، وقد انتهى الحوار واحداً بعد الآخر في الولايات المتحدة حول الأمن القومي إلى فكرتين للتوازن كلٌ منها تقرر الأخرى : التعادل مع الاتحاد السوفيتي وهو ما زعمه الدبلوماسيون أو زيادة القوة الأمريكية وهو ما أعلنه العسكريون، وكان لبعض القوى في الماضي السيطرة على التوازن حين تتحرك بكل ثقلها من جانب إلى آخر، ويمثل هذا المعنى ما كان من «عزله بريطانيا الرائعة» وما كان من العزلة الأمريكية وبالذات خلال القرن التاسع عشر، إلا أن الأمريكيين في القرن العشرين خدعوا أنفسهم في إيمانهم بأن حرية العمل هذه سجية باقية مقررة في سياسة أمريكا الخارجية.

ويدلل وايت على أن السياسة ليست علماً خالصاً، وليس لها قانون

ثابت يخلو من الشذوذ، وإن كان يصّر على أن «توازن القوى قانون أساسي من قوانين السياسة طالما سنحت له البوادر: ومن اليسير أن ترى في التاريخ أنه كان السبيل الذي سلكته معظم القوى لتأمين وجودها في أغلب الحالات» وقد أخذت به على الدوام كافة الدول التي تتمتع بالقوة والثقة والتماسك، أما الأمريكيون الذين اختصموا وايت فيما ذهب إليه من استمرار مبدأ توازن القوى فقد فطنوا إلى ما يقوله رجال السياسة من أمثال تشرشل من أن السلام الذي عرفه العالم منذ الحرب العالمية الثانية إنما قام على توازن قطبين سياسيين، وعلى «توازن الرعب» التكنولوجي، وما من مفكر بين قادة الفكر قد استطاع أن يفسر العوامل الفعالة التي تلعب دورها في نظام القوى السياسية بهذه القدرة والتفوق والوضوح كما فسرهما مارتن وايت. ومهما يكن ما حقق من توسع وإتقان في مؤلفاته الفكرية الأخيرة فإن نفاذه إلى جوهر الحقيقة فيما كتبه عن القوى السياسية في بواكير حياته سيبقى وطيّد الأركان.

ومن التحيف أن نكتفي من فكر مارتن وايت بعرض ما كان له من جهد لا يكلّ في شرح القوى السياسية، فهناك تلك الأبعاد الدينية التي شابت فكره، فقد كان وايت مسيحياً خالصاً وإبغلياً وزعاً، كما تأثر إلى حدّ بعيد بهربرت بترفيلد ورينولد نيبور، وخلط بين التشاؤم العلماني والأمل اللاهوتي، ولم يكن الدين لديه زينة تشيع في وجوده، وتساءل عما إذا كنا نعي أننا نعيش في تيه، «ولسنا غير خطاة بائسين لا نعي فحوى ما نبذل من جهد، نعيش تحت رحمة القدر... كما

كان.. كيافوس. في ولائه للوثنية، وإن كنا نعى تمامًا كما كان من بيلاطس،
أننا نصلب المسيح كل صباح. وتناول بسخرية ما يدعى دولة الرفاه،
وقال: إن الأمم المتحدة مثال للمسيحية، ونوه بما يمكن أن
يكون للمثل المسيحية في عالم السياسة من أثر يفوق ما كان لموعظة
الجل من أثر ورأى ضرورة التمييز بين ما وصفه رجال اللاهوت بعالم
القياصرة، وعالم الله. وشك في أن يكون من اليسير قطع دابر الحروب
مادامت المسيحية قد عدا عليها الفساد منذ القرن السابع عشر بدعوى
التقدم. فإذا أمكن تجنب بعض الحروب، كما تدل الشواهد، فقد بقيت
الحرب حلًا لا يريم، «فالحرب الثالثة - كما كتب عام ١٩٤٦ - حقيقة
متوقعة كما نتوقع عودة المذنب هالي». وبقي وايت على تغلقه بالمسيحية
الخالصة لا يريم عنها، وإن قلت كتاباته الدينية في السنوات الأخيرة من
حياته، فقد ظل ما كتب مرجعًا ثابتًا للتعرف على فكره، وكان له من
المسيحية المكتملة بديلاً عن الأخلاق العملية وعن وحى الحصافة
والفطرة، واستمر على دأبه يبحث عن نظرية للأخلاق الدولية تستوحى
حكمة الماضي.

وظهر لوايت ثلاث مقالات هامة في أول مطبوع للجمعية البريطانية
للسياسة الدولية، وقام مع بترفيلد بنشره تحت عنوان «الاستقراءات
الدبلوماسية» كان عنوان المقال الأول: «لماذا لا توجد نظرية دولية؟» طرح
فيه هذا السؤال: لماذا لا تحتاج عبارة «نظرية سياسية» لشرح بينما
نحتاج عبارة «نظرية دولية» للشرح؟ فالنظرية السياسية تعنى النظر في
طبيعة الدولة، ولكن النظرية الدولية حين يراها البعض منهجاً لدراسة

العلاقات الدولية، أو أنها لون جديد من ألوان التصور، يراها وايت نوعاً من التأمل في طبيعة العلاقات بين الدول، فالعلوم السياسية بما فيها من تضارب تتألف جميعاً في مضمار النظرية السياسية، وعلى النقيض، لم تتواتر كتب أصيلة عن الدبلوماسية ونظام الدولة خلال القرن التاسع عشر وما قبله، كما تواترات تلك الكتب السياسية الكلاسيكية من بودين إلى مل، وقبل القرن العشرين بدأ التأمل في مجتمع الدول نابذاً عن القانون الدولي والمصادر التالية :

١ - الكتاب الذين أخذوا يشيرون إلى عصبة الأمم مثل «ارازمس» و «وليم بن» و «أسقف سانت بيبر».

٢ - المكيافلليون، أو الكتاب العقليون، ومنهم فريدريش ماننج، أول السابقين إلى تناولها

٣ - الفلاسفة والمؤرخون الذين تناولوها على هامش إلحاحهم في التعرض لمشكلات السياسة الدولية، كما كان «دافيد هيوم» في «توازن القوى» و «جان جاك روسو» في «مشروع للسلام الدائم» و «جرىمى بنتام» في «خطة سلام عالمي» و «ادموندبيرك» في «تأملات في الشؤون الفرنسية» وفي «رسائل عن جريمة قتل السلام» ومقال «ليوبولدفون رانكة» عن القوى العظمى، و«جون سيتوارث» مل عن قانون الأمم.

٤ - أحاديث ورسائل ومذكرات ومقالات الساسة، ورجال السلك السياسى كرسائل «جورج كائننج» الكلاسيكية، عام ١٨٢٣ عن فكرة التكافل، ويسمارك في «أفكار وذكريات» ولورد سالسبورى في بسواكير

مقالاته عن الشؤون الخارجية التي نشرت في «كوارترلى ريفيو» وكان بريك وحده بين فلاسفة السياسة هو الذى تحول عن النظرية السياسية إلى النظرية الدولية، وانفرد مكياقيللى بوصاياه عن العلاقات بين الدول كوصاياه عن السياسة فى داخل الدولة.

ومع الحاجة إلى نظرية دولية جاء الفلاسفة والمؤرخون فرادى ومتفرقين ينكرون الإيمان بالتقدم، والأفكار السياسية عن الدولة كما ينكرون الفردية والخير والحياة الطيبة، فالسياسة الدولية أقل جاذبية لدى دعاة الارتقاء، وما من محاولة لإقامة نظرية للارتقاء إلا ولقيت الإحباط والقنوط بدلا من البحث والتحرى، ويشهد وايت بأن: «البرهان الساطع على الحاجة لنظرية دولية هو ما يحملنا على اليأس والقنوط ما لم يكن مقبولا، ولكنه البرهان الذى يسوقه الهيجليون (والكانتيون)... وقد صرخ الشيوعيون عندما اقترب الألمان من موسكو، والنازى عندما تغلب الروس على الألمان، فى صوت واحد بأن الهزيمة لم ترد لهم على خاطر، لأنهم إذا كانوا قد هزموا فلأن التاريخ لم يعد له دلالة» وهناك اتجاهان آخران يسيئان إلى النظرية الدولية ويفسدانها، أقربهما تلك الفكرة الغربية الشائعة بأن الأسلحة النووية قد غيرت من السياسة الدولية وقضت على الحروب إلى غير رجعة، وتلك فكرة يراها وايت أقرب إلى ما كان خلال القرن التاسع عشر من أن الرأى العام يحول دون وقوع حرب. فالنظرية السياسية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع السياسى، والنظرية السياسية، ولاسيما فى فحواها القانونى لا تدعو إلى

التعقل ولكنها تدعو إلى تغير دبلوماسي... « فإذا كانت الدبلوماسية عنيفة
ماكراً، فإن القانون الدولي يخلق فوق أرجاء القانون الطبيعي، وإذا
كانت الدبلوماسية في حاجة إلى أسلوب معين من التعاون، فإن القانون
الدولي يخوض في مستنقع من الوضعية القانونية» والتوتر الذي يقع بين
النظرية السياسية والممارسات الدبلوماسية يمكن في متاهات النظرية
السياسية. وكل ما كان من دراسة للعلاقات الخارجية إلى ما كان من
هذا الكم الهائل من الفلسفات السياسية لانراه إلا في كتابات «ثيوسيد»
التاريخية. وعلى الطالب أن يتصدى لدراسة الحكومة الأمريكية والرواد من
آبائها أن يرجع إلى كتابات الفيدراليين، ومن يرد منهم أن يدرس سياسة
الحكم فإن عليه أن يقرأ التاريخ العفن كما كتبه «جون سيللي» في «نمو
السياسة البريطانية»^(١) أو إلى «دبلوماسية عصر النهضة»^(٢) كما كتبها
«جاريت ماتنجلي» أو ما كتبه «هويلر بينيت» عن «برست ليتوفسك»^(٣) من
أن يرجع إلى النظرية السياسية في إطارها المنهجي الجديد.

وحاول وايت أن يبرز التنافر بين النظرية السياسية والممارسة
الدبلوماسية الناجمة عن المفارقات الدولية المختلفة، بالقياس إلى السياسة

Growth of British Policy.

(١)

Renaissance Diplomacy.

(٢)

(٣) Brest-Litovok معاهدة أبرمتها روسيا السوفيتية (٣ مارس ١٩١٨) يصلح منفرد مع دول
الوسط عندما خرجت من الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها أمام ألمانيا وقيام الثورة البولشفية.
(المترجم).

الداخلية «فالنظرية السياسية والقانون هما دليلا التجربة أو طرائق العمل في غمار هذا العالم من العلاقات المعيارية والنتائج المحسوبة، والنظرية التي تقوم عليها حياة طيبة، فالنظرية الدولية هي نظرية البقاء والاستمرار، أما الحاجة إلى نظرية سياسية فلحالة أبعد وأكثر أهمية (كالثورات والحروب الأهلية) ولكنها بالنسبة لأصحاب النظرية الدولية حالة متواترة» وحدود النظرية الدولية حين ألت بهذا الجهد النبيل الذي قام به «هوجو جروتشوس» في وضع قوانين الحرب. لم تكن في رأى «جوزيف دي ميستر» غير «قانون مفرع مريب» للدمار العنيف. والنظرية السياسية تتناول البقاء القومى كما تتناول الفناء القومى، وما تثيره من قضايا حوك التهدة، وحوار حول الردع النووى أو مسائل الأمن ونزع السلاح، وتتسلل هذه القضايا إلى لغة العلوم الاجتماعية وكأنها مسائل عادية. وتضع القوالب للنظرية السياسية بعيدة عن مضمار التاريخ..

ولهذا يلقي وايت الأضواء على المسائل العسيرة في النظرية السياسية عندما قدم العون للناس على فهم القوى السياسية والتقاليد المسيحية في تناول المشكلات الدولية، وأنجز في ذلك جانبين: أولها دراسته المقارنة لنظم الدولة (النظام الحديث أو الغرب للدولة، والنظام اليونانى القديم للدولة) وثانيها القيم الغربية في العلاقات الدولية، فالأول شبيه بما كان من أبحاث المعاصرين من رجال العلوم الاجتماعية حول طبيعة الدولة وحدودها، وبزوغ عالم من الدول المستقلة المتكافئة، فنظام الدولة - كما يراه وايت - يقوم على علاقات بين الدول لا تعترف بقوى سياسية أعلى، ولها علاقاتها الدائمة أو شبه الدائمة مع بعضها البعض عن طريق

الوفود والمؤتمرات، والاجتماعات المشتركة ولغة الدبلوماسية والعلاقات التجارية. وهناك ثلاثة نظم تجمع بين هذه الخصائص: النظام الحديث أو الغربي للدولة، وقد بزغ فجره في القرن الخامس عشر ليسود العالم في الوقت الحاضر، والنظام الهيليني والهيلنسى اليونانى الرومانى، والنظام الصينى الذى ساد بين الدول المحاربة فى حقبة قديمة. وقد وضع وايت فروقاً هامة للتمييز بين هذه الأنظمة الثلاثة أبرزها تلك المعايير والقيم التى تبعث الحياة إلى النظام وإلى المؤسسات التى تعبر عنه. ويستلزم نظام الدولة ثقافة عامة، سواء قامت هذه الثقافة على أخلاقيات عامة وعلى قانون يؤدى إلى التعايش، أو جنحت إلى الأوهام الدينية أو المذهبية العويصة، وتساءل دون أن يجيب: هل تستطيع هذه القوانين أن تسفر عن ممارسة عامة للجنس البشرى فى سعى الناس إلى قانون طبعى؟ وقد بدأ تمزق الوحدة الثقافية فى الحروب الدينية وفى الثورة الفرنسية حين جنحت النظم إلى التباين الثقافى تستوحيه قوى خارجية. وتساءل وايت أمازالت الوحدة الثقافية قائمة مع امتداد النظام الحديث للدولة إلى غير أوروبا. ويعرض أخيراً لتحليل هذا اللبس الذى يسود عالم اليوم عما هو نظام دولة أو ما ليس بنظام دولة، وبهذا مهد الطريق أمام الآخرين لإدراك أوفى لدور التجمعات التى تتجاوز الإطار القومى، والتجمعات القومية الصغرى، والحركات العالمية الثورية:

وظل وايت ملتزماً بفلسفة الأخلاق والدين فى كل كتاباته، وقد راد فى بحث من بحوثه الأخيرة مكانة القيم الغربية فى العلاقات الدولية، فالقيم كما عناها نمط من الأفكار المتأسكة تتركز فيما دعاه تقاليد الهويج

أو التقاليد الدستورية في الدبلوماسية كما بدت في شتى ألوانها لدى «هوجو جروتويس» و «أدموند بيرك» و «الكسيس توكفيل» و «إبراهيم لنكولن» و «ججليمو فيرو» و «ح. ل. بريرلي» و «هارولد نيكلسون» و «ونستون تشرنشل» و «بول أ. سبيك» وخرج منها بأربعة أفكار بارزة : أولها الجماعة الدولية التي تقوم «على الصلات المألوفة بين الجماعات المستقلة بداية من البلاد المسيحية في غرب أوروبا إلى العالم أوسع... والتي تتجلى في النظام الدبلوماسي، والتأييد الواعي لمبدأ توازن القوى للمحافظة على استقلال أعضاء الجماعة، وفي إجراءات القانون الدولي، التي يسلم بها الجميع وإن لم تكن على الدرجة الأولى من الأهمية السياسية، وفي تكافل الدول فيما بينها اقتصاديًا واجتماعيًا وتكنولوجيًا، وفي المؤسسات الدولية العاملة» أما الفكرة الثانية فهي صيانة النظام وتقوم على تقسيم حقيق أو توازن القوى، وإن كان على مستوى عام كمبدأ مقاومة العدوان والتوازن بين النظام والحق. والثالث مبدأ التدخل ويعكس تكافل الدول فيما بينها، كما يعكس مصلحة كلٍّ منها واهتمامه بما يجري في غيرها. ويرى وايت أن التدخل يبدو حقًا عندما يدعو إليه طارئ أو ضرورة نكدة لما يعتبر مبدأ توازن القوى من خلل أو ما هناك من تفاوت في مستوى القيم بين الأعضاء فمن حيث المستوى الأخلاقي يبدو أن المحافظة على توازن القوى سبب وجيه للتدخل أكثر مما هو في التعلل بالقيم الحضارية، وإن كان التعلل بالقيم الحضارية أكثر وجاهة للتدخل من التعلل بالمحافظة على وضع الحكومات القائمة. والخلاصة أن الأخلاق الدولية تدع مكاناً للإدراك الفردي في السياسة

الدولية ولفكرة الحدود الأخلاقية للعمل السياسى. ويقول وايت « إن الدواعى السياسية تستلزم الرجوع إلى المغزى الأخلاقى لمن تعنيهم تلك الدواعى.. وقد تستجيب للفطنة وتلك قيمة أخلاقية».

وهكذا ينتهى وايت وقد بدأ معارضاً للضمير إلى تبرير الفطنة والحصافة، والأخلاق العلمية، مقررأً للعلاقات الفطرية الثاوية فى أعماق القيم الغربية معلماً لها على الحقائق الجامدة للقوى السياسية، وكان يأمل أن تتوافق القوى الدولية مع الأبنية الجديدة كعصبة الأمم، ولكنه يعود فى النهاية إلى تلك المبادئ الثاوية فى محراب التاريخ الدولى.

وكما كان هربرت بترفيلد وقد تتلمذ عليه، ورينولد نيور الذى أوحى إليه بالكثير من أفكاره كرّس وايت كل نشاطه العلمى سعياً وراء معيار أساسى للسياسة. وقد كان هؤلاء الثلاثة من قادة الفكر عمالقة المؤرخين البروتستانت ورجال اللاهوت من كتاب الأخلاق والسياسة الخارجية. وقد انتهى الثلاثة بعد حياة حافلة بالفكر إلى أن الفطنة والأخلاق العملية أقوى السبل وأعلاها فى تناول الأخلاق السياسية، وغدوا من بعد هداة ومرشدين لمن يجىء على آثارهم، فهذا الحبر الجليل «جون كورتنى مورى» يكتب من خلال المأثورات التى تدين بها الكاثوليكية الرومانية والأصول التاريخية للقانون الطبيعى، وإن كانت حول الحرب والسلام والتوافق بين فلسفة الأخلاق فى الحرب والسياسة الخارجية، فقد خلّت من أى تباين حادّ فى تفكيره، ومن العسير أن نجد له ضرباً فى الثقافات الأخرى خاص معركته بمثل تلك البسالة والشجاعة الفكرية العظيمة ليقم معياراً أساسياً حياً للسياسة.



الباب الثاني

القوة والسياسة

جاء المهاجرون إلى الولايات المتحدة طلباً للأمن والحرية، وكان هذا الشتيت من العقول المفكرة من كافة الأصول والبقاع، ومن موجات الهجرة التي تعاقبت على الزمن، كانت تلك الهجرة من ذوى العقول النيرة بما كان لها من أهمية بالغة في الفكر الدولى فى الثلاثينيات والأربعينيات فراراً من ألمانيا الهتلرية، ومنهم من شق طريقه فى الوظائف الحكومية، ومن وجد مكانه فى ميدان العلم أو فى الأعمال العامة، ومنهم تلك الصفوة من العلماء اللاجئين الذين شاركوا تحت رعاية جامعة شيكاجو فى مشروع مانهاتن الذى انتهى بهم إلى اكتشاف القنبلة الذرية، ومن أعلامهم فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية «ألثن جوهانسون» الذى قام بإنشاء مدرسة نيويورك الجديدة للبحث الاجتماعى وقد غدت ملاذاً علمياً لفئة من أنضج العقول الأوربية، منهم «ليوستراوس» و «هانس سبير» و «أرنولد بريخت» و «كيرت ريزلر» و «هانس جونس» و «أريتش هول» وكان الكثيرون من أنبغ مفكرى العلوم الاجتماعية فى أمريكا ما بعد الحرب من هؤلاء الهاريين من طغيان هتلر، ويحظون

اليوم بتقدير بالغ لما قدموه للفكر الاجتماعي الأمريكي.
وما من ميدان حظى بأعظم كسب من هؤلاء المهاجرين كميدان
الدراسات الدولية ومن العسير إحصاء المبرزين بينهم، فمنهم من برز في
ميدان التعليم، ومنهم من تحول إلى الفلسفة (ليو سترأوس، وحنأ أرندت،
وهانس جونس، وإريك فويجلين) أو دراسة الحكومات المقارنة (كارل
جوشيم فريدريتش، وفرانز وسيجموند نيومان، وأتوكير خيمر) والمدعى
العام برننج، ووالديمار جوريان) أو القانون الدولي (ليو جروس، وهانس
كيلسن) ومنهم هؤلاء الرجال الذين يصغرونهم سناً من هذا الجيل اللاحق
من المفكرين الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة وما زالوا في مرحلة التلمذة
وبرزوا في ميدان الإدارة الحكومية كوزير الخارجية «هنري كيسنجر»
ومستشار الأمن القومي «زيجنيو ك. بريزنسكي» ومنهم من لجأ إلى إنجلترا
(جورج شوارزنبرجر، وهيرش لوتير باخت) ومنهم من اختار بلاداً أخرى
كسويسرا وأسبانيا، كما حظى التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد والأدب
بغيرهم من أعلام الفكر الأوروبيين من أمثال «جاكوب ثينر» و «فردريش
قون هايك» و «كارل مانهيم» و «جوزيف شومبيتر»، ومن العسير أن نجد
شبيهاً لهجرة هذا العدد من المواهب على مدى تاريخ الفكر، ومن حسن
الطالع أن تستوعب الحياة الجامعية الأمريكية تلك المأثورات التي جاء بها
هؤلاء الأعلام البريطانيون والأوروبيون.

وقد قام هؤلاء الأعلام من البريطانيون والأوروبيين والأمريكيين بجهود
بارزة في ميدان الدراسات الدولية أضفى أهمية بالغة على أثر القوة في
السياسة. وقد كان الأمريكيون بنجوة من الحقائق التي تحكم القوى

السياسية لعزلة البلاد الجغرافية عن أوروبا وللدور الذى كفى به الأسطول البريطانى الأمريكين حماية مصالحهم وبالذات عبر الاطلنطى. فعلى مدى ثلاثة قرون استوعبت كل من بريطانيا وأوروبا حقائق القوى السياسية، فالقوة قد غدت عاملاً لا معدى عنه للحكم والسياسة، وليس من المحتمل أن تتوارى بظهور نظام دولى جديد، وقد كان الأمريكيون وهم يستوحون قيادة الرئيس وودرو ويلسون ومبادئه أكثر أملاً فى القانون الدولى وفى المنظمات الدولية، وقد تبين أتباع ويلسون أن الأساليب القديمة كالتخالفات وتوازن القوى تفسح مكانها لأبنية جديدة تفصح عن المصالح الإنسانية العامة.

وقد كانت سنوات ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية سنداً للتصور البريطانى والأوروبى للقوة، وصرح هتلر علناً بأن استهانة الحلفاء بالقوة قد مكّنه من غزو أكثر بلدان أوروبا، وأبرز هذا الفريق القليل من الدارسين الأوربيين الأمريكين ممن لجأوا إلى الولايات المتحدة ما ينجم عن وهن القوة من مخاطر كانت سبباً فى انهيار جمهورية فيمار فى ألمانيا، والحاجة إلى قوة منظمة لمقاومة التوسع النازى، وستكون هذه المؤسسات الدولية وحدها من القوة كما تنشدها الدول الأعضاء.

وكان أول من دعا إلى إدراك واقع العلاقات الدولية كاتب غير هؤلاء الأوربيين الأمريكين النازحين إلى الولايات المتحدة، وإنما هو إنجليزى من المملكة المتحدة هو الدبلوماسى والصحفى والمؤرخ «ى.ه.كار» ففى كتابه «أزمات عشرين عاماً»^(١) وقد كتبه عشية قيام

The twenty years' Crisis.

(١)

الحرب العالمية الثانية، يعزو الأزمات إلى فشل الحلفاء في تنظيم قوة فعالة لمقاومة العدوان أكثر مما يعزوها إلى أفكار ويلسون الدولية (بما فيها الولايات المتحدة)، فما كان لتلك الهوة بين الأفعال والأقوال أوبين التصريحات والسياسات ضريب كما كانت عليه بين الشعوب الغربية، وأصبح على تلك اليوتوبيا الخيالية بكل ما لها من مكانة أثيرة في الفكر الاجتماعي أن تفسح مكانها للواقع إذا ما كان للغرب أن يستمر ويبقى. وخلف «هانس ج. مورجنتو» كار ولم يكن هناك من هو أكثر منه شدة وصراحة في دعوته إلى الواقع السياسي، وأياً ما كانت الغايات التي تنشدها السياسة، فالقوة وحدها هي الوسيلة التي لا محيص عنها لتحقيق تلك الغايات ولا بد للقوة أن تكون من التنظيم بحيث تضطلع بمهمتها في الدفاع عن الشعوب، وأن تكون من الجلاء والوضوح بحيث تسفر عن المصالح القومية إلا أن جماعة الدارسين في الولايات المتحدة قد وقفوا من كتاباته الأولى موقف العداء وبخاصة عندما كتب «رجل العلم في مواجهة سياسة القوة»^(٢) و«سياسة الشعوب»^(٣) و«الدفاع عن المصالح القومية»^(٤) فلما تفاقم الصراع بين أمريكا والاتحاد السوفيتي لقيت آراؤه اهتماماً بالغاً وأصبحت أكثر قبولاً، ولم تلق أفكاره الفسيحة ولا واقعيتها السياسة المركزة ولا سيما تصوّره لحدود القوة من التقدير والاعتبار إلا عندما أخذ يطبقها على أزمات آسيا وقيتنام.

Scientific Man V S. power Politics.

(٢)

Politics among Nations

(٣)

In Defence of the National Interests.

(٤)

وكان «أرنولد ولفرز» و «جون ه. هرز» هما الآخران أوروبيين أمريكيين ممن تصدوا لشرح القوى السياسية، وإن حاولا التوفيق بين الواقعية والمثالية مما جعلها أكثر قرباً من المثالية السياسية في التقاليد الأمريكية، ومن أحسن الدراسات الموثقة مؤلف ولفرز «بريطانيا وفرنسا بين حربين»^(١) ويشرح فيه المأساة في فشل القوتين الغربيتين في الاتحاد لمقاومة التوسع الألماني، وقد برهن ولفرز على أن السياسة الخارجية للديمقراطيات لا تزيد على خطب الساسة في عصبة الأمم في تصميمهم على إقرار السلام.

وحاول كلٌّ من «ولفرز» و «هرز» أن يبرزاً نقاط الوفاق بين مدارس الفكر المتناقضة في الولايات المتحدة.

وكانت الطريقة العلمية هي الأخرى تصوراً أمريكياً فريداً للسياسة العالمية، وقد استطاع «كارل دويتش» وهو الآخر من الباحثين الأوروبيين الأمريكيين أن يذلل نظرية الإعلام والسيبرناطيقا والديموجرافيا والتحليل الكمي وأن يصوغ منها جميعاً نظرة علمية متكاملة للسياسة الدولية برهنت على أهمية القوة، وعلى قدر ما بلغه الدارسون الأمريكيون من التصور العلمي للعلاقات الدولية فإن أحداً منهم لم يدن من قدرة كارل دويتش. وإن لم ينأ إطلاقاً عن مساره الأوربي.

أما الكتاب الأوروبيون الأمريكيون من هذا الجيل السالح من الشباب من أمثال «جورج ليسكا» و «ستانلي هوفمان» فقد أخذوا

Britain and France Between Two Wars.

(١)

يعدلون تلك المسارات الأولى، وإن كانوا أوّل من سلّم بتلك المؤثرات
المعيارية للكتاب الأوائل، وكان الوقت مواتياً لتقبل الواقعية عندما بدأ
كار، ومورجنتو، يكتبان، وذات ليلة أصيبت أمريكا بزعامة العالم
وما كانت تدري شيئاً عما تحتاجه تلك الزعامة من وسائل السياسة
والحرب، ولما كان هؤلاء الشباب الكتاب من أصحاب التفكير المستقل،
والتشدد في فكرة المحافظة على القوة وأنها السبيل الوحيد للزعامة فقد
حظيت آراؤهم بالقبول ولا سيما في أعقاب الحرب.

القوة هي المعيار

أ. هـ. كار

(١٨٩٢ -)

ولد إدوارد هاليت كار في الثامن والعشرين من يونيو ١٨٩٢ في شمال لندن لأب يملك مصنعاً صغيراً وكان أن عدّ كار من أبناء الطبقة الوسطى، وفي عام ١٩١١ ظفر بمنحة دراسية لكلية ترينتي بجامعة كمبردج وكان كما كان «الفريد نورث هوايتهد» و «أ. ي. هوسمان» و «جيمس فريزر» و «برتراندرسل» محدوداً في تميزه، وإن ظفر بالأولوية في الدراسات الكلاسيكية، كما ظفر بجوائز الجامعة في المقطوعات اللاتينية والشعر اللاتيني والترجمة اليونانية.

وكان من اليسير لو لم تقم الحرب العالمية الأولى أن يصبح كار أستاذاً للكلاسيكيات بجامعة كمبردج، فقد التحق بالسلك الدبلوماسي ليقضى فيه عشرين عاماً، وجاءت أحداث التاريخ لتشكل مساره الفكري لأكثر من ستين عاماً فبعد عام من عمله في وزارة الخارجية «كانت الثورة الروسية - بنص كلماته - قد حولته إليها» كما أتاحت له الظروف أن يحضر مؤتمر السلام بباريس ١٩١٩، ثم عمل مساعداً لمستشار وزارة الخارجية لشئون عصبة الأمم. وقد حاول في كتابه

«أزمات عشرين عاماً» أن يكشف الغطاء عن خبايا السياسة الدولية التي مارسها، وخلال الحرب العالمية الثانية عين مساعداً لرئيس تحرير التيمس، وكان له دوره المتزن في تعضيد حكومة العمال عام ١٩٤٥، وقد أدت الحربان ولا سيما الأولى منها إلى تقلص ثقته بقيم إنجلترا الليبرالية الراسخة وإلى سعيه وراء عالم غير عالم صباه المحافظ، ولم يسلك الطريق الذي سلكه غيره من المفكرين خلال الثلاثينيات حين أخذوا يتغزلون في اللينينية، ولكنه أخذ سبيله إلى البحث في الفكر الروسي خلال القرن التاسع عشر وإلى كتابات «فيدور دوستوفسكى» و «ميخائيل بوكاين» ثم عاد إلى الجامعة مرتين، فشغل كرسى ويلسون لأستاذية السياسة الدولية بكلية ويلز الجامعية وترك عمله في وزارة الخارجية (معلناً أنه مكث بها طويلاً) ليكون أكثر حرية في الكتابة عن الثورة الروسية، ورجع إلى كمبردج عام ١٩٥٣، وثوى طوال ربع قرن إلى دراسة تاريخ روسيا السوفيتية. ليخرج منه بأربعة عشر كتاباً صدرت في عشرة مجلدات، ولم يطلب إليه أحد أن يترك التيمس حين عاد إلى كمبردج، ولكنه تركها حين آلى على نفسه وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره أن يعكف على كتابة تاريخه لروسيا السوفيتية بما لها من جاذبية ماثلة في تفرداها بنظام دنيوى مختلف، وقدرتها على صياغة التغير الاجتماعى، وثاربه مجلس اللوردات، كصحفى له «نشاطه الخطير» وعزا إليه «سير راندلف تشرشل» مسئولية التيمس - بعيداً عن أى صلة لها بصحيفة ديلى وركر الشيوعية - في تبرير سياسة الكرملين» وقد كان وراء التيمس فى تأييد تقرير بيقرديج. والتخطيط لما بعد الحرب بما يماثل

تجربة روسيا السوفيتية، ولما كان له دور في «مدرسة ريجا» (وكان سكرتيراً ثانياً في ريجا عاصمة لاتفيا بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٩) وهي مدرسة عرفت في الولايات المتحدة بسياستها المتشددة تجاه الاتحاد السوفيتي، فاتهمه ناقدوه بأنه قاد التيمس إلى سياسة لينة (ويقول كار إن هذا النقد قد شاع عنه في آخر عهده بالتيمس حين بدأت الحرب الباردة).

إلا أن الحكم على إنتاج كار الفكري لا يصدق على حياته الصحفية والدبلوماسية كما يصدق على كتاباته في العلاقات الدولية، وعلى مؤلفه «تاريخ روسيا السوفيتية» وهو مؤلف ينم عن جهد علمي ضخم، وإن كان من العسير تقديره، ولا يبدو فيه كمؤرخ أنه يمثل اتجاهًا فكريًا مميزًا، ويراه من عرضوا له أنه كتب التاريخ المعاصر بفكر متقلب، وإن لم يكن قد مرّ عليه الوقت الكافي لينال حقه من الإنصاف العلمي. وقد راح يمجّد فيه المعالم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الهائلة للثورة الروسية دون أي محاولة منه لإبداء حكم تاريخي على ما شابها من قسوة بالغة وأوهام جدلية. وتصور مجلداته على مدى ثمان وعشرين سنة موقف بريطاني من الاتحاد السوفيتي صعودًا وهبوطًا (وقد أعلن كار أنه لو قدم مجلده الأول عام ١٩٨٠ لاختلف الوضع عما كتب عليه ليبدى اهتمامًا أقل بالتنظيمات الدستورية وإهتمامًا أوفى بالمحيط الاقتصادي والاجتماعي الذي تقيمه الحكومة السوفيتية في الوقت الحاضر)، أما وقد كتب تاريخه في الفترة من العقد الثالث إلى العقد السادس بعد الثورة فقد شابه الإبهام التاريخي وقصور الخيال ونضوب

العاطفة، وبدأ أمام ناظديه كما لو كان شديد الحذر في أحكامه الأخلاقية بينما بدأ أمام آخرين أكثر انعطافاً نحو المتغيرات الاجتماعية الجماعية، وإن شهد له الجميع بالمشابرة والجهد العلمى فى دراسة السنوات العشر الأولى للحكم السوفيتى ولأنه قد تفرد باستقلاله الفكرى فى الكشف عن الممارك التى يخوضها أصحاب القرار السوفيتى، فقد كان أكثر من أى مؤرخ آخر مثابرةً فى الكشف عن القوى الكامنة وراء حوافز قادة السوفيت.

وقد وصل كار طوال حياته بين عمله كمؤرخ وعالم سياسى وعمله كصحفى ورجل مواقف منذ بدأ كاتباً فى وزارة الخارجية عام ١٩١٦، وبعد أكثر من عقدين بعد أن أصبح مساعداً لرئيس تحرير التيمس يكتب افتتاحيات بدون توقيع عن الحاجة إلى فهم أوفى لروسيا ولدورها فى عالم ما بعد الحرب، ومع خلافه فى أغلب الأحيان مع مقتضيات سياسة بريطانيا الخارجية السائدة، فقد شارك فى لجان دراسية عديدة، وشغل مناصب دبلوماسية فى باريس وفى ريجا لاتافيا، وكان مستشاراً مساعداً لشئون عصبة الأمم، وسكرتيراً أول بوزارة الخارجية ومديراً لإدارة النشر الأجنبى بوزارة الإعلام البريطانية. وكتب الكثير عن التاريخ الفكرى والدبلوماسى فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وعن فلسفة التاريخ، ودون سير ميخائيل باكونين، والكسندر هرزن، وفيدور دستوفسكى، وجورج سوريل، وقدم دراسات نظرية عن السياسة الدولية. ثم هذا المؤلف الرائع لتاريخ روسيا السوفيتية فى ثمانية أجزاء، شبيهاً بتاريخ روما لتيودور مومسن. وأعظم ما قدمه كار فى الميدان

العلمى للدراسات الدولية هو أنه وضع الأسس التى يقوم عليها الواقع السياسى، فى كتابه «أزمات عشرين عاماً : ١٩١٩-١٩٣٩» وقد صدر عام ١٩٤٠، عندما علا نجم هتلر واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية لتطيح بالأوهام التى سادت فترة ما بين الحربين حين اجتاحتها تلك العارضة، وأخذ الساسة أمثال «ودرو ويلسون» و «وليم هوارد تافت» فى الولايات المتحدة ، و«لورد روبرت سيسل» فى بريطانيا العظمى يعبرون عنها ويشرحون بقيام علاقات دولية جديدة تحول معها صور الخراب القديمة الناجمة عن الصراعات القومية وسياسة القوة.

وبقدر ماكرّس العلماء والمفكرون أنفسهم للإصلاح، بقدر ما كرّسوا جهدهم لدراسة النظام الدولى القائم، وأعلن كار عن خشيته من أن تتردى الدراسات الدولية فى الجهل والحقائق المتبورة والأتوبيات الخيالية، فقد كان الحكم على السياسات الخارجية وفقاً لمقاييس الخير والشر، فهناك شعوب طيبة وشعوب سيئة، وجماعات دولية خيرة وجماعات قومية شريرة.

ويقول كار إنه كتب «أزمات عشرين عاماً» عامداً ليقضى على هذا الخلل الفاضح المهلك الذى شاب كل تفكير على وجه التقريب، فى كافة البلاد الناطقة بالإنجليزية منذ ١٩١٩ حتى ١٩٣٩ وعلى المستويين العلمى والعام وهو أن الأغلبية تنبذ بواعث القوة، وفى تفسير ذلك يقول كار: إن كلّ علم يمر فى بدايته بنوع من الخيال الأتوى يخضع فيه التحليل لدواعى الإثارة والتوجيه فى علوم الحياة أدت الرغبة الملحة

لرفع المستوى الصحى إلى العلوم الطبية كما أدت الحاجة إلى الطرق والجسور إلى علم الهندسة، وفى تلك المرحلة المبكرة من مراحل العلم تطفى الغاية ويشتدّ القصد، وتتضاءل دواعى التحليل وتقضى الأسباب وقد لا يكون لها وجود. وفى العلوم السياسية كانت الغاية من دراسة الحرب تحرير الكيان السياسى مما يضمنه، وبينما يبقى العالم فى معمله بعيداً عن عملية استئصال المرض، ولا يتصل ببحثه بأحاسيسه، فإن العالم السياسى لا يمكن أن يبقى بعيداً عن المطالب الاجتماعية العاجلة التى ينشدها من وراء بحثه. والواقع أن ما تنتهى إليه البحوث الاجتماعية ذاتها يغدو عاملاً حاسماً، فرجل الاقتصاد حين ينشبد، مثلاً وقاية الرأسمالية أو الماركسية والدفاع عما ينشده، مهما كان منهجه العلمى، فإن تحليله للرأسمالية يصبح كلاً لا ينفصل عن الغاية فى القضاء عليها، فالموقف الاجتماعى والمرامى الأخلاقية والسياسية لمن يرصدها لابد وأن تشكل بحثه وتؤثر فيه وتبرز المعنى والاتجاه الذى ينتهى إليه فى تحليله وتفسيره لها.

وفى المرحلة التالية، تحلّ الواقعية فى العلوم الاجتماعية والسياسية محلّ الأتوبيا فإن ما يحدث يختلف عما يجب، فالواقعية تنشد الحقيقة كما هى لتبحث عن علّتها وعواقبها، وقد تنبه ونستون تشرشل عام ١٩٣٢ إلى اتساع الهوة، عن أى يوم مضى، بين ما يقوله السياسة وما يحدث فى الواقع، واضطلع كار بالكشف عن الأتوبيا ونقدها وأدرك أن علّتها تكمن فى محاولات أنصارها نقل الفكرة الليبرالية الرشيدة لمجتمع

قومي متجانس في القرن التاسع عشر وتطبيقها على نظام دولي غير متجانس تسوده الفوضى في عالم اليوم. فما كانت عصبة الأمم وما كان غيرها من مشروعات الأمن الجماعي إلا تحويلاً لمبادئ ونظم حققت بعض النجاح في دول قومية معينة إلى مبادئ عالمية للشئون الدولية تستمدّ كيانها من الإيمان الطبيعي باتساق المصالح بين الشعوب القائم على الفكر الاقتصادي الحر للقرن التاسع عشر. دعه يعمل دعه يمر. وكان الحماس العارم لفكرة منع الحروب هو الاتجاه السائد في تلك المرحلة الأولى من مراحل الدراسات الدولية، إلا أن التنديد بالوسائل التي وضعت لها كان هو الشرارة التي أحرقتها وقضت عليها. وكان الدفاع عن «الأمن الجماعي» فيما كتبه كار «رداً على النقاد...» في عبارة فحواها، ضرورة تحقيق تلك الوسائل... أو البحث عن عقار سري آخر» إذ أن الاتساق الطبيعي بين مصالح الشعوب. وضرورته لفكرة الجماعة الدولية يقف دونه تمزق العالم بين شعوب راضية وأخرى غير راضية، شعوب تملك وأخرى لا تملك، إلى جانب تلك المساومات العنيفة حول المصالح المتضاربة، وما زالت القوة والمصلحة في يد الدول القومية المستقلة، وليست العلة في هذا التضارب فشل التفاهم بين قادة القوميات، فحسب، ولكنها علة التنازع بين الأهداف والمطامع، وإن كان من اليسير تسويتها بالتوفيق فيما بينها وبالوسائل الدبلوماسية، لا بتلك المبادئ العقلية المسبقة، فالسياسة الدولية تفتقد الموضوعية والتجرد الأخلاقي، كما تفتقد الأوضاع القانونية لتسوية المنازعات.

إلا أن كار، وإن بقي واقعياً طوال مساره الفكري، فقد قرر أن

الواقعية وحدها لا تكفى، وصرح بأن: . . . الواقعية الأصلية تستثنى أربع حالات تبدو جوهرية، لأى فكر سياسى: هدف محدد، واستجابة عاطفية، وحكم أخلاقى مستقيم، ومجال للواقع، فعلى مدى التاريخ مسّت الحاجة إلى التفكير الأتوبى كالتفكير الواقعى على السواء، وقد وجدا معاً فى علاقة جدلية، وإن كانت الحاجة إلى أى منها تشتدّ فى حقبة أو أخرى، فلما تقوّض جدار الأتوبيا فى فترة ما بين الحربين، اعترف كار بالخاصة إلى نظرة دولية جديدة للمستقبل، خنالية من الأوهام.

وأدّت به نظره لفترة ما بين الحربين إلى الإلحاح فى التغيير السلمى بين هؤلاء الملحين على إبقاء الوضع القائم أو الناقمين عليه، هذا الوضع الذى يستند إلى ما هو حق ومعقول، ويعكس التحول فى علاقات القوى الدولية، فإن على هؤلاء المتفعين الكبار من هذا الوضع القائم (كفرنسا وإنجلترا فيما بين الحربين) أن يبدلوا نوعاً من التضحية لمن هم أقل انتفاعاً، والسياسة الخارجية الناجحة هى السياسة التى تراوح بين قطبي القوة والتهدئة وتمثل تسوية ميونخ عام ١٩٣٨ هذا التغيير فى تقسيم القوى فى إطار من توازن القوى الأوربية، والحق البادى فى مبدأ تقرير المصير، وقد رأى النقاد فى هذا المبدأ العام الذى ينادى به كار ويدعو إلى إقامة صلة بين القوة والأخلاق مبدأً مقبولاً فى ذاته، ولكن تطبيقه على تسوية ميونخ يسفر عن تسليمه «لطبيعة القوة» والواقع أن كار قد وقع فريسةً لهذا التصوّر النسبى للأخلاق، لاعتقاده أن القيم

وليدة القوة وأن الشعوب تتوافق معها.

ويتابع كار مؤلفه العلمى الكبير «أزمات عشرين عاماً» ببحث أوفى فى تحليل الأزمات الدولية : «أوضاع السلام» (١٩٤٢)، فينبّه من جديد إلى أن الديمقراطيات تواجه الأزمات العالمية، بعقلية القرن التاسع عشر ونظمه، وكان البحث تحت الطبع عندما أدى الهجوم على «بيرل هاربر» إلى دخول الولايات المتحدة الحرب، وكانت ألمانيا واليابان فى أوج قوّتهما عندما انتهى من أصول البحث، فأضاف إليه أثناء طبعه تذييلاً يعتذر فيه عما انتهى إليه جهده الطبيعى فى النتائج التى خرج بها، عندما وصل من بحثه إلى أن روسيا السوفيتية وألمانيا النازية تمسكان بخيوط المستقبل عندما تمكنا فى الواقع من القضاء على البطالة بتخطيط اقتصادى محكم، فقد أجمعت القوى الكبرى المتميزة، باستثناء الولايات المتحدة على إكبار الماضى، بينما قللت من حسنات الطريقة الجماعية فى علاج المشكلات الاقتصادية، ومن ثم أخذت تضى بهوم الأمن والتميز، والتشبث برأسمالية «دعه يعمل» ومبدأ تقرير المصير، فى حين أن الألمان والروس يعملون للتوسع وبناء وحدات أكبر بخطة مركزة ودقة بالغة، وبدأ هتلر وقد نعته كار بأنه نابليون القرن العشرين، فى إنجاز هذا العمل الذى بدأه ماركس ولينين، بالقضاء على رأسمالية القرن التاسع عشر، وقد تكهن كار، بأن القضاء على هتلر، لن يؤدى إلى عودة ألمانيا إلى رأسمالية القرن التاسع عشر كما أن سقوط نابليون لم يؤدّ إلى عودة نظام الإقطاع وقد مهد المثاليون فى الشعوب الناطقة بالإنجليزية للكارثة عندما تصدّوا «للقوف أمام الثورة العالمية الجديدة التى بدأت

تسفر عن نفسها باقتحام النظام الروسى السائد فى الثورة البولشفية عام
« ١٩١٧ »

وعندما أدت تسوية السلام عام ١٩١٩ إلى زيادة عدد الدول
الصغيرة المتصارعة وفقاً لحق تقرير المصير، وأغفلت الأوضاع الاقتصادية
المتهاوية فى وسط وشرق أوروبا، فإن الحلفاء المنتصرين، قد أغفلوا فى
الواقع حقيقة السلام وأضاعوه، هذا إلى جانب ما أثير حول معاهدة
فرساي من جدل عما إذا كانت إجراءً انتقامياً أم غير انتقامى. وقد
ظفر الاتحاد السوفيتى وألمانيا النازية بالسلام لأن قادتهما أدركوا روح
الثورة العالمية، وقاموا بتلك الخطة الهائلة للإنعاش بتخطيط اقتصادى
محكم، بينما وقف المنتصرون عاجزين يتفرجون، أسارى تفكير القرن
التاسع عشر، وبقيت الأحزاب السياسية فى الديمقراطيات تمثل مصالح قوية
ثابتة، بينما بقيت الكثرة فى هرجلتها عاجزة أمام القوى الاقتصادية
القادرة المنظمة. وليس للديمقراطية بقاء ما لم تبدأ صياغة جديدة
وتفسيراً جديداً لحقوق الكثرة أو تنشُد غاية أخلاقية عامة قوية تحمل
الأقوياء على التضحية لصالح الضعفاء، وقد عثرت الشيوعية، كما كانت
المسيحية من قبل، على ميدانها وحددت هدفها فى غاية مثلى ولا بد أن
يؤدى هذا التعاون بين شعوب الغرب وروسيا السوفيتية فى الحرب إلى
حلّ المتناقضات، حلاً عارضاً أكثر منه جوهرياً بين المثل الدنيوية
للمسيحية والمثل الشيوعية، وأمل كار أن تفيد الديمقراطيات من المثل
الأخلاقية فى الشيوعية ومما حققته من نجاح اقتصادى.

ويعرض كار في كتابه « القومية وما بعدها »^(١) (١٩٤٥) لتلك التغيرات البعيدة التي طرأت على القومية من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وخاصةً ما كان من تغير في المشاركة السياسية بين الشعوب لتشمل مجاميع اجتماعية جديدة، إلى جانب التآلف البارز بين القوى الاقتصادية والسياسية، وبداية نوع من التكاثف في عدد الدول القومية التي تدين بمبدأ الحرب بلغ أخيراً أربعة أضعاف عددها الأول، وحذر من فساد القومية الذي أفرزته مذبحة حريين متتاليتين، وما يبدو في المستقبل من إهمال للدولة القومية التي تعجز بنفسها عن حماية نفسها عسكرياً كما تعجز عن تحقيق مستوى لائق من المعيشة لمواطنيها. وكان لا بدّ من نظام دولي جديد يسمو على تلك النتائج المتفشية لحق القوميات في تقرير المصير وإن كان من العسير أن يقوم وفقاً لنظام دستوي مقرر، بل يقوم على نوع من المقاصد الجديدة، أو يسعى مشترك من قبيل المسعى العالمي لتحقيق العدالة الاجتماعية، وهي ما يعنيها كار بتكافؤ الفرص. والتحرر من العوز، والقضاء على البطالة، وإن كان يسلم باستحالة التعاون العالمي، إلا أنه يرى أن أقوم السبل لتحقيق تلك المرامي يتمثل في قيام تجمعات إقليمية متعدّدة الجنسية، وتخطيط مشترك للعمالة الكاملة أو تقديم العون للمناطق النامية، وفي هذه المرحلة الجديدة من مراحل القومية، يرى كار أن التعاون الأوربي الذي تشارك فيه بريطانيا لتحقيق العدالة الاجتماعية قد يؤدّي إلى بديل للدولة الاحتكارية في الفكر السوفيتي، وللتعاون غير

Nationalism and after.

المقيد في الفكر الأمريكي.

وفي كتابه «التأثير السوفيتي في العالم الغربي»^(١) (١٩٤٧) وكتابته «تاريخ روسيا السوفيتية»^(٢) يقوم بدراسة صريحة للتحدي السوفيتي للغرب، وفي السيرة التي كتبها لكارل ماركس، يصف دراسته تلك بأنها «الدراسة الرائدة التي لم يسبقه إليها أحد في ثورة الفكر الأوربي في القرن العشرين كما يقرر في كتابه» «التأثير السوفيتي في العالم الغربي.. اتصال الفروض الماركسية، فيقول: «إن الديمقراطية الأمريكية ومبادئ ودرو ويلسون قد احتلت ساحة التبشير في الحرب العالمية الأولى، حتى كانت الحرب الثانية فغلبت عليها الديمقراطية السوفيتية وصورة المارشال ستالين» وأدت الديمقراطية السوفيتية إلى نمو الديمقراطية الغربية وتفوقها كما كان تماماً حين أدت ديكتاتورية كرومويل واليعاقبة إلى ظهور الديمقراطية السياسية، وأدت ديكتاتورية نيكولاى لينين وجوزيف ستالين السوفيتية إلى ظهور الديمقراطية الاجتماعية، وكان أول مابدا من تأثير الديمقراطية السوفيتية في الغرب الاهتمام «بالإنسان العادي» وهو نوع من التحدي «من الواجب على ديمقراطى الغرب أن يتدبروا أمره» كما أدت إنجازات الاقتصاد السوفيتي الموجه إلى تمهيد الأرض لنظريات «كينز» في الاقتصاد الغربى. وفي السياسة الخارجية سلم السوفيت صراحةً بمبدأ القوة كعامل حاسم فحرروا سياسة عصبة الأمم من الإبهام الفكرى، وبرعوا في الدعاية لسياستهم الخارجية.

The soviet Impact on the Western World.

(١)

A History of Soviet Russia

(٢)

وتطرق كار إلى جوانب أخرى لتأثير التحدى السوفيتى فيقول : « إن ما تهم به الثورة الماركسية... أنها تثير الجدل حول السلطة الأخلاقية لمثاليات ومبادئ الديمقراطية الغربية حين تعلن أنها صورة للتميز الطبقي » وقد أفلت شمس الفردية بعد أربعة قرون ظلت تطلّ فيها من عام ١٥٠٠ إلى ١٩٠٠، ولم تعد أكثر من واحة للانتقال من احتكار الكنيسة والإمبراطورية للسلطة في العصور الوسطى إلى النظام الجماعى في العصر الحديث، وقد انتهت حربان عالميتان، وثورات تجتاح العالم، وتوتر اجتماعى واقتصادى بعيد المدى إلى تغيير المناخ الأخلاقى، وجزمت بأن « الجميع إن لم يكونوا عمياناً أو معلولين يدركون أن الفردية قد فقدت كل قواها وقدرتها على التوافق مع عالم العصر » لذلك كانت طبيعة التهديد السوفيتى الكاسح أخلاقية أكثر منها عسكرية، « والأمن قائم وسبق » العامل البارز فى السياسة السوفيتية تجاه أوربا، « وليس فى التقاليد الروسية ما يؤدى إلى اتخاذ إجراء عسكري تجاه أوربا فيما وراء الكتلة الشرقية » وهى سياسة غدت بالنسبة للاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر كما كان مبدأ مونرو بالنسبة للولايات المتحدة، وكما كانت البلاد المنخفضة لبريطانيا، والرين لفرنسا » والتهديد المائل والمحتمل هو تطرق الفكر من الكتلة الشرقية وتغلغه فى الغرب : أما الخطر الذى يناوش العالم الناطق بالإنجليزية، فإنه كامن فى جموده واعتزازه بأمجاد ماضيه. أكثر من اهتمامه بالبحث عن « أنماط جديدة للعمل الاجتماعى والاقتصادى يأخذ فيها بما هو صالح من التقاليد الفردية والديمقراطية التى تتوافق مع مشكلات حضارة جماهيرية ».

ويبقى هذا السؤال : ما الذى يبقى من أعمال كار جديراً بالخلود ؟
وقبل أن نجيب علينا أن نضع المعيار الدقيق للإجابة، فعندما
تقوّض الإيمان الأتوى بالتوافق الطبيعى بين مصالح الدول، كان كار
من الرواد الذين أقاموا بناء السياسة الدولية على أساس من الواقع
السياسى. ولجأ إلى المنهج العقلى للمعرفة فى علم الاجتماع ليقم الدليل
على الصلة بين القيم والمثل القومية، والمصالح وقوة الدولة. وبقيت أدلته
قوية ثابتة فمن اليسير أن تحل المنازعات الدولية عن طريق المساومة،
وإن كانت عسيرة عندما تسلم بتناقض المصالح القومية أكثر مما تحل عن
طريق الإجراءات الدولية الشبيهة بإجراءات المحاكم الوطنية أو القضايا
القانونية (وتشبيه كار للمفاوضات بين القوى الكبرى بالمساومات العامة
من حيث الجهد والمثابرة مما يحتاج إلى مناقشة إذا ما أغفلنا التوافق
الأخلاقي فى العلاقات الدولية) إلا أن الخطأ الأكبر الذى تردى فيه كان
فى تقديراته الجدلية التى تجاوزت الحدود أكثر مما كانت مخالفة للواقع
وإن بقى تحليله النقدي لحدود الفكر السياسى الغربى محل الاعتبار، كما
كان تاريخه للثورة البولشفية تفسيراً لأعمال القادة السوفيت واتجاهاتهم
وشرحاً لأصول السياسة السوفيتية.

ومع ذلك يبقى السؤال التالى : كيف استطاع كار أن يمضى فى
ضلاله المفجع بتلك الآراء التى ساقها فيما بين الحربين وما بعدهما،
عندما عدّ « نيفل تشمبرلن مثلاً للواقع الأخلاقى فى تسوية ميونخ
والقياس الذى يجتذى فى أى اتفاق سياسى يقوم على المبدأ وعلى القوة

معاً، واتخذ من هتلر وموسوليني قادة لثورة ضد الديمقراطية الليبرالية كما كان مصطفى كمال، وجوزيف بلسودسكى، وأنطونيو سالازار، ولم يأت أن يقيم نوعاً من التمايز الأخلاقي بين ويلسون وستالين أو بين الديمقراطية الأمريكية وما دعاه «الديمقراطية السوفيتية» واستطاع أن يكتب «ليس... ثمة تناقض جوهري بين الديمقراطية والديكتاتورية» ولم تكن تلك الأحكام الضالة شيئاً عارضاً وإنما كانت نقطة الضعف الأساسية في كل ما كان من فلسفته السياسية.

وهناك تفسيرات أربعة لهذا القصور في فلسفة كار، ولكل منها أصوله في رؤيته الفلسفية المتهاففة : أولها : أن تمثله للماركسية قد ساقه إلى الاتجاه الذى سار فيه كل من جورج هيغل، وكارل ماركس في التنقيب عن القيم من داخل مجرى التاريخ دون خارجه (وأشار مرة إلى أنه أكثر ماركسية من هؤلاء الماركسيين الجامدين الذين يغفلون نقدها، والذين لا يثيرون أى سؤال حول فكرتها) كما أنه يفتقر إلى النظرة الأولى الموضوعية في حكمه على الأخلاق العملية. وثانيها : ويتصل بالتفسير الأول، إنه كثيراً ما كرر أن الأخلاق العالية هي والقوة العليا يتساويان معاً، ولم يعد التبرير الأخلاقي لديه قائماً على الموازنة بين الخير والشر، أو سعياً وراء الخير، ولكنه كان وسيلة «للهرب من مغبة المنطق الواقعي» وبسبب هذا التهافت الفكرى تساءل نقاده عما إذا كان يفتقد الإدراك الكافى لطبيعة الأخلاق. والثالث، «أن كار وقد ظلّ يستوحى رينولد نيبور في العديد من الآراء لم يجد ما يقوله عن الأخلاق

التلقائية غير القليل ولم يقدم غير القليل من الأحكام الفطرية للحركات السياسية المتنافسة. (وقد كتب نيبور، على النقيض من كار، في بواكير الأربعينيات أن الناس إذا كانوا عاجزين عن تبين التفاوت الأخلاقي بين الديمقراطية والنازية، فإن أى تقييم للأخلاق حينئذ يبدو مستحيلاً في الواقع). والتفسير الرابع: أن كار وإن راح يؤكد حاجة السياسة إلى معيار من الحكم، فإنه لم يقدم رأياً قميناً بالاعتبار يمكن أن يكون سنداً لظاهرة القوة. فعلى أى شيء يقوم التاريخ؟ لقد راح يسعى نحو فلسفة للتاريخ يجد فيها سنداً لنظرته تلك، ولكنه يرى في النهاية إلا وسيلة للعثور على معيار موضوعي خارج التاريخ، وكان أقرب ما لديه أن يقرر:

«أن المطلق في التاريخ ليس مما نعثر عليه في ماضينا، ولا مما نعثر عليه في الحاضر طالما كان كل تفكير حاضر نسبياً لم يكتمل بعد وما زال.. ماضياً على الطريق، قابلاً في ضمير المستقبل الذي نمضى إليه، وكلما مضينا إليه تبلور وبدأت صورته، وعلى هداها نسير وكلما مضى بنا الزمن قدماً، كلما استطعنا أن نصل إلى تفسير للماضي».

فإذا كان هذا ما يعنيه كار، وأنه أكمل صورة لقياس موضوعي، فقد كان عليه أن يفصح عما إذا كان يعنى أن التاريخ وحده هو القاعدة لتفسير التاريخ، وعلى ذلك فإن ما يبقى ولا يزول هو في الواقع خير. وهذا موضوع قديم كان محكماً لقدامى المؤرخين، وظلوا قاصرين عنه وبقي قائماً دون بيان، ويحسم أحد نقاد كار الأمر بقوله: «من

أخطر الأمور أن تكون مكيافيلياً، ولكن الكارثة أن تكون مكيافيلياً دون استعداد أو بغير هبة».

ويعقب كار بأن هناك أخلاقيات مطلقة لا مِثْن فيها : كالحرية والمساواة، والعدالة والديمقراطية، لها أبعادها الفكرية العريضة، وغالباً ما تبدو مجردة من أى معنى، ويتعذر تطبيقها ما لم تتضمن مفهوماً معيناً. ولا تعدو كونها أوراقاً بيضاء لا قيمة لها ما لم تحدد مدى الحرية ومن ينتفعون بها. أو تبين من هم الناس الذين يتساوون معاً، وقد جاءت الحرب العالمية الأولى لتودى بكل ما صاغه القرن التاسع عشر من معانيها، وبعد هذه الحرب التى سفرت عن إفلاس الليبرالية، يقرر كار ألاّ محيص من الاختيار بين أمرين: الاشتراكية أو المحافظة، واختار الاشتراكية، لأنه يميل أولاً إلى اليسار ولأن الاشتراكية كما يراها هى البشير بالتغيير، وتصدى بكلّ حماس لكلّ من يرى فى التغيير نذيراً بالخطر ومصدراً للشك والأسى والخوف.

وأعلن وهو فى الثامنة والستين من عمره أن :

«عندما حذرنى سير لويس نامير من هذه البرامج والمثاليات»

«وأخبرنى الأستاذ أوكيشوت بأننا نمضى إلى غير غاية، وطلب»

«إلى الأستاذ بوبر أن أبقى على سيارتى القديمة بقليل من»

«الإصلاح، وصرخ الأستاذ تريفور روبر فى أذنى بالراديكالية»

« كان عليّ أن أتقى عالماً يمجج بالصخب، وآخر يضنيه العناء »

« وأن أردّد في إجابتي كلمات هذا العالم الكبير المنمقة »

« ولكنها مع ذلك تدور^(١) .. »

(١) يشير إلى كلمات جاليليو عند محاكمته حين طلب إليه أن ينكر ما أعلنه عن دوران الأرض وإلاّ نفذ فيه حكم الإعدام حرقاً، فأنكر علناً أنها تدور، ولكنه تّمّ قائلًا: ولكنها رغم ذلك تدور.. (المترجم)

أصول الواقعية السياسية

هانز ج. مور جنتو

(١٩٠٤ -)

ولد هاتر ج. مورجنتو في كوبرج وهي مدينة صغيرة وسط ألمانيا، وهي الآن جزء من شمال بافاريا، وكان حاكم الدوقية حفيداً للملكة فكتوريا عرف بحماسة البارز للقومية الألمانية، ثم كان من مؤيدي نزع هتler ضد السامية.

وشهد مور جنتو الحرب العالمية الأولى وكان تلميذاً صغيراً ورأى اندحار الجيش الألماني العتيد، وفرار رجال الحكم الإمبراطوري، وقيام جمهورية فيمار العاجزة على أكتاف البرجوازية والطبقة العاملة.

ولما لم يقع احتلال لأراضي ألمانية بعد انتهاء الحرب، فقد ادعى خصوم فيمار أن ألمانيا قد «طعنت من الخلف» فكانت هزيمتها، وزعم حكامها الأوائل في البداية (من أصحاب النفوذ الكبير في المجتمع كآل كوبورج) ثم النازي في النهاية أن ألمانيا لم تخسر الحرب في واقع الأمر، ولكن الخونة من الشيوعيين واليهود والكاثوليك والليبراليين، والجماعات الماسونية والنقابية هم الذين دمروا بنيانها من الداخل، واتخذ الحزب النازي منذ قيامه عام ١٩١٩ من هذه الأسطورة أداة لدعاية مؤثرة.

أما مور جنتو فقد تعلم من تلك الحقبة التي عاشتها جمهورية فيمار أهمية القوة السياسية وانعكاسها على تيار العنف السائد وهي تتحرك بسرعة بالغة كما تسفر عن الضلال السياسي، وكان الألمان في حاجة إلى من يحملونه أخطاءهم عن الهزيمة والتضخم المتفشى، فنسبوا ذلك إلى اليهود، وتذكر مور جنتو أمه (وكان يعزّها إعزازاً بالغاً) وقد ذهبت إلى السوق بسلة مليئة بأوراق النقد، وتذكر أباه الطبيب، وهو يتقبل الزبد والبيض والدجاج أو الأقمشة أجراً بدلاً من النقد الذي لم يعد له قيمة ما. وأدرك في هذا الوقت المبكر حاجة الحكومة إلى القدرة على الحكم، ومنها القدرة على تحقيق الاستقرار الاقتصادي.

وعانى مور جنتو في طفولته من الإحساس بالوحدة القاتلة ومن المرض الذي يعاوده كثيراً وزادها شدة ما مرّ بأسرته من ملهات، فقد كان أبوه طاغيةً مستبدًا، ولكن أمه كانت على قدر كبير من الحنان والذكاء، ولم يشجع ولده على الالتحاق بجامعة برلين الكبرى، قائلاً: «إنك فاقد الوعي، لن تستطيع أن تخطو إليها، اختر لك مكاناً أقلّ» وأورثه سلوك الأب نوعاً من مركب النقص، فعاش طوال حياته يخاف ألا يلقى قبولاً مع نوع من الحياء لا يستطيع أن يخفيه، وقد أدرك طلابه أنه ما من أستاذ كان أشدّ حذباً عليهم واهتماماً بمستقبلهم منه، وإن لم يروا على النقيض قريناً له في تحفظه، وقلة مبالاته، وعزلته.

وكان التزام مورجنتو بإقامة وطن لليهود، وإصراره في كتاباته الأخيرة على صيانة أمن إسرائيل، مما يرجع إلى أيام نشأته الأولى، فلم

ينس تلك البصقة التي نالته في مسيرة كشفية للألمان مع كشافة أمريكيين، وكيف نبذه فصله في آخر سني دراسته بالمدرسة الثانوية ورفضوا زمالته، ولم ينس ما ناله من هزؤ وسخرية وكان الأول على مجموعته، وهو يتحدث في الاحتفال بتتويج دوق كوبرج، ففي ذلك اليوم وهو يسير في طريقه إلى الحفل، أخذ الناس يلوحون له بقبضاتهم ويصيحون ساخرين به مع مزيد من الإزدراء والإهانات للسامية، وحين ظهر في العرض سدّ الدوق وغيره من النبلاء أنوفهم إشارة إلى رائحة اليهود النتنة، وكان هذا اليوم بالنسبة للصبي الصغير أسوأ أيامه.

وبدأ مورجنثو دراساته العليا عام ١٩٢٣ بجامعة فرنكفورت، وبقي بها بعض الوقت قبل أن يتحول إلى جامعة ميونخ، وكان أساتذته في كلا الجامعتين من ذوى العلم المعدودين وإن لم تكن لهم مكانة دولية، وقد غلبت الفلسفة والآداب على مرحلته الدراسية الأولى (ولم ينل اهتمامه بالآداب رضا أبيه، وكان ذلك نذيراً بتحوّله إلى ميدان التاريخ الجاهل، وهو التحوّل الذي ظلّ يسيطر عليه طوال حياته) وكان كل أمله أن يصبح كاتباً، أو أستاذاً، أو يكون شاعراً، فيكتب عام ١٩٢٣، وكان في نهاية دراسته الثانوية: «إن ما أنشده لمستقبلي أن أزيح هذا العناء الذي يلم بى من ضغط المحيط الاجتماعى، وأن أجد طريقاً وغايةً لعملى فى المستقبل، ولن يتحقق الطريق والغاية ما لم ينزاح هذا الضغط الاجتماعى للبيئة من حولى». وفى هذا المقال يتبين أن علاقته بمحيطه تخضع لثلاث حقائق بارزة؛ إنه ألماني، وإنه يهودى،

وإنه يدرك عواقب الحرب العالمية الأولى، ولم يرض أن يلعب دور الشهيد المعذب، ولتصدى للحملة ضد السامية التي مزقت كل قيم الأخلاق، ومهما كان الضغط الخارجى، «فلن يزيدنى ذلك إلا عنفاً من جانبى ردّاً على ذلك». وقد رأى نفسه ملزماً بالاختيار بين طريقين: إما أن يسعى إلى الثراء وتكديس الثروة، وإما أن يسعى لتحقيق غاية مثلى. وعليه أن يقرر لنفسه ما يريد، وقد رجع فى ذلك إلى عبارة وردت فى سيرة جوهان فون جيتى الذاتية عن «الشعر والحقيقة» يقول فيها: «إن ماننشده كامن فى قدراتنا القابعة بين جوانحنا.. فنحن نتطلع إلى ما نملكه فى سكون.. فإذا كان مسلكنا يند تماماً عما فى طبيعتنا فإن أى خطوة نمضى فيها تحقق بعض ماننشده».

ولم تكن قراءاته الفلسفية الأولى، فيما عدا بندتوكروتشى تغذيه بنوع من الأمل، فقد خاب أمل هذا الناشئ الصغير فى هذا التناقض البين فى فلسفة المعرفة فيما تحتويه الكتابات الفلسفية من تفرقة فى أحكامها بين فرد وآخر، فنزح إلى جامعة ميونخ لدراسة القانون، وتأثر فيها باثنين من أعلامها البارزين: أولهما: «هنريتش ولففلن» أستاذ تاريخ الفن وصاحب مدرسة فى فلسفة الأخلاق، والثانى «هرمان أونكن» مؤرخ للدبلوماسية درس العلاقة بين التاريخ والشخصيات، وحاضر عن بسمارك وسياسة القرن التاسع عشر الخارجية والعسكرية.

وفى شذرات عرض فيها لحياته الفكرية: ١٩٠٤-١٩٣٢، يكتب مورجنتو: «لأول مرة أحس بتأثير التماسك الفكرى، أولاً فى هذا

الصفاء الذى تتسم به سياسة بسمارك الواقعية، فكانت.. (عونا) لى على أحكامى الانفعالية البعيدة عما تقوم عليه سياسة العصر الخارجية». وفى ميونخ يحمله الأستاذ «كارل روثنيوخر» على قراءة فلسفة «ماكس فيبر» السياسية والاجتماعية، ويكتب عنه بعد ذلك : «كان فيبر ككل ما يزعم له زملاءه أن يكون، ولكنهم لم يكونوا (كمواطنين) ممن يهيمنون بالمرح السياسى، وكانوا يرونه عبثاً لا يشاركون فيه كطلاب علم.. (معتبرين) السياسة خاوية من العاطفة (أو) غاية سياسية يمكن أن يعيها أى مفكر» وإن كان فيبر قد أصبح بالنسبة لمورجنتو مثلاً للعالم السياسى.

وهناك مدرستان فكريتان كان لهما تأثيرهما السلبي البالغ على مورجنتو: الماركسية والتحليل النفسى، وقد جذبت الماركسية الشباب الناشئ من المفكرين كأداة سريعة للقضاء على مجتمع ما بعد الحرب الجائر وإقامة بناء جديد يقوم على العدل والإنصاف، وكان مركزها الأساسى فى ألمانيا معهد البحوث الاجتماعية بجامعة فرنكفورت. وإن كان مورجنتو لا يدين بالكثير لعلم الاجتماع الماركسى، ألا أنه نفر منه تماماً عندما تبناه العدو النازى وأخذ جانب الماركسية فى إلحاحها فيه ومكابرتها فى ابتداع المعانى والفقرات والجمل فى أكثر ما تعرض له من بحوث، وعندما أصاح مورجنتو السمع إلى نداء «كارل مانهايم» ضد النازية، داعياً إلى «تحرير المواهب» وأدرك ما تنطوى عليه الماركسية، أبدى رأيه لمتبناه بلغته الفرنسية قائلاً : «أما أنا، فلست ماركسياً». أما من ناحية التحليل النفسى، فلم يكن لديه شك فى أن سيجموند

فرويد، مثله كمثّل كارل ماركس قد فتح نافذةً جديدةً للفكر الإنساني، وقد حاول مورجنتو أن يقيم منهاجاً نظرياً للسياسة على أساس من تصوّر فرويد ومفهومه، ولكنه نبذ المحاولة ولم يحاول أن ينشر ما وصل إليه بحثه فيها «فإن فشل التحليل النفسي في النظرية السياسية كفشل الماركسية فيها تماماً، يكمن في عجزهما عن تقدير متناقضات الواقع السياسي، بهذه البساطة من المعادلة النظرية الاقتصادية كانت أو نفسية.

وتابع مورجنتو دراساته العليا بمعهد الدراسات الدولية العالي في جنيف، ودخل السلك القضائي وعمل رئيساً لمحكمة العمال في فرنكفورت، وقام بتدريس القانون العام بجامعة جنيف، فيما بين عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٥، ولم يعد إلى ألمانيا بعد ظهور هتلر عام ١٩٣٣، واشتغل بالتدريس في مدريد عام ١٩٣٥-١٩٣٦، نزح بعدها إلى الولايات المتحدة، حيث لا معين ولا صديق، ولكنه مع المثابرة والنشاط استطاع أن يعين على التوالى في الكليات التالية: كلية بروكلين (١٩٣٧-١٩٣٩)، جامعة مدينة كنساس (١٩٣٩-١٩٤٣)، جامعة شيكاغو (١٩٤٣-١٩٧١)، كلية مدينة نيويورك (١٩٦٨-١٩٧٥) وأخيراً مدرسة البحوث الاجتماعية في نيويورك (١٩٧٥-).

أما اتجاه مورجنتو إلى دراسة السياسة الدولية وما تركه من أثر على صفحتها فيستمد قوامه من اهتمامه بالفلسفة والسياسة معاً، وكان أوّل عمل له في هذا الميدان مؤلفه الكبير: «رجل العلم في مواجهة القوى السياسية»^(١) (١٩٤٦)، ويمتاز بأصالته وعنفه في الحملة على اتجاهات

الفكر الغربى الحديث الاجتماعى والسياسية وفلسفته الاخلاقية وآثارها على الحياة السياسية، وأتخذ من انحلال الإمبراطورية الرومانية معالم يستهدىها تفسير أزمات النصف الأول من القرن العشرين، وانحلال الفكر السياسى فيما يبدو: «من إيمان بقدرة العلم على حلّ كافّة العقبات وبالذات العقبات السياسية» فبالرغم مما يسود من تطيره من المستقبل ومن فشل الليبرالية، فإنه بتأثير رينولد نيبور، يدعو إلى استعادة الإيمان «بقدرة الإنسان وخلالة العقلية والأخلاقية، فهى وحدها القادرة على حلّ مشكلات العالم الاجتماعية»، كما يحمل فى دراسته هذه على الإتجاه العلمى فى تناول السياسة، هذا الإتجاه الذى ساد الولايات المتحدة، منذ نشر «تشارلس ي. مريام» كتابه «صور سياسية جديدة»^(١) (١٩٢٤)، وعندما قرأ الأستاذ «ليونارد هوايت» وكان ظهيرا لمريام، وفى الوقت نفسه رئيسا لمورجنتو فى جامعة شيكاغو، «رجل العلم فى مواجهة القوى السياسية» كلفه بتدريس القانون الإدارى عسى أن يردّه إلى الطريق السوى، وفى شيكاغو تصدّى مورجنتو للتيار الفكرى السائد فى العلوم السياسية فى معاداته للفلسفة (وكان الإتجاه الذى يسيطر على هذا القسم فى جامعة شيكاغو هو الإتجاه إلى دراسة الإدارة العامة والقانون الدولى)، ولم يلق مورجنتو العون والتأييد إلا من قيادات الجامعة العليا وبالذات من جانب «روبرت م. هتشنز» ومن بعض زملائه الصغار، وعلى أوسع مدى من جانب تلاميذه، وكانوا يغشون محاضراته وهم فى ريبة منه، ولا يبرحونها إلا وقد حملوا له كل التقدير والإجلال، وقد

رأى فيه دعاة الخبرة العملية والسلوكيون خطراً يهدد ما لقيته أبحاثهم من تقدير سخى، إلى جانب المتحاملين على هتشنز رئيس الجامعة، ووقفوا جميعاً يتصدّون لزعته نحو الفلسفة ويقاومونها.

وعندما نشر كتابه «السياسة بين الشعوب»^(١) وبعد كتاب العصر، كانت الحملة عليه تجديدًا للحملة على تعريفه للسياسة، ويشرح العنوان الفرعى للكتاب غايته منه، وهو بحث هذا «الصراع الذى يدور من أجل القوّة ومن أجل السلام، فيكتب: «ومهما تكن غاية ما ترمى إليه السياسة الدولية، فالقوّة هى دائماً الغاية العاجلة، فالصراع من أجل القوّة صراع عالمى من حيث الزمان والمكان، وحقيقة لا يمكن إنكارها فى الواقع العملى، ومن العسير فى يومنا هذا أن نتخيل ما يثيره هذا المغزى من الفزع والقلق. وكانت السياسة حينذاك موضوعاً للجدل والحوار فى جامعة شيكاغو، خلاصته ما يمكن أن يترتب على قيام حكومة عالمية وإدارة عامة من استئصال شأفة الشر حتى يتسنى للشعوب أن تعيش فى عالم متحضر، وقد حمل أصحاب النظريات السياسية من الأمريكيين على مورجنتو، واتهموه بأنه «يتناول الأمور على الطريقة الألمانية» أما الساسة العمليون ممن تقوم شعبيتهم على تعريضهم للغايات الأقل مغبة بدلاً للقوّة، فسرعان ما فصموا كلّ علاقة، على الأقل فى الظاهر، تربطهم بما ذهب إليه فى تعريف السياسة.

ومن دواعى السخرية، أن النقاد أغفلوا ما دعا إليه مورجنتو منذ

وقت مبكر للحدّ من استخدام القوّة، وألاّ تستخدم إلّا في أوضاعها الصحيحة، كما أغضوا عن صلتها الوثيقة بالاتجاهات القومية، والإلحاح في المصالح القومية، وتناسوا تحليله المسهب للأخلاق الدولية والدور الذى يلعبه القانون وفلسفة الأخلاق، وأنه كتب: «بداية من الإنجيل إلى فلسفة الأخلاق، حتى تلك القواعد الدستورية للديمقراطية الحديثة، فإن ما تهتديه تلك الوسائل المعيارية هو أن تبقى سعيّ القوّة في حدود الطاقة الاجتماعية، وفي بحثه الشامل لسياسة أمريكا الخارجية، في كتابه «دفاعاً عن المصلحة القومية»^(١) (١٩٥١) يبرز الخطأ في اعتبار المبادئ الأخلاقية والمصالح القومية ضدّان لا يتواءمان، وظلّ على إصراره بأن: «الاختيار ليس اختياراً بين مبادئ الأخلاق والمصالح القومية مجردة من الكبرياء الأخلاقي، ولكنه اختيار بين مجموعة من المبادئ الأخلاقية لا تتفق مع الواقع السياسى، ومجموعة أخرى من القيم الأخلاقية تنتمى إلى الواقع السياسى» وأخذ يدعو الأمريكيين إلى العودة مرةً أخرى إلى تعاليم الآباء في إدارة الحكم وفي الأخلاق السياسية التى قادت خطاهم، وبقيت، وإن كانت بصورة مبهمّة خلال تلك السنوات الأولى من قيام الجمهورية.

ومع كتاباته المتكاثرة عن سياسة أمريكا الخارجية،بقى يختبر ويفحص، ويطبّق مبادئه الأساسية عن القوّة والمصلحة و الأخلاق، ففي كتابه «مرمى السياسة الأمريكية»^(٢) (١٩٦٠) يكتب: «وحتى تكون

In Defence of the National Interest.

(١)

The Purpose of american Politics.

(٢)

جديرة بالتأييد الذى لا يتغير، فإن على الشعب أن يتابع مراميه العليا السامية لتكون زاداً يومياً لكل ما تقوم به فى سياستها الخارجية». ومن الواجب تطبيق هذه المبادئ الأخلاقية فى المحيط الدولى على أساس من الواقعية والفطنة. والنظرة الواعية لكل ما يترتب عليها من تبعات سياسية، وعلى القوى العسكرية والاقتصادية ألا تكون عوناً على تشتت الوفود العالمية الساعية لخير الإنسانية، وأن تكون أداة لكبح حتمية المصالح القومية فحسب، ونحذر من أن يكون الخوف من الشيوعية ذا أثر على السياسة الخارجية، وأكد أن العجز عن تصنيف غير الشيوعيين لا يؤدى إلى وضع سياسات مؤثرة، وحين كتب عن مشكلات معينة فى السياسة الخارجية ومنها ما كتبه عن: «فيتنام والولايات المتحدة»^(١) (١٩٦٥) و«سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة»^(٢) (١٩٦٩) و«الحقيقة والقوة»^(٣) (١٩٧٠)، حمل على تلك النزعة الصليبية التى تسود السياسة الخارجية القائمة على التجريدات الأخلاقية وتطبيقها على آسيا وعلى بلدان العالم الثالث وإن كانت قد حققت بعض النجاح فى أوروبا.

وفى منتصف الستينيات أصبح الناقد الأمريكى الأول لحرب فيتنام، وأعلن الأسس التى يقوم عليها نقده فى كتابه «السياسة بين الشعوب»: فليس لأى بلد أن يضع نفسه فى موقف لا يستطيع التراجع عنه دون

Vietnam and the united States.

(١)

A new Foreign Policy for the United States.

(٢)

Truth and Power.

(٣)

أن يفقد ماء وجهه، والتي لا يستطيع أن يمضي فيها دون خسائر متوقعة، واشترك في حوار عام مع بعض المسئولين الأمريكيين من أمثال مستشاري الأمن القومي: «ماكجورج بندى» و «زيجنيو بريزنسكى»، واقتحم الساحة العامة في كثير من التردد والإحجام، حين أراد أن يقف إلى جانب «ج. روبرت اونييمر» في تحذيره: من أن الإنسان إذا حاول في ميدان السياسة أن يقف موقف المنفذ والمراقب في آن واحد فإنه يفشل في كليهما وعلى قدر ما كتب مورجنتو عن قصور الفيلسوف في ميدان السياسة إلا أنه كان ينبذ تلك الفكرة في الواقع العملي، فأتخذ وهوالمعلم المتميز في تدريسه، من كل ندوة ومن كل الاجتماعات الإدارية المتعاقبة ومن كل اجتماع عام فصلاً دراسياً كبيراً، وفي أسفاره العديدة في شتى بقاع العالم، كان دائم العطاء كأنباء العهد القديم، لا يتردد في نبذ ما يراه تعليماً سيئاً أو التصدى لأي تهويمات متفشية.

ومن العسير أن نضع معياراً لتأثير مورجنتو، فمن الكتاب من أمثال «ريموند أرون» من يصمه بالفشل الذريع في وضع إطار جديد لسياسة أمريكا الخارجية، وكان تأثيره الكبير على مبادئ السياسة الخارجية أكثر مما كان على أسلوبها التكتيكي أو على قراراتها اليومية، وإن لم يكن هناك مسئول في حياة أمريكا خلال السبعينيات يجرؤ أن يتحدث بنوع من الاستخفاف أو السخرية عن حاجة أمريكا إلى تقدير مصالحها القومية في وضع سياستها الخارجية، ولم يكن هناك وزير للخارجية

يستطيع أن يدعى أن العالم قد تحرر من المنافسات الدولية أو من سياسة القوة وما كان لأيّ صحفي متحرر أن يتغافل عن القوى القومية والدولية المتصارعة

ومن المغالاة أن ندعى أن مورجنتو كان الفريد في تعاليمه، وإن كان من العسير أن يكون هناك مبادئ واقعية يمكن أن تشيع بهذه القوة بين الناس ما لم يكن هناك هذا الصوت الجريء الواضح صوت مورجنتو وقد حقق على الأقل رسالته في ناحيتين، الأولى : أنه استطاع أن يعثر على القضية التي وهب لها نفسه وأن يجد تبريراً أخلاقياً وعقلياً لرحلته في الحياة، في هذا البحث الذي بدأه وهو في الثامنة عشرة من عمره، والثانية : أنه وقف صامداً لتحقيق هذا الهدف، الذي يصفه هو نفسه أجمل وصف بقوله :

« أن ما نتوق إليه وتقوم عليه آمالنا هو ما نبتغي أن تكون عليه التجربة العالمية عما هي عليه في الواقع فلهذا وبلا حدود، نرى الواقع العملي لا يذنب بحقيقة ما نتوق إليه ونأمل فيه.. ونحن في انتظار الوحي الذي ينزل علينا بالإجابة القاطعة. فلم نخرج إلاّ بأحجية أصبحت لغزاً مبهماً، وإن بقي لدينا العقل الباحث الذي يعي ذاته كما يعي عالمه، يرى ويسمع، ويحس، ويفكر، ويتكلم، ليظفر بالحقيقة العليا خالية من الأوهام».

وقد ركز مورجنتو أبحاثه على العلاقة بين القوة أو المصالح القومية

والأخلاق، وكل ما كان يرمى إليه أن يفسر للأمريكيين تقليداً قديماً، فنقل إلى الولايات المتحدة المعنى الكلاسيكي القديم لمشكلات القوة والسياسة الخارجية كما كانت في التجربة الأوربية، وقد تعلم من فردريك الأول، وقد أعلن غداة تتويجه ملكاً على بروسيا التسامح مع اليهود والهوجينوت، تلك النظرة الإنسانية الواسعة، بقدر ما تعلم حقائق القوة كما تعلم من الفكر الألماني واليوناني أن الواجب الأول للدولة أن تزدود عن نفسها، لتغدو حينذاك قادرة على التحدث عن القانون (أفلاطون)، وعلى الدبلوماسية أن تستند إلى القوة إذا ما كانت ترمى إلى تحقيق الاستقرار والتفاهم الدوليين (فردريك الأكبر) أما النتيجة التي ترتبت عليها فهي ما يدعى أولوية السياسة الخارجية، وقد أدخل عليها بسمارك تقليداً جديداً هو التوتر السياسي، وكان فردريك الأكبر مثالاً للأرستقراطية الدولية التي يرى فيها رجل السياسة العالم من خلال ثقافة قومية عليا سامية، وأخذ بسمارك من هذه التقاليد نظرتة إلى القيادة فرأى مصلحة الدولة البروسية في أن تسلك جانب الاعتدال في سياسة الضغط والتسامح على أسس من الأخلاق والالتزامات السياسية.

وكانت هذه التقاليد بعض فلسفة مورجنتو للعلاقات الخارجية، وهي التقاليد التي نقلها إلى الولايات المتحدة، وقد أدرك أن الأمريكيين ليست لديهم أي فكرة عن المصالح القومية ولا عن أولوية السياسة الخارجية. وكان الأمريكيون قادرين على تناول القانون الدولي والأخلاقيات متحررين من أي ضغط من جانب القوى السياسية بسبب

ما تمتعت به أمريكا من عزلة أتاحها لها موقعها الجغرافي الفريد وحماية الأسطول البريطاني لها فئات بنفسها عن صراع القوى الكبرى في أوروبا، إلا أن هذه الميزة الفريدة قد أخذت في التغير، وعندما جاء مورجنتو إلى الولايات المتحدة كانت قد بدأت جولاتها في القيادة العالمية ولم يعد في قدرتها أن تتجنب ضغوط السياسة الدولية، وبدأ الأمريكيون يدركون أنهم يعيشون في عالم يخضعون فيه لقوة الآخرين وتأثيرهم كما يخضع هؤلاء الآخرون بدورهم لقوتهم وتأثيرهم، ولم تكن القوة وحدها هي القاعدة لسياسة خارجية أمريكية ناجحة، ولكنها وسائل الاستقرار والتفاهم الدولية، وليست المصالح وحدها معيارا لسياسة خارجية، إذ أن المصالح القومية إما تقاربت أو ابتعدت في العلاقات الدولية، والدبلوماسية وحدها هي التي تحقق الوفاق والراحة، فعندما يثور النزاع، يصبح على الساسة أن يتجاوزوا المشكلة القائمة، وأن يبحثوا عن إطار جديد يمكن أن يكون أساساً للتسوية، أو تحديد المصالح.

وقد وضع مورجنتو بضعة أفكار عن السياسة الخارجية تتوافق مع تغير المسرح، فترجم بعض الأفكار الأوربية التقليدية في صورة تناسب التجربة الأمريكية وصاغها في عبارات شائعة واستمر يعيد التفكير فيها ويعيد صياغتها حتى تتوافق مع واقع الديمقراطية الأمريكية، هذه الديمقراطية التي دان بها وأعلى من شأنها وخاصة في مؤلفاته الأخيرة، وقد لقيت أعماله شهرة واسعة، بسبب ما أبداه من حفاوة وإكبار بتفرد الفكر الأمريكي والأنظمة الأمريكية، في الوقت الذي اضطلع فيه بالدفاع دون مهادنة عما دعاه القانون الحديدي للسياسة الدولية.

وكان في كل ما كتب يعبر عن مبدأ استوحاه من الفكر اليوناني -
الروماني ومن الفكر اليهودي - المسيحي، هذا المبدأ أن كل عمل
إنساني تحكمه المعايير الأخلاقية، وعرف الدور المتغير للحدود الأخلاقية
على الواقع وما للقواعد التي تعرب عن الإيمان بقداصة الحياة الإنسانية
من تأثير على الحرب والسلام، وأشار إلى سمو الأخلاق وانحطاطها، وقد
ميزت اتفاقيات لاهاي بين المحاربين وغير المحاربين عند وقوع الحرب، إلا
أن قصف الألمان المدمر لمدينة كوفنتري ثم وارسو، وما كان بعد ذلك
من جميع المشتركين في الحرب كان نقضاً صريحاً لتلك القاعدة، فالعلاقة
بين الأخلاقيات والسياسة الدولية - وهو ما يؤكد مورجنتو - تتأثر إلى
حد بعيد بالعوامل التكنولوجية كما تتأثر بالثقافة والزمن، والمبادئ
الأخلاقية للقوميات وهي تمر في مصفاة الواقع الثقافي والاجتماعي تتباين
وتختلف في ممارستها عما هي عليه في الواقع العالمي.

وبدت تلك النظرة للأخلاقيات والسياسة الخارجية واضحة جلية
عندما أثير موضوع حقوق الإنسان. وتقدم مورجنتو بسؤالين في هذا
الصدد: إلى أي مدى يحق لشعب أن يفرض مبادئه على الشعوب
الأخرى؟ وإلى أي حد يمكن أن يجد تطبيق بعض مفاهيم حقوق
الإنسان على شعوب أخرى نوعاً من التبرير الأخلاقي والإقناع العقلي؟
ومن قبيل ذلك ما أشار إليه في التزام الولايات المتحدة الفريد
بمبادئ حقوق الإنسان وغيبة ذلك الالتزام إلى حد ما في إفريقية مثلاً.
كما تساءل عن علة هذا الإلحاح الأمريكي على كافة البشر في أن

يسلموا بسياستها الصريحة وتقاليدها الأخلاقية. ولم تكن حملة الرئيس كارتر لحقوق الإنسان، كما يقول مورجنتو من تقاليد أمريكا السابقة التي تضع التجربة الأمريكية أمام العالم كمثال، وإن كان الرئيس ودرو ويلسون قد خرج على تلك القاعدة الأمريكية حين دعا القوميات، وبقية العالم للتسليم بالديمقراطية الأمريكية.

ولا يسلم مورجنتو بالأناشيد الويلسونية في الأخلاق وفي السياسة الخارجية ولا بالحملة التي يشنها الرئيس جيمى كارتر لحقوق الإنسان العالمية لسببين :

١ - من العسير أن تلزم العالم أجمع بتقبل الإعلان العالمى لحقوق الإنسان.

٢ - ولن تستطيع الولايات المتحدة كقوة عظمى وبما لها من مصالح ضخمة فى كافة أنحاء العالم (وبعضها أكثر أهمية من حقوق الإنسان) أن تتابع سياسة حقوق الإنسان متابعة مستمرة.

وإن كنا قادرين وهو ما يجب أن نقوله للاتحاد السوفيتى أن معاملته للأقليات تتنافى مع الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وإن كان من المحتمل أن تكون بعض الوسائل الخاصة الأخرى أقوى أثرًا. وقد غاب عن مورجنتو أن قادة الاتحاد السوفيتى لا يعدون إلحاحهم فى نشر مبادئهم الأخلاقية وسياساتهم المعادية تهديدًا لنظامهم السياسى القائم.

إلا أن مورجنتو لم يكن يرى فى حقوق الإنسان صورة غير مستوية، ولكنه يراها صورة عامة للصلة بين الأخلاق والسياسة الخارجية،

فالناس جميعاً بطبيعتهم أخلاقيون واجتماعيون لا لشيء إلا لأنهم بشر، ويعملون جميعاً بشتى الطرق على مبادئ الأخلاق، ولكنهم يواجهون العديد من المتناقضات والعثرات الأخلاقية والمنطقية، وما من معركة سياسية أو أخلاقية إلا وترى كلّ حزب يدعى أنه ينشد وجه الله، ولكن الله لا يمكن أن يكون مع الشيء وضده في آن واحد، والمعيار الوحيد للسياسة إذا ما كانوا ينشدون الحق في الأخلاق وفي السياسة، هو هذا المعيار الذي ساقه لنكولن. ويقوم على : دراسة الحقائق المجردة العارية لطبيعة المشكلة، ومعرفة ما هو محتمل، وإدراك ما هو حق وقبله العقل.

ويستشهد مورجنتو، على هذا المعيار الذي أخذ به لنكولن طوال حياته في قيادته السياسية، بما كان من حياته الشخصية، فيقول : إنه لم يعرف إنساناً أكثر إصراراً منه على فعل ما يراه حقاً وصواباً، وما من إنسان غيره جاهد دون خوف أو ملل إعلاءً للحق. وظلّ طوال حياته يواجه العالم وحده دون يأس أو مرارة، وتصدى لتلك الأعراف الضاربة بجذورها في الفكر الأمريكى، وأطاح بكلّ ما علق بها من أوهام وثنية، ينشد الحقيقة دائماً، وكان شهياً متسامحاً مع مخالفيه في الفكر أو العمل، سخياً غاية السخاء مع أصدقائه. وأردّد ما قاله «ولتر ليبمان» مؤمناً بها : لقد كان في الواقع أعظم من عرفت من رجال الأخلاق.



نيكولاس ج. سيكمان (١٨٩٣-١٩٤٣)

ولد نيكولاس ج. سيكمان في مدينة أمستردام بهولندا في الثالث عشر من أكتوبر ١٨٩٣، ونزح إلى الولايات المتحدة عام ١٩٢٠، للدراسة ونال درجة البكالوريوس عام ١٩٢١، والماجستير في نفس السنة، والدكتوراة عام ١٩٢٣ من جامعة كاليفورنيا، وعمل صحفياً بادئاً في الشرق الأدنى من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩١٦، وفي الشرق الأوسط من عام ١٩١٦ إلى عام ١٩١٩، وفي الشرق الأقصى من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٠، وعين محاضراً للعلوم السياسية وعلم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٢٥ قبل أن يتركها إلى جامعة ييل عام ١٩٢٥، حيث أصبح رئيساً لقسم العلاقات الدولية، ومديراً لمعهد الدراسات الدولية من عام ١٩٣٥، حتى عام ١٩٤٠، وقد تركزت كتاباته الأولى في علم الاجتماع ومن بينها كتابه عن: «نظرية جورج سيمبل الاجتماعية»^(١) ولكن كتاباته الأخيرة كانت في أكثرها عن الجيوبولتكس والنظرية الدولية. وفي حياته القصيرة التي لم تتجاوز تسعاً

The Social theory of George Simmel.

وأربعين سنة (توفي في ٢٦ يونية ١٩٤٣) استطاع أن يقدم نظرةً حصيفةً عن القوى السياسية والمصالح القومية كانت لها آثارها العميقة في الفكر الأمريكي.

وقدم سبيكمان ما قدمه أساتذة جيله من جهد لإقامة الفكر الدولي على الواقع السياسي، وأطلق على محاولته لفظ جيوبولتكس: «وإذا كان بعض الكتاب قد جاروا على لفظ الجيوبولتكس، وشوهوا معناه، فليس هذا مدعاة للحملة عليها أو نبذ الأسس التي تقوم عليها، فما هي في الحقيقة إلا مسمى لمنهج في التحليل، وكم من البيانات على أعظم قدر من الأهمية للوصول إلى قرارات حكيمة في بعض أمور السياسة الخارجية».

ولم يسلك سبيكمان الطريق الذي سلكه «كارل هوسهوفر» وشيعته طالما نبذوا المنهج العلمي في تأييد السياسة، وكان يرى أن المدرسة الألمانية قد ضلّت طريقها: وأن هتلر قد اتخذ من الجيوبولتكس أداة لتبرير سياسته.

وكان سبيكمان يرى أن الجغرافيا هي العامل الأول في تشكيل السياسة الخارجية، ولكنه حذّر من اتخاذها قاعدة لكل شيء، وإن كان الموقع الذي تحتله الدولة من الحيز العالمي وعلاقتها بمراكز القوى على اختلافها هو الذي يحدّد مدى أمنها، فإذا أرادت أن تعزّز كيانها فإن على الشعب أن يصون أمنه ويعزّزه ويتخذ من ذلك غايته الأولى. وكان صدقه وصراحته سبباً في اتهامه بالسخرية وأن سياسة الواقع قد غشيت

بسحرها ولكنه يجب عن هذا الاتهام بقوله : « لقد كان للقوة مسماها
السيء، أما الالتجاء إلى القوة فهو وحده موضع الإدانة.. وهناك ميل
عند بعض الليبراليين والعديد من المثاليين كما يسمون أنفسهم. لتصديق
أن موضوع القوة في المحيط الدولي موضوع لا يصح الكلام فيه إلا في
حدود الإدانة الأخلاقية » ويمضى قائلاً : « إن التصورات والمثل السياسية
ما لم تسندها القوة، تبدو قيماً ذاوية » وأعظم ما كتب سبيكمان كتابه :
« الاستراتيجية الأمريكية في عالم السياسة »^(١) (١٩٤٢) ولعلنا لا نعثر
في كل ما كتب عن السياسة الدولية، على مثل تلك البراهين والأدلة
التي ساقها عن العزلة والمشاركة الدولية دقةً ومنهجاً، وقد أدرك
سبيكمان أن العناصر التي تقوم عليها كل من هاتين السياستين أكثر
إلحاحاً واستمراراً مما يرى الجميع، وبخاصة من جانب هؤلاء الذين
يظنون أن الشعب الأمريكي يستطيع أن يدرك إدراكاً سريعاً الاتجاهات
الدولية، فللعزلة مثلاً جانبها العاطفي وجانبها الاستراتيجي : فهي من
الجانب العاطفي تستهوي المهاجرين وذويهم ممن خلفوا أوروبا وراء ظهورهم،
ولا يحبون ما يذكرهم بالعالم القديم. أما وقد أخذت الحروب والمنازعات
في العالم الآخر تقتحم عليهم ملاذهم الجديد، فإنهم ينشدون الملاذ في
عقيدة لا تثير لديهم أي اهتمام بأوروبا، ثم إنهم قد جاءوا وفي أعماقهم
تصور لسياسة خارجية مضى عليها قرنان من الزمان، ففي بواكير القرن
التاسع عشر عندما طلبت إنجلترا من الدنيا الجديدة أن يكون لها دور
في توازن القوى في أوروبا، وعندما سئلت أمريكا أن يكون لها دور في

مسألة مراکش وفي مؤتمر برلين، وعندما أثار رجال الكونجرس الأمريكي الحوار حول عضوية أمريكا في عصبة الأمم، كان موضوع الحوار عما إذا كان النظام والتوازن في أوروبا وآسيا مما يهم أمريكا أو يعينها. ولم ير دعاة العزلة ما يحول دون قيام حيز دفاعي مناسب من المياه الإقليمية إلى الساحل الكاريبي، أو حتى نصف الكرة الغربي، ويرى سبيكمان أن أمريكا حتى في الأربعينيات مازالت تبقى على تلك المعالم الأبدية من سيكلوجية «أمريكا الحصينة» في بعض مواقفها من الأزمات الأوروبية.

أما التكامل والتمزق في منهج سبيكمان فيرجع إلى إدراكه للأساس الفكري لدعاة الدولية ولدعاة العزلة، وأن كليهما يعوزه السداد، ففي الأزمات المتعاقبة، كان أولئك المتحمسون من دعاة الدولية «من هؤلاء الذين يستوحون بواعثهم المثالية، فالبعض يرى المشاركة (في الأزمات العالمية المتعاقبة) لأنهم أقرب إلى البريطانيين، وآخرون رأوا عندما بدأت الحرب المذهبية أن علينا التزاماً أخلاقياً بمد يد العون إلى الشعوب التي تشترك معنا في نظمها السياسية والاجتماعية وبدت قلة برأى صريح قاطع وهو أن خط الدفاع الأول عن الولايات المتحدة هو في المحافظة على توازن القوى في أوروبا وآسيا، وإلاّ تهاوى خط الدفاع الثاني في نصف الكرة الغربي.

ومضى سبيكمان يقرع تلك المذاهب السائدة، ويعلن عام ١٩٤٢ :
«لن يكون ثمة خلاف من حيث الأساس، بين النظام القديم والنظام الجديد، وسيبقى المجتمع الدولي على نهجه ماضياً على نفس المسارات

الأساسية للقوى القديمة، عالم القوى السياسية، أما الشعوب التي تتحاشى مزالق السياسة الخارجية، فإنه ينذرنا: «بأن التوازن بين القوى لا يثبت بطبيعته على حال، فهو دائم التبدل، دائم التغيير، وليس من الضروري أن تكون القوى في المجتمع الدولي مثالية، ولكن طالما نستطيع أن نأسي على ما ينتابها من قصور، فإننا نحسن صنعاً عندما نذكر الحاجة الماسة لقيام نظام دولي من دول مستقلة» وعندما نناقش الأمن الجماعي، وهو ما يندّد عن معنى العدوان، تبدو الحاجة إلى قوة بوليس عالمية، ولربما لحكومة عالمية» ثم جاء بمبدأ أساسي، إذ يقول: «عندما.. يصبح الضغط غير متكافئ، فإن الحدود تتحرك. ومشكلة الأمن الجماعي هي مشكلة التكافؤ بين هذه الضغوط، وطالما بقيت هذه المشكلة دون حلّ، طالما بقيت ظاهرة التوسع كما هي بادية مستمرة» وبالرغم من كل ما يقال عن عالم شجاع نبيل، فإنه ينذر «بأن التاريخ يشير إلى تكرار ظاهرة التوسع وما ينجم عنها من توالى صور المنازعات، وليس ثمة ما يدعو إلى انتحال أو تغيير أو اختفاء تلك الأنماط من سلوكيات الدول بتلك الصورة الفجائية» ولا يعنى هذا أن تبقى سياسة أمريكا الخارجية أسيرة الماضي، «فليس التوافق مع الماضي ولكن التفاعل مع الحاضر هو السبيل الوحيد لسياسة سليمة، وليس بالتحديد اختيار أمثلة معينة من تاريخ الولايات المتحدة، ولكنها التجربة العامة للدول هي ما يجب أن تهديها لعمل مبرمج»

وكلّ ما قلناه جدير بأن يذكر لسبيين، أولهما: الخط الجديد في تناول العلاقات الدولية، من واقع التجارب العامة التي خاضتها الدول،

وتحتل لذلك مكاناً فسيحاً في دراسة السياسة الدولية. وأكثر من هذا أن سبيكمان فيما يبدو أخذ يتخذ ممابقع في الحاضر وسيلة لرؤية المستقبل، فنراه يكتب في الأربعينيات عندما كانت المشاعر طيبة نحو روسيا : « إن دولة روسية فيما بين الأورال وبحر الشمال لا يمكن أن تكون أكثر فطنة من دولة ألمانية فيما بين بحر الشمال والأورال » بل وأكثر من ذلك جرأة، ما أعلنه خلال الحرب العالمية الثانية : « مرتان في جيل واحد نمدّ يد العون إلى بريطانيا العظمى، حتى لا تقف هذه الجزيرة النائية الصغيرة في مواجهة تلك الدولة العاتية التي تقف أمامها على شاطئ القارة، فإذا كان لمبدأ توازن القوى أن يسود في الشرق الأقصى، فإن على الولايات المتحدة أن تحذو نفس السياسة في حماية اليابان » وفي فترة ساد فيها الوفاق العلاقات الأمريكية الصينية، كان يرى في الصين الجديدة الحية والمسلحة بسكانها الأربعة والخمسين مليون نسمة خطراً لا يهدد اليابان وحدها، ولكنه يهدد معها موقف القوى الغربية ». ولم يسترح لأولئك الذين كانوا ينادون بتدمير ألمانيا تدميراً تاماً، حتى اتخذ ناقد من موقفه هذا سمة لأغرب ما يمكن أن يتخيله إنسان، إلا أن سبيكمان يبقى على إصراره: « فإن ما بذل من جهد في الحرب الحاضرة. كان دون ريب للقضاء على هتلر والحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولم يكن أبداً للقضاء على ألمانيا كقوة عسكرية » وصاغ نبوءاته تلك في قالب عقلي متماسك بقوله إن الروعة الكامنة في القوى السياسية هي ألا يضني أحد فيها بأصدقائه، وكان سبيكمان يتميز بنوع من القدرة على التنبؤ السياسي، ويشترك في هذا مع أكثر فلاسفة

الحضارة الغربية رجاحة عقل ممن يرون صورة المستقبل على ضوء مايتاح
لهم من تصور عام للإنسان وللسياسة:

وكان في تناوله للواقع السياسى يستند إلى قاعدة أوربية صلبة اتخذ
منها أداة تساعد الأمريكين على إدراك مسئوليتهم القومية.

التصور والوفاق

أرنولد ولفرز (١٨٩٢-١٩٦٨)

ولد أرنولد ولفرز في جالن بسويسرا في الرابع عشر من يونيو ١٨٩٢، لأوتو وكلا را ولفرز، درس القانون بجامعة زيورخ ولوزان وميونخ وبرلين ودرس الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة زيورخ وبرلين، ودخل سلك المحاماة عام ١٩١٧ وزاول عمله في سان جالن من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩١٩، وعين محاضراً بالمدرسة العليا للسياسة في برلين عام ١٩٢٤ وأصبح مديراً لها منذ عام ١٩٣٠ حتى عام ١٩٣٣، وقضى فترة التجنيد في رتبة ملازم أول بسويسرا من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩١٩، وفي أوروبا، وقبل أن يرحل إلى الولايات المتحدة نشر كتبه: «التنظيم الإداري في الشركات المساهمة»^(١) و«الأجور الأمريكية والألمانية»^(٢) و«اتفاقيات السعر»^(٣).

وقد مرت حياته بأربع فترات حاسمة، وفي قارتين، وكان ما قدمه

Die Verwaltungsgesne der Aktiengesellrchaft

(١)

A merikanische und Deutsche Loebne.

(٢)

Das Kartellproblem.

(٣)

للفكر الدولى انعكاساً لتجاربه العديدة، وما كان من تأثير الثقافتين الأوربية والأمريكية عليه.

ونال ولفرز درجة الدكتوراة فى القانون من جامعة زيورخ عام ١٩١٧، والدكتوراه بأعلى «درجات التفوق والامتياز»^(١) من جامعة جيسين عام ١٩٢٤، ودرجات شرفية من «مونت هوليوك كوليچ» ومن جامعة روشستر. وعندما توفى فى ١٦ يولية ١٩٦٨ دفن فى وطنه سويسرا، فى «سيلز بازيجليا» بمقاطعة إنجادين. وكثيراً ما كان يزور سويسرا وألمانيا فى حياته، وأبقى على علاقاته الوثيقة بحكومتها الساميتين، وبقيادة الجامعات فى كل من البلدين.

وهاجر ولفرز إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، وما لبث أن شغل عملاً أكاديمياً حين عين أستاذاً زائراً (١٩٣٣-١٩٣٥) ثم أستاذاً (١٩٣٥-١٩٥٧) بجامعة ييل وظلّ يشغل المنصب طوال أربعة وثلاثين عاماً، وأدى خدمات عديدة للحكومة، فعمل فى البداية مستشاراً سنوات الحرب وبواكير الحرب الباردة، وفى الحرب الثانية كان خبيراً بمكتب قائد البوليس الحربى، ومكتب الخدمات الاستراتيجية، وأخيراً بكلية الحرب الأهلية. ومعهد التحليلات الدفاعية، ووزارة الجيش ووزارة الخارجية، وأثبت وجوده كمؤرخ سياسى، ولسمته الأرسقراطى وسجاياه الاجتماعية استطاع أن يشغل تلك الوظائف الاستشارية واحدة بعد الأخرى وأن يكون قريباً من مراكز السلطة فى واشنطن.

وما من تقدير لأفكار ولفرز إلا ويبدو أكثر صعوبة من تقدير فكر هؤلاء الكتاب أمثال «هربرت بترفيلد» و«ي. ه. كار» أو «هانز مورجنتو» وذلك لأن نظرياته لم تكن قاطعة.. كما أنها خالية من الغموض، متعددة الاختيارات كثيرة الجوانب، وعمل على أن يبدو في صورة حميدة لدى العديد من الأساتذة وأهدى كتابه: «التنافر والتوافق»^(١) إلى ذكرى الأستاذ سبيكمان «الزميل والصدیق المبجل» واستمر يتابع كما كان «ستيرلنج» أستاذ العلاقات الدولية، جهد سبيكمان الرائد في السياسة الدولية، ومع تأييده لسياسة القوة، فقد كانت لغته أقل عنفاً وتعصباً من لغة سبيكمان، وكان حريصاً على أن يعرف عنه أنه لا يقبل ما يؤكد سبيكمان من: «أن السياسى يمكن أن يبدى نوعاً من الاهتمام بالعدالة والصدق والتسامح ولكن إلى الحد الذى لا تعوقه تلك القيم أو تؤثر على ما ترمى إليه القوة» وإن كان «وتنى جريزولد» رئيس معهد بيل للدراسات الدولية وكان مؤرخاً لا يخفى نقده للطريقة الجديدة التى ابتدعها «فردريك س. دن» و«كلاوس نور» لتلك الدراسات، قد رأى ولفرز لنضجه التاريخى أكثر قبولاً، واشترك هؤلاء الكتاب المعتدلون من أمثال «لوسيان و. باى» و«هارولد ك. جاكبسون» و«روجر هلسمان» و«داقيد ماكليان» فى حفل تكريمه عند إحالته إلى التقاعد بكلمات طيبة ضافية، وكان ولفرز أكثر ميلاً إلى الدراسات العلمية من أولئك النقاد المتشددین تجاه السلوكيات السياسية، وإن كان يشجع طلابه على قراءة هؤلاء السلوكيين، من أمثال «روبرت

دال» و«كارل دويتش» وكان شغوفاً بالتلاعب بالنظرية، والادعاء، والبحوث الكمية في العلوم السياسية ومما هو جدير بالذكر أن اتجاه القسم في ييل إلى النظرية السلوكية قد بدأ عندما كان ولفرز أستاذاً لستيرلنج.

ويرى رينولد نيبور أن ولفرز فيلسوف سياسى وليس عالماً سياسياً، وكتب عنه : «إنه فيلسوف، فلا يمعن النظر في شتى النظريات ويزنها ويزن مدلولاتها وكوامنها، أو يناقش الصور الكبرى للعلاقات الدولية، ولكنه كأتى فيلسوف نابه، كان يتحرى الجانب العلمى فى اتخاذ من الحقائق التجريبية الثابتة معياراً أساسياً لدقة التصورات، أو صحة الفروض العامة، وإلى جانب التاريخ والفلسفة كان ولفرز معنياً بالسياسة، فهو كما يقول نيبور : «إن كل ما يتناوله دكتور ولفرز من مسائل يأخذ طابعاً أكاديمياً، فتراه يطرق بها أتون العلاقات الخارجية المتفاقمة وينفذ إلى صميمها» وقد عكف طوال الإحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته على إدارة وتوجيه «مركز واشنطن للسياسة الخارجية»، ورعاية المدرسة العليا للدراسات الدولية بجامعة جون هوبكر، بالتعاون مع «بول هـ. نيتز» المدير السابق للتخطيط السياسى بوزارة الخارجية، ويلخص تلاميذه حصيلة فكره على الوجه الآتى : «تميز أرنولد ولفرز بأنه جعل النظرية مطابقة للسياسة، وتحليل السياسة خاضعاً للبصيرة التى تسبق النظرية المنتقاة» وقد مزج ما بين العبقريّة النظرية لأوربا والعبقرية البرجماتية لأمريكا وحاول أن ينجب بالاثنين معاً.

وكان أول كتبه، ولعله أهمها جميعاً، كتابه : «بريطانيا وفرنسا

فما بين الحربين»^(١) (١٩٤٠)، ويسفر عنوانه الفرعى:

عن موضوعه: «استراتيجيات السلام المتضاربة منذ فرساي حتى الحرب العالمية الثانية» وفى التعريف به يكتب: «إلى صديقى السيد نيكولاس ج. سبيكمان، بكل ما أدين به له من عرفان بالجميل لنقده الواعى ونظرته الثاقبة.. ونصيحته التى لا تخطئ وتوجيهاته الغالية» ويبدو تأثير سبيكمان أكثر ما يبدو على ولفرز فى دراسته القديمة تلك أكثر مما يبدو فى مؤلفاته اللاحقة، ففى هذا الكتاب «بريطانيا وفرنسا فيما بين الحربين» نراه يقدم وصفاً لفترة ما بين الحربين يختلف إلى حد بعيد عما قدمته الكتابات الأمريكية حين اتخذت من فشل عصبة الأمم ورفض أمريكا لها تفسيراً للأحداث المؤسفة التى أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية، ورد ولفرز على ذلك بتحليل السياسات القومية المتصارعة: «فليست هناك قوة كبرى لا فى داخل أوروبا ولا فى خارجها لم تكن سبباً فى مزيد من المتاعب... فالاتحاد السوفيتى يسعى لتقويض النظام الاجتماعى فى أوروبا الغربية، واليابان وهى تبدأ حقبة جديدة من التوسع الاستعمارى، والولايات المتحدة بانتفاضها المفاجئ على سياسة المشاركة.. ورجوعها إلى سياسة العزلة، وأخيراً فقد كان لكل دولة أوربية من المتاعب مالا يحصى.. (ولكن) عندما تمزقت تسويات ما بعد الحرب، وغرقت أوروبا فى الحرب مرة أخرى، فإن سياسة كل من فرنسا وبريطانيا أكثر من غيرها كان من نصيبها الفشل الذريع».

واتفق البلدان، وهما أكثر ما يعنيهما هذا الأمر، على الأهداف النهائية لإقرار السلام ومقاومة أى تمرد من جانب القوى الأخرى النافرة، ولكنها اختلفا حول تحقيق هذه الأهداف، فقد رأت فرنسا الغاية فى سياسة الأمن. وقيام قوة كبرى فى مواجهة ألمانيا، بينما تدعو الاستراتيجية البريطانية إلى إزالة أسباب التمرد، والمضى فى إقرار ما نصت عليه تسوية السلام، ثم كان الوجه الثالث من التعقيدات فى استراتيجية ويلسون الداعية إلى الأمن الجماعى، وإقامة أنظمة ديمقراطية فى بلدان وسط أوروبا. وكان على دول وسط أوروبا بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة أن تقيم عصبية من الدول الديمقراطية تحقق الأمن والنصفه للجميع، وجد هذا الخلاف الثلاثى حول وسائل صيانة السلام، ومع أن ولفرز لم يشأ أن يغفل دور الولايات المتحدة، فقد فضل أن يركز على هاتين الاستراتيجيتين المتباعدتين لكل من فرنسا وبريطانيا والتي مضت كل منهما فى إتجاه يناقض الآخر، وانتهت إلى تفسخها بدلا من أن تكون كل منهما قوة للأخرى، وبتأثير سبيكمان يعزو ولفرز اختلافهما إلى موقعهما الجغرافى الفريد ومدى قربه من ألمانيا، فقد شغلت فرنسا إن لم يكن قد ألم بها الدهول خوفاً من تهديد ألمانيا لأمنها إذا ما تجاوزت قوتها الحد الذى رسمته معاهدة فرساي، أما بريطانيا وهى تحتل موقعاً نائياً فإنها كانت أكثر ميلاً لاستعادة ألمانيا قوتها تأكيداً لمبدأ توازن القوى فى أوروبا ولتحول دون انفجار الشعوب التى لا تملك، وأدت سياسة التحدى التى سارت عليها بالتوسع شرقاً دونها غرباً إلى تعثر الوحدة الإنجليزية الفرنسية، فقد رأت فرنسا أن

استقلال النمسا ووحدة بولندا وتشيكوسلوفاكيا الإقليمية مما يتصل بمصالحها القومية، أما بريطانيا فإن هذا الشرق هو الموقع المثالي لإرضاء ألمانيا وإذعانها، إلا أن أنصار الأمن الجماعى فى بريطانيا كانوا يتفقون مع فرنسا فى نظرتها إلى بولندا وتشيكوسلوفاكيا. ولكنهم لم يتجاوزوا فى رأى ولفرز «الاهتمام الأكاديمى، فليس من اليسير أن يتحمل شعب التضحية بمصالحه القومية من أجل عصبه مهما كانت أهميتها»

أما القضية الأساسية لفترة ما بين الحربين (وهى نفس القضية التى تنبأ ولفرز بأنها ستكون قضية ما بعد الحرب العالمية الثانية) فهى كيف يتسنى كبح جماح قوة ألمانيا - حدودها، وتسليحها، وتأثيرها الاقتصادى، والحد منه إلى المستوى الذى يحول دون مقاومة ألمانيا وتمردا يمكن أن يصبح خطراً يهدد الاستقرار الأوروبى.

«وقد تكون هناك فرصة لاستقرار دائم إذا استطاعت فرنسا وبريطانيا وألمانيا أن تصل معاً إلى اتفاق حول المستوى الذى تكون عليه قوة ألمانيا يرضى به الطرفان.. وتدل التجربة على أن توازن القوى هو السبيل الوحيد ولا سبيل سواه، وليس هو توازن القوى بمعناه القديم حيث كان التوازن بين بريطانيا وكافة القوى الأخرى، بل هو التوازن الذى يضعها جميعاً فى كفة واحدة... وقد يشعر البعض بالقنوط إذا ما رأى أن أوروبا تسير نحو هذا المنزلق الخطر فى لعبة توازن القوى إلا أن هؤلاء القانطين، لابد وأن يدركوا، إذا ما تحرروا من الأوهام أن أى حل آخر لن يلقى قبولاً، فطلما كان هناك هذا العدد الكبير من

الدول المستقلة صاحبة السيادة في أوربا، طالما كان توازن القوى هو
البديل الوحيد لسيطرة شعب على غيره من الشعوب أو سيطرة جماعة
منها على غيرها»

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية مضى ولفرز في كتاباته عن
السياسة الخارجية والحاجة إلى السلام. ونشر في إبريل ١٩٤٥ مقالاً في
الكتاب التذكاري لمعهد بيل عن : «التناحر والتوافق في سان
فرانسيسكو» قسم فيه المشتركين في مؤتمر الأمم المتحدة لوضع نظام دولي
إلى ثلاثة كبار، وفرنسا، والقوى الأقل، وحذر : «من أن ينتهي هذا
الاهتمام البالغ بتحقيق الوفاق بين القوى الكبرى، والذي بدأ في
دمبارتون أوكس، واكتمل في يالتا، إلى غير جدوى، ما لم تنل القوى
الصغرى التي دعيت للمفاوضات أي ترصية لمطالبها» وقدم تحليلاً
لمساومات القوى الكبرى المشتركة. وحدّد نقاط الجدل بما فيها هذا الجدل
الذي تناول العضوية الدائمة للقوى الكبرى في مجلس الأمن، كما تناول
متغيرات السلام المناقضة لسلامة القصد في تسويات الحدود (كهذه
التسويات المشثومة بعد فرساي) وعلاقة الإقليمية والمعاهدات في هذا
النظام الدولي الجديد للأمن. وفي كافة هذه المسائل كان ولفرز يصرّ
دائماً على أن تقوم بريطانيا والولايات المتحدة بدور السمسار الأمين في
سان فرانسيسكو. وعلى الولايات المتحدة ألا تبدو وهي تساوم أنها تبذل
أيّ مقابل لتتجنب فشل المؤتمر. وتبدو توصياته السياسية عند قيام الأمم
المتحدة أقل أهمية من كل ماقدّم من تصورات وماأنجز من فكر،

وقد عدّ قيام الأمم المتحدة على هدى السياسات الخارجية التي تنطوى عليها آمال أعضائها، كما عدّ من قبل عصبة الأمم في كتابه المبكر «بريطانيا وفرنسا فيما بين الحربين» ففي كلا المرتين كان أستاذ ييل سابقاً على عصره، فقد ذهب أكثر معاصريه إلى اعتبار الأمم المتحدة بناءً تنظيمياً، وأغفلوا تحليل السياسات الخارجية وتأثيرها على قضايا السلام، وإن كان ما تفرّد به ولفرز مما يعزى إلى حدّ ما إلى تأثير التقاليد الأوروبية التي غلفت فكره.

وقد أصدر معهد ييل عام ١٩٥٠ كتاباً تذكاريّاً آخر بقلم أرنولد ولفرز، بعنوان : «ألمانيا الغربية : أحمية أم حليف^(١)؟» جعل منه دراسةً مشتركةً تعاون معه في إعدادها صفوة المسؤولين في الولايات المتحدة وفي ألمانيا، ففي تلك الفترة وقد بدا فيها تجدد التهديد الألماني حينذاك بعيد الاحتمال، اختفى هذا التهديد تماماً في حمى الصراع بين الشرق والغرب، وبدا الاتحاد السوفيتي وكأنه يحاول أن يضم ألمانيا إلى نطاقه يوماً ما، وأخذ ولفرز يناقش السياسة الأمريكية تجاه ألمانيا، وأن عليها ألاّ تحدّ من قوّة ألمانيا وأن تتخذ منها صديقاً جديراً بثقتها في العالم الغربي، وأخذ يقارن بين ما ترجوه وتتطلع إليه جمهورية بون في الخمسينيات في أعقاب الحرب العالمية الثانية وما كانت تتشده جمهورية فيمار في العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى، ورأى أن موقف جمهورية بون أكثر سداداً، وأثنى على نظام «كونراد أديناور» وأخذ يفنّد كلّ نقد

West Germany - Protectorate or ally.

(١)

وجهه الصحفيون الأمريكيون لحكومة ما بعد الحرب في ألمانيا. وأشار إلى نجاحها في مقاومة النازية، وقرر أن «الوقت قد حان لوضع نهاية لأي محاولة منا لإقامة ديمقراطية لا تجد لها قواماً أو كياناً في بلاد ترتبط بنا سياسياً في الوقت الحاضر» أما موضوع نزع سلاح ألمانيا أو إعادة تسليحها فقد كان يعزز فكرة إعادة تسليحها «إعادة تسليح ألمانيا وفقاً للمستوى المرسوم للبلاد الأوربية، سيتقرر مع الزمن - وإن كان من الأجدى ألا يمر وقت طويل عليه». واقترح أن تتحول الحماية الأمريكية على ألمانيا الغربية إلى تحالف جديد كامل: «وأن يسمح لها بالتسلح إلى الحد الذي تتطلبه الخطة الاستراتيجية العامة التي قبلتها، على أن يبقى الوضع القائم على ما هو عليه» حتى تقوم ألمانيا الحليفة لتشارك في الحلف الدفاعي لمعاهدة شمال الأطلسنطى، فالضرورة الملحة لتقوية الدفاع الأوربي، وهو ما يراه ولفرز غير واف إلى حدّ مؤسسى، في حاجة إلى قوة ألمانيا العسكرية لتأخذ مكانها في ساحة التوازن.

ومهما تكن الأسباب التي أحاطت بموقف ولفرز عام ١٩٥٠، فإن الشواهد تدلّ على أنه قد بدّل من نظريته تلك، ففي عام ١٩٤٧، كان يعرض فكرة ألمانيا الموحدة في إطارها الاقتصادي والسياسي.

فعلى الرغم من الأخطار الناجمة عن تلك الوحدة... فإن قيام ألمانيا الموحدة أخفّ الضررين... ومنع تسليح ألمانيا، فإن الكيان العسكري والاقتصادي مع السيطرة الدولية على صناعات المرور أقوم سبيل للنجاح» وبدأ تشييعه لإعادة تسليح ألمانيا عام ١٩٥٠، وعارض

أى تأخير أو شك قد تثيره أى محاولة (وهو ما يمكن أن يواجهه الفشل في النهاية) لخفض القوات المتحالفة والقوات السوفيتية في كلٍّ من ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية في إطار تسوية سياسية عامة.

وفي كتابه هذا عن ألمانيا الغربية يسفر ولفرز عن ارتباطه بالمؤسسات السياسية والعسكرية الأمريكية، وأعلن عن معارضته للسياسيين الواقعيين من أمثال «ولتر ليبمان» و «جورج ف. كينان» و «هانز ج. مورجنتو» ومع أستاذه «نيكولاس سبيكمان» وكان الساسة الواقعيون يعتزون باستقلالهم التام عن أقطاب السياسة الخارجية الذين يقصرون نفوذهم على الإدارة، أما ولفرز فقد بدا بالقياس إليهم شديد الولع بأروقة القوة. (وقد لمست فيه التطلع إلى الصدارة عندما زارني، وكان موظفًا صغيرًا بمؤسسة روكفر - فبينما كنا ماضين في حديثنا كان دائم الإلحاح على رؤية «دين رسك» رئيس المؤسسة) فإذا كان مورجنتو وكينان أكثر ابتعادًا عن أصحاب السلطة فإن ولفرز كان دائم السعى إليهم.

وفي عام ١٩٥٦ قام مع تلميذه «لورنس ي. مارتن» بتقريظ كتاب للقراءة عن «التقاليد الأمريكية الإنجليزية في الشؤون الخارجية» وفي عام ١٩٥٩ اشترك مع هيئة الأبحاث في مركز دراسات السياسة الخارجية بواشنطن في إعداد وطبع أول دراسة كبرى عن «سياسة التحالف في الحرب الباردة» ووصف سياسة التحالف بأنها «كافة الجهود التي تبذل لمنع البلدان الأخرى من اتخاذ جانب المعسكر السوفيتي» وكان الكتاب عن الحرب الباردة وجرياً مع الاتجاه السائد حينذاك أشار إلى الخطر

الكامن في نمو القوة السوفيتية الصينية (ولم يعط أى دليل على توقع أى انفصام بين هاتين القوتين الشيوعيتين) وشبه مسؤولية أمريكا بمحور عجلة ذات أذرع عديدة ينتهى كل ذراع منها إلى صديق أو حليف يسيطر على نهاية الذراع الذى يمتد إلى أرض الهامش، فإذا حلّ الخطر بحليف على طرف هذا الذراع عرفت به الولايات المتحدة عند المحور، إلا أن هذا الخط الدفاعى القوى قد يواجه ندًا له في تلك البلدان التى تقف في مواجهة تلك الأذرع على الجانب الآخر أو عند الهامش الذى يركز عليه، ويخشى حلفاء الغرب الأسيويون من التركيز الأمريكى البالغ على النطاق الأوروبى من الهامش، أو العكس وتلك هى المشكلة التى لا تجد لها حلًا في نظام التحالف الأمريكى، وأحيانًا ما يقع الكثير من اللوم على الأمريكيين بسبب تلك الهستريا التى يسمونها التهديد السوفيتى، وإن كان من رأى ولفرز أن «تركيا أقرب إلى الولايات المتحدة منها إلى الدمارك، وكذلك تايوان أقرب إليها من باكستان، ولوجود أمريكا عند محور العجلة فإنها وحدها دون القوى الأخرى التى تحمل مسؤولية ما يقع على الهامش ويمتد إلى المركز» ويبدو أن ولفرز ورفاقه في مركز واشنطن لم يلقوا بالأمر لما ينال أمريكا من مذمة بسبب الدور البوليسى الذى تلعبه في العالم وما يسببه من إغفال لمصالحها الحيوية، إلى جانب ما نجم عن المشاكل والعثرات في كوريا وفيتنام، فلا يظهر لها أى ظل في الكتاب.

وفي عام ١٩٦٢ نشر ولفرز مجموعة مقالاته التى دعاها: «التنافر والتوافق» وكانت عرضًا هامًا للنظرية الدولية، مبتدئًا «بأقطاب السياسة الدولية» ومنها مقال عن «النظرية السياسية والعلاقات الدولية» (ومن

واجب الطلاب الذين يرغبون المقارنة بين نظرة ولفرز ونظرة مارتن وايت أن يقرأوا تلك المقالة الأخيرة مع مقال وايت: «لماذا لا توجد نظرية دولية؟» وتصور تلك المقالات التنظير الدولي تصويراً بانورامياً بدايةً من دواعي قيام الدولة حتى إصدار القرار، وما من كتاب آخر يداني ما كتب ولفرز في تحليله الفلسفي للتركيب الفكري الأمريكي والأوروبي، ومن قبيل ذلك:

«لا تستدعي أى نظرية شاملة تقسماً للسياسة الدولية، إلى شقين، يقف أولهما على دور الدولة في سياسة القوى (التصور الأوربي) ويقف الثاني على الدور البشري والتكتلات الجماهيرية بكل خصائصها النفسية، ونزولها على رغبات الناس (التصور الأمريكي). وبدلاً من ذلك يجب أن يقوم تصور أحداث السياسة الدولية وتفهمها في آن واحد على زاويتين، تستدعي أولاهما التركيز على سلوك الدول بوصفها تجمعاً منظماً من البشر. وتستدعي ثانيتهما التركيز على الإنسان بما يعكسه من رد الفعل السيكولوجي على السلوك الذي تدين به الدولة ويتغلغل فيها أخيراً» وقد عمد الكتاب الآخرون عندما نقلوا التقاليد الأوربية والتصور الأوربي في دراستهم لسياسة أمريكا الخارجية، كما رأينا إلى ترجمتها وتطويعها للجانب الأمريكي، ولكن ولفرز أخذ يوائم بين الاثنين في تركيب فلسفي واحد. وإن كان ولفرز قد نجح في تقديم عمل يتواءم مع شق هام في المجتمع الفكري الأمريكي، وأضفى على كتاباته النظرية طابعاً تجريبياً فقد كان يفتقد الثبات والدقة، والتحديد، أكثر من كتابات أولئك الكتاب

الآخرين. ويبدو ولفرز في كتاباته الأخيرة كما لو كان في حوار دائم مع نفسه، ومع محاولته التوفيق بين هذين الجانبين من التقاليد الأوربية والأمريكية، فيكتب مقالاً قبل عامين من وفاته، يقول فيه: «ليست هناك معركة حقيقية حول المبدأ القائل بأن الحكومات القومية تستهدى مصالحها القومية في كل سياساتها» ويمضى في قوله: «ولكن الخلاف أو الخصومة يدور في الواقع حول العوامل التي تكوّن المصالح القومية، أو أى مصالح قومية لأى شعب فى أى زمن» وحتى يوفق فى القياس بين الاتجاهين، فقد أخذ يؤكد حقيقة المصالح القومية (وهو ما تتميز به الكتابات الأوربية) كما أخذ يتعرّف على السمات المشتركة بينها وبين المصلحة والقوة واختار لذلك كتاب «القوة والغاية»^(١) لتوماس كوك ومالكولم موس فى نقد التصور الأوربى وبعد أن استعرض الاتجاهين معاً قرّر فى لهجة لا تختلف كثيراً عما كانت عليه الفكرة التقليدية عن المصالح القومية: «فحماية الوطن الأمريكى من أى عدوان عسكرى - أو بمعنى أدق حماية النصف الشمالى من القارة الأمريكية - هو أبرز ما تقوم عليه المصالح الحيوية، وقد تحتل القمة بين هذه المصالح، وهو ما لم يعد موضع بحث». ومن العسير أن ندرك الفروق بين هذه النتيجة والنتائج التى يبرزها الساسة الواقعيون من اعتاد ولفرز أن يتناولهم بالنقد بين حين وآخر.

وعلى أى صورة كان تفكير ولفرز وكانت كتبه فقد قدم معياراً بديلاً

لذلك المعيار الذى أخذ به الكتاب الأوروبيون الأمريكيون، وقد بدا أمام طلابه «رائداً من رواد الواقعية.. وعامل إزعاج لهؤلاء الكتاب المثاليين ذوى النزعات الطيبة ممن بذلوا أقصى الجهد لتشكيل (تشويه) دراسة العلاقات الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى» وفى نفس الوقت «كان قريباً قريباً شديداً من عالم السياسة الواقعيين إلى حدّ الجمود ولم يتسن له أن يكون سياسياً واقعياً» فحيثما كان ولفرز يلم إماماً كافياً بمسئوليات رجل السياسة، كانت تلفه رؤى مبهمة حول تعريف المصالح وتحديداتها، وإن كان قد فطن تماماً إلى أن سياسة الدولة تمضى فى الواقع بين قطبين يحكمانيهما، يتعلق القطب الأول بمعطيات القوة والثانى بالتباين النسبى فى القوة، وقد رفض ولفرز ما زعمه الآخرون من تفرقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الدولية، وأكد أن: «طبيعة ردّ الفعل الأخلاقى للإنسان حيال المشكلات الحساسة تتحدّد بطابع المحبة أو العداوة التى تسفر عنها المشكلة أكثر مما تتحدّد بأفعال الفرد كفرد، أو فرد يحمل مسئولية توفير الرفاه لدولته».

وفى نهاية حياته كان ولفرز قد ترك وراءه من طلابه المعجبين به ممن لا يقلون عدداً عما كان لأى أستاذ آخر فى ميدان العلاقات الدولية منهم «روبرت س. جود» و «روجر هيلسمان» و «هارولد جاكسون» و «لورنس ي. مارتن» و «دافيد س. ماكلولان» و «لوسيان باي» و «ريتشارد سترلنج» و «ي. هوارد ريجنز» وليس هناك من يمارى فى إصراره طوال حياته على وضع فلسفة تركيبية للفكر الأوروبى الأمريكى أثارت الكثير من الحماسة وأثارت مشاعر هذا الفريق من طلائع الباحثين، وإن كان كلٌ منهم

قد انطلق مستقلاً بفكره، ولكنهم جميعاً يدينون بالفضل إلى هذا الأستاذ الذي دفع بهم إلى هذا الميدان من المنظمات والأساليب والأفكار الخافلة في عالم السياسة، وإذا كان ولفرز قد أدّى ما عليه عندما اقترب بفكره من أولئك الأمريكيين التقليديين، فإنه ولاشكّ قد وجد في تلك الطليعة من مفكرى الشباب الأمريكى ممن زوّدهم بأفكاره وغذاهم بها. وقد كان له من الأثر على سياسة أمريكا الخارجية ما لم يكن لأى مفكر أوروبى أمريكى آخر، حيث أقام الحجة على دقة تصوّره الأوروبى.

التوفيق بين
الواقعية والمثالية

جون هيرز (١٩٠٨ -)

ولد جون هـ. هيرز في دسلدورف بألمانيا عام ١٩٠٨ وتلقى تعليمه بجامعة كولون، وحصل منها على درجة الدكتوراه في القانون العام، وكما كان أولئك العلماء الألمان البارزون ممن فروا من وجه النازية - ممن راح بعضهم يكمل دراسته أو يشتغل بالتعليم في البلدان المحايدة كسويسرا وأسبانيا - هاجر هيرز إلى الولايات المتحدة عبر سويسرا قبيل الحرب العالمية الثانية، فعمل خلال الحرب مع هيئة مكتب الخدمات الاستراتيجية ووزارة الخارجية مع غيره من الألمان اللاجئين ممن أصبحوا أعلاماً في السياسة الألمانية وفي الشؤون الألمانية في أعقاب الحرب، وقد بدأ حياته في التدريس الجامعي بجامعة هوارد ثم بجامعة كلومبيا فمدرسة البحوث الاجتماعية الجديدة، وأخيراً مدرسة فلتشر للقانون والدبلوماسية، ولكن عمله الدائم كان بكلية مدينة نيويورك أستاذاً للعلوم السياسية مع الإشراف على دراسات الدكتوراه لخريجي جامعة مدينة نيويورك، كما كان على صلة وثيقة بالجامعات الألمانية سواء عن طريق البحوث أو التدريس بجامعة ماربورج أو جامعة برلين الحرة، ومن مؤلفاته عن ألمانيا وأوروبا،

كتبه: «القوى الخارجية الكبرى»^(١) (١٩٥٢) و«حكومة ألمانيا»^(٢) (١٩٧٢) و«الحكومة والسياسة في القرن العشرين»^(٣) (الطبعة الثالثة ١٩٧٣)، كما قام بأبحاث لحساب بعض مراكز البحث التي تمولها الحكومة، ونال منحة فوليرايت للأستاذية بألمانيا، وتعاون في أبحاثه وكتاباته مع «جويندولين م. كارتر» وهو من رواد العلوم السياسية للشئون الأفريقية حكومةً وسياسةً.

وقبل أن يسود هذا النمط الدارج للربط بين السياستين الداخلية والدولية بزمان طويل، كان يخوض بقلمه فيه، وكانت الموضوعات التي يكتبها في السياسة المقارنة أكثر شهرةً لدى طلابه من كل ما كتب في السياسة الدولية، وكان إثارة لمنهجه هذا في البحث قد فتحت له ميدان الصحافة العلمية على اختلاف اتجاهاتها وفلسفاتها (مثال ذلك: أن هيرز كان واحدًا من أولئك القلائل المتمكنين من السياسة الواقعية ممن يدعون للحديث عن السياسة العالمية)، وقد استطاع بقدرته على التوفيق بين النظريات السياسية المتضاربة كالنظرية الواقعية والنظرية المثالية، أن يروض هذا التنافر بين الاتجاهين العقلي والتقليدي.

ثم إن هيرز، ممن يعدّون في نفس الوقت من بين تلك القلة من الدارسين الأوروبيين الأمريكيين ممن كان لهم دور بارز في دراسة السياسة الدولية في الولايات المتحدة، ولا يقل دوره أهمية عن دور «هاترج».

Major Foreign Powers.

(١)

The Government of Germany.

(٢)

Government and Politics in the Twentieth Century. *

(٣)

مورجنتو» و «كارل دويتش» و «أرنولد ولفرز» (وكانت سيرته مع سيرهم في تقديم «الدولة القومية وأزمة السياسة العالمية»^(١)) ومع اتساع آفاقه واهتماماته الدراسية كان ممن يعدّون بين أساتذة الحكومات المقارنة، أكثر من كتاب السياسة الدولية (وكانت كتاباته في السياسة الدولية أقل بكثير مما كتب «مورجنتو» أو «دويتش».

ولو أن هيرز قد أخلص البحث في السياسة الدولية دون غيرها لعلا نجمه فيها ولحقق فيها من المجد ما يفوق ما حققه في غيرها. وإن كان أكثر من نصف ما كتب حول السياسة المقارنة، كما كان المحرر المناوب لمجلة «السياسة المقارنة» وقد كانت دراسته الأولى في ألمانيا وفي معهد الدراسات الدولية العالي بجنيف في القانون لا في السياسة، وكان راعيه وموجهه «هانز كيلسن» صاحب «النظرية الخالصة للقانون» وكان بزوغ نجم هتلر قد شدّ هذا الفتى الصغير شدّاً عنيفاً إلى الدور الذي تلعبه القوة في الشؤون الدولية، وكان أول مؤلفاته «فكرة الاشتراكية الوطنية عن القانون الدولي»^(٢) (طبع تحت اسم مستعار عام ١٩٣٨) حذّر فيه من خداع الحزب الوطني الاشتراكي، في منشوراته التي يحاول أن يحجب فيها نزعته العسكرية في بداية قيام النظام النازي، وانقشعت غمامة الوهم الذي يسود العالم عن عينيه مع فشل الأمن الجماعي، وانهيار الاشتراكية في روسيا تحت مطارق ستالين، وفوز النازية في ألمانيا.

The Nation State and the Crisis of World Politics.

(١)

The National Socialist Doctrine of International Law.

(٢)

إلا أن ما حلّ به من خيبة الأمل لم تقض على مثاليته الوليدة أو نزعت الرومانسية التي لم تهن والتي اتسمت بها كل كتاباته من بعد، ففي مقاله الأول في كتاب «الدولة القومية وأزمة السياسة العالمية» بعنوان «القوى السياسية والتنظيم الدولي» نراه يرسم صورة دقيقة «للنظام البين بين» وهو النظام الذي يقع وسطاً بين فوضى القوة والفكرة المهمة لحكومة عالمية. وقد شرح مذهبه في المزج بين المثالية والواقعية في مؤلفه الأصيل «الواقعية السياسية والمثالية السياسية: دراسة في النظرية وفي الواقع»^(١) (١٩٥١) وقد كتب في فترة ما بين الحربين، وتعود أهميته إلى ما حواه من أفكار سياسية أصيلة لها قيمتها (مثال ذلك: مشكلة قوة الأمن) أكثر مما تعود إلى صدق نظريته السياسية (وقد اعترف بفشله في التنبؤ بانقسام العالم إلى كتلتين، وظهور الأسلحة النووية)، وكان مؤلفه التقليدي الثاني: «السياسة الدولية في العصر الذري»^(٢) (١٩٥٩)، لم يكتف فيه باستكمال النقص في كتابه الأول في شرحه لحقائق ما بعد الحرب، ولكنه أضاف إليه تصورات جديدة: منها مثلاً «عدم التدخل» لدى الدول المجاورة، وتصوره لانقسام العالم في أعقاب الحرب وفي فترة الحرب الباردة إلى دول تابعة ودول صديقة، كما شرح استراتيجية الردع النووي لتجنب خطر الفناء النووي، وكان هذان الكتابان اللذان صدرا خلال الخمسينات ما رفع هيرز إلى الذروة بين مفكرى السياسة الدولية.

Political Realism and Political Idealism: Study in Theories and Realities.

(١)

International Politics in the atomic age.

(٢)

إلا أن أثر هيرز الخالد كصاحب نظرية، قد حدّ منه ثلاثة عوامل معينة : أولها، أنه يمثل - كما يقول - الأستاذ الفرد الذى يعمل مستقلاً بتفكيره الخاص، ونادراً، إن لم يكن إطلاقاً ما اشترك مع غيره من أصحاب النظريات بما فيهم أولئك الذين يشاركونه أفكاره، وقد يدين لهم ببعض الفضل، وثانيها : أن تطور أفكاره يتم عن اتجاهه لاحتواء المواقف الليبرالية الأتوية (وقد ادّعى مرة أنه ليبرالى واقعى) لا عن طريق النقد الذاقى أو الحوار الجدلى كما فعل رينولد نيبور، ولكن بأن يدفعها بحماسة الرومانسى. وثالثها : أن قدرة هيرز على إحكام أفكاره وترتيبها وفقاً للحقائق الجديدة قوية ومحدودة في آن واحد.

وقد قضى هيرز الحقبة الأولى من حياته في دراسة الأمن الجماعى ومشكلات العصر الذرى الذى يعوق قيام الدولة الإقليمية ويحول دون نشوئها. أما كتاباته الأخيرة فتتناول العلم والتكنولوجيا والإسراع فى تحسين كافة صور العلاقات الدولية، ولم يكتف بأن يؤثر باهتمامه مشكلات الغذاء والإسكان والإسراف فى استهلاك البيئة والموارد، و «بقاء الأخلاقيات» (وهى التى يغفلها أكثر الساسة الواقعيون)، بل خاض إلى جانبها فى القوى الثقافية والإنسانية وأثرها فى تلك الميادين الحيوية، وسلم بأن «أقل ما يبقى من القدرة على التمييز» يستطيع أن يقضى على مخلفات الماضى من المعايير الأخلاقية للعلاقات الدولية التاريخية لدى الأفراد والجماعات، وإن كان فى يأس شديد من إصلاح مساوئ الدولة القومية والعقبات التى تحول دون تطبيق المبادئ الأخلاقية فى أكثر

قرارات السياسة الخارجية ولا سيما في الولايات المتحدة، والخطر الذى يتهدد الوجود الأمريكى انقسامه الداخلى إلى مجتمعين : مجتمع نشيط ومجتمع متوان (وهذا المجتمع المتوانى متخلف فى مستواه المعيشى)، والإسراف فى الاستهلاك وسيطرة المؤسسات وأنانيتها. واختفاء أشباح الديمقراطية فى حمأة التسلط الحميد أو ما نسميه «الفاشية الأليفة» فى أعقاب الحرب الفيتنامية.

وقد همّه وأقلقه «تضخم قوّة» القوى الكبرى، وقصور نظرتها وتطلعها إلى التفوق الذرى والسيادة الصناعية، كما همّه انصراف الناس عن التفكير دون فزع فى نهاية الحضارة (وأخذ يدعو إلى نوع من التأمل فى «وصية أخلاقية رقيقة» أو الاستعداد لمفارقة الحياة)

وكانت حياة هيرز الفكرية سفرًا للأزمات المتتالية وما كان لها من أثر على مفكر ليبرالى واقعى مثله. وقد بدأ مسيرته بالبحث عن نمط من المعايير المنطقية، واجتازها إلى التفكير فى طبيعة الدولة (قصورها عن النفوذ، أو قدرتها عليه) وتشابك السياسات النووية الخارجية، وتطرق منها إلى دراسة السعى الإنسانى الخيىث إلى البقاء بالرغم مما يهدّد البشرية من مخاطر الفناء، وانتهى بها، بالرغم من المثالية التى بدأ بها، إلى رومانسية قانطة مكربة تلوذ فى قنوطها إلى حكمة «رينى ديبوا» - ما كل ما يأمله المرء يدركه^(١) - وما لم يكن مثل هذا التحول الجذرى فى المعايير والمواقف والسياسات يسيرًا لدى هيرز، لما كان هناك مستقبل

(١) وهى حكمة شرقية أيضا. المترجم.

أمام البشرية، وقد يبدو حقاً أنه ألقى بالكثير من التبعات على كاهل السياسة الخارجية، وإنه ترك لنفسه العنان في الكتابة عن الواقعية السياسية في مؤلفاته الأخيرة، وقد يتساءل ناقد منصف عما إذا كان عزوفه عن روح الواقعية السياسية هو علة ما انتابه من قنوط لفشل مرآية المتسامية واحداً وراء الآخر، أم لأن رؤياه العالمية في آخريات أيامه بما شابها من اهتمام متزايد بعوامل الانهيار العالمي كانت تنبئ بنهاية الحضارة؟ ومن الإنصاف أن نشير إلى أن هيرز كان عليه أن يضيف نوعاً من التماسك على نزعته الإنسانية العالمية، وكان عليه أن يختط طريقاً آخر يسلكه الناس والشعوب لتوفير الطعام، وللحد من الانفجار السكاني، وحماية البيئة من التلوث، وليعرف الناس في هذه الساعات الأخيرة كيف يتحركون من واقعهم الذي يعيشون فيه إلى الواقع الذي ينشده لهم.

ومع ذلك فليس هناك من يشك فيما قدمه هيرز من فكر مستقل فريد باق في رؤيته الأوربية الأمريكية، وقد كان أكثر من غيره من الأساتذة والدارسين الأوربيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة قدرة على الاستجابة للتغيرات العالمية، وكلما جدت مشكلة كان يفسح لها ميداناً من فكره أو يعيد النظر فيها، ومع أنه كان يعيد النظر في رؤيته لأهمية القوة والمصالح القومية كلما جدّ تغيير على مسيرة السياسة الدولية، فقد ظلّ على تمسكه وإصراره بما للمناهج الجديدة من جاذبية في دراسة السياسة الدولية، وظلّ على وفائه للقيم السامية للتاريخ السياسى وللنظرية السياسية الصحيحة.

وقد تبدو أهمية هيرز فيما كان له من تأثير بارز على الفكر الدولي بالرغم من وقوفه فردًا وحيدًا في ميدانه الفكري، فلم يترك مدرسة فكرية وراءه ولم يكن له من رواد يتشيّعون له، وكان ميدانه التعليمي في معاهد لا تتمتع براجها بشهرة كافية، ولكن العلماء والمفكرين قد أخذوا نظرياته مأخذًا جادًا، وأكبروا من دراساته وما اتسمت به من أصالة وتميّز.

كارل ولفجانج دويتش (١٩١٢ -)

ولد كارل دويتش فى الحادى والعشرين من يولية ١٩١٢ بمدينة
براج، تشيكوسلوفاكيا لأبوين هما مارتن دويتش، وماريا دويتش، وتلقى
تعليمه بالجامعة الألمانية وجامعة تشارلس ببراج حتى عام ١٩٣٨، حين
غادر تشيكوسلوفاكيا إلى الولايات المتحدة هرباً من نظام هتلر، والتحق
بجامعة هارفارد «قسم دراسة الحكومات» حيث حصل على درجة
الماجستير عام ١٩٤١، ودرجة الدكتوراة عام ١٩٥١، وعندما كان يعدّ
للدكتوراه، بدأ حياته معلماً فى معهد مساشوسيث للتكنولوجيا من سنة
١٩٤٢ إلى سنة ١٩٥٢، وأستاذاً للعلوم السياسية من سنة ١٩٥٢ إلى
سنة ١٩٥٨، جذب إليه خلالها أنظار زملائه وتلامذته بسعة معلوماته
فى العلوم الاجتماعية، وأستاذاً فى جامعة ييل حتى عام ١٩٦٧، حيث
انتقل إلى جامعة هارفارد أستاذاً لعلم الحكومات حتى عام ١٩٧١ ومنها
إلى ستانفيلد أستاذاً للعلاقات السلمية. وكثيراً ما كان يلقي محاضراته فى
كليات أركان الحرب الأمريكية، وكان أستاذاً زائراً بجامعة هيدلبرج عام
١٩٦٠، وكلية نافيلد بأكسفورد عام ١٩٦٢، وجامعة جيتى بفرانكفورت

ألمانيا عام ١٩٦٨، وجامعة جنيف في العامين الدراسيين :
١٩٧٠-١٩٧١ و ١٩٧١-١٩٧٢، وجامعة مانهم عام ١٩٧١، وجامعة
باريس عام ١٩٧٣، وكان زميلاً لمعهد الدراسات العليا للعلوم السلوكية
عام ١٩٥٦-١٩٥٧.

ومع أن دويتش كان من أولئك الرواد الذين وضعوا بما قدموه من
أبحاث باقية لا تزول الأساس العلمى لدراسة السياسة الأمريكية
والسياسة الدولية فقد أبى أن يقصر جهده على أبحاثه بعيداً عن المجتمع،
ولم يكن بين علماء السياسة غير قلة هى التى تسهم بنشاطها فى
الأوساط العلمية المحلية والدولية، ففي عام ١٩٦٥-١٩٦٦ كان رئيساً
لجمعية العلوم السياسية فى نيوانجلند، وفى عام ١٩٦٩ اختير رئيساً
للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، وفى عام ١٩٧٠ كان نائب رئيس
ثم رئيساً للجمعية الدولية للعلوم السياسية. وكان عضو المجلس القومى
للبحوث، والأكاديمية القومية للعلوم من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٧٠،
ولم يكن هناك غير قلة من علماء السياسة هى التى تفوقه شهرةً فى
الأوساط العلمية، وكان موسوعياً فى إلمامه بكافة فروع العلوم الطبيعية،
وعندما رغبت جمعيات العلوم الطبيعية العمل مع رجال العلوم الاجتماعية
لم يجدوا خيراً من دويتش يرجعون إليه، وكان لا يملّ الحديث عن
جدوى العلوم الاجتماعية السلوكية، وبذل جهداً فريداً فى ربط العلوم
الاجتماعية بالعلوم الطبيعية، وكثيراً ما كانت تكلفه وزارة الخارجية ببعض
المهام، فأوفدته خبيراً إلى الهند عام ١٩٦٢ وإلى ألمانيا عام ١٩٦٤ وإلى

بولندا وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٧ وفي كافة هذه المهام، كان يسفر عن طاقة عقلية هائلة ونشاط بدني لا يكل، سواء أكان في كمبردج أم واشنطن أم طوكيو أم ريوديجانيرو.

وقد تمكن دويتش الذي درس علم الحكومات في هارفارد، كما درس في مسقط رأسه التاريخ السياسي من هذا الكم الهائل من المعرفة البعيد عن دراسة العلوم السياسية، وكانت دراسته الرائدة «القومية والإعلام الاجتماعي»^(١) (١٩٥٣)، فتحاً جديداً يتميز بالجرأة في بحثه لأصول القومية، وكان أن أقحم هذا السؤال: «لماذا تلقى الأفكار القومية هذه الإثارة في زمان ومكان معينين بينما لا تلقى مثل هذه الإثارة عند آخرين؟» ولماذا يؤدي النمو الاقتصادي إلى الوحدة القومية، بينما يؤدي في وقت آخر إلى الفرقة القومية؟ كما تناول بالبحث الدقيق تأثير القومية العنصرية على الحكومات، وراجع كل ما كتبه أقطاب العلوم الاجتماعية عن قيام وتطور القومية والأصول والمصادر التي رجعوا إليها في ذلك، وما عاق الفكر عن إدراك معنى القوة السياسية واعتماد القوة السياسية على الإعلام الاجتماعي «فهل كانت الأحداث التي جرت في العقود القليلة الأخيرة ترمى إلى وحدة عالمية أم أنها أدت إلى التمزق أكثر مما كانت؟» وأتى من تلك القوى ساد وسيطر في النصف الأول من القرن العشرين: أهو الاتجاه الدولي أم الاتجاه القومي، أهو الشرعية أم الثورية، أهو التسامح أم القهر، أهو السلام أم الحرب، ولا يرى دويتش أن الإجابة على هذا الحد من البساطة، أو التفرد، ولكن

العلوم الاجتماعية وحدها هي الكفيلة وحدها بتقديم إجابة مقبولة من بين كل الإجابات القائمة، فمؤرخو القوميات وفلاسفة السياسة هم الذين زودوا أصحاب النظريات بهذا الكم الهائل من البيانات التجريبية ووسائل الاستيعاب للأبعاد النوعية للقومية. أما ما نقصنا فهو المعايير الكمية، وحقائق التكهّنات.

وقد وقع موضوع القومية في ربة الفروع العديدة للعلوم الاجتماعية، فاللغويون يكتبون عن اللغات القومية، والجغرافيون يكتبون عن الإطار القومى للإقليم، والاقتصاديون يكتبون عن القومية الاقتصادية، مما يقتضى وضع تصوّر آخر، يشير إليه دويتش في كتاباته، فيقول: «إذا استطعنا أن نعثر على نسيج متكامل من التصور الفكري لكل فرع من فروع العلوم الاجتماعية له فحواه في تعريف القومية والانتماء القومى، فإننا نستطيع أن نتبين ما إذا كان هذا التصور الفكري في كل من هذه الفروع يتسق إجمالاً مع النسيج الذى يقوم عليه الواقع الاجتماعى الذى تعرض له كافة هذه الفروع وتخوض فيه» فمن علم الاجتماع يفرز دويتش معنى المجتمع والطائفة والطبقة، ومن الجغرافيا يتبين الميدان النوى وطبيعة المساحات، ومن علم اللغات يدرك الجماعات اللغوية والكثافة التى تقوم عليها لغة معينة، ومن علم الاقتصاد يعرف مصادر الثروة والبضائع والأسواق فى مكان معلوم، وأشار بأن تكون هذه التصورات جميعاً موضع الاعتبار عند دراسة هذه المواقع الثابتة، وحتى ندرك ما تسفر عنه الوحدة القومية فى إقليم ما، كنيجيريا فإن علينا أن نضع

خريطة ذات دوال عديدة تبين التجمعات السكانية وتحركاتها والتوزيع اللغوى ومراكز التجارة والتسويق والخدمات، ومناطق العصبية القبلية والطائفية ومضى يقول : إن هذا النسق لا يؤدى إلى معرفة الأسباب الكامنة وراء فشل بعض القيادات والحركات السياسية أو نجاحها، فى بناء وحدة قومية، ولكنه « يزودنا بخلفياتها، ومسدى الصعوبات التى تواجهها »

ففى إطار القومية والإعلام الاجتماعى، يتخذ دويتش من نظرية الإعلام أساساً للتعريف بالقوة السياسية « دليلاً على القدرة على وقاية الطاقة السلبية فى إطار الطاقة الايجابية المحدودة فى أى مكان » فالقوة قادرة على حماية أى نمط أو أى ترتيب، أو وضع ترتيب جديد لنظام ما، إذ أنها تقى البناء الداخلى فى أى نظام من التنافر بإجراء تعديلات كبرى بين الأنظمة المتصارعة : « فالسياسة... تقوم على إبراز، واستخدام، وتوزيع السلطة، كما تقوم على تحقيق التوافق الاجتماعى المتكامل والنمو المطرد بعيداً عن هذا الميدان المحدود للسلطة وحدها. » ويرى دويتش أن هذا التعريف العنيف الجامد للسلطة، أضيق من أن يدل على الحقيقة كاملة، عندما يغفل العوامل التى تقن السلطة.

فلماذا إذن بقيت السلطة مقيّدة أمام الوحدات العنصرية والإقليمية والقومية ؟ ويجب دويتش عن هذا السؤال بأن السلطة التى تفرض على الناس، تقوم على أمرين : « أولهما الحاجة إلى مجلس له بناؤه الداخلى المؤثر والمتكامل، وماضيه القومى لدى الفرد والجماعة، وثانيهما، أن يكون

لهذا المجلس ومسائله التي تتيح له نوعاً من التأثير على تناقضات البناء الداخلي، ليقم منه بناءً مستوياً أمام العالم الخارجي»، فالمصدر الأساسي للسلطة السياسية في أي مجتمع، إنما يقوم على ما يلقاه الإعلام الاجتماعي من تيسيرات، والقدرة على إثارة الذكريات والقيم وبعثها من جديد. وتؤدي هذه التيسيرات إلى تحويل الناس إلى جماعة للإعلام الاجتماعي، ويمكن لهذه الأفكار الكمية أن تطبق على الإحصاءات الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية للتكهن بالتوافق أو التباين القومي، والعامل المؤثر في هذا هو الحراك الاجتماعي الذي يصاحب التقدم التجاري والصناعي ونمو المدن وقد يدلّ في النهاية على قلة عدد الأميين ونمو وسائل الإعلام بين الناس فالقومية وقد زادت الثورة الصناعية قوة، قد فصلت بين الشعوب، ولكنها في الوقت نفسه أخذت تغذّي السير بها إلى وحدة عالمية أكبر مما عرفها الماضي على امتداده التاريخي. وإن تعثّر بها طريق التواصل الاجتماعي والثروة القومية، ويختم دويتش دراسته بالعبارة التالية: «لن تغرب شمس القومية. ولن يزول التباين بين الشعوب، ما لم نصل إلى تلك الشعوب الغفيرة التي تعيش في القاع، وما لم نخفف من وقر الظلم والخوف، أو نقضي على الفقر المتفشّي في آسيا وأفريقية عن طريق التصنيع أو نعمل على رفع مستوى المعيشة ونشر التعليم»

وفي هذا الميدان من ميادين البحث في القومية والإعلام الاجتماعي يبرز اهتمام دويتش الدائم بالتكامل السياسي، في كافة مؤلفاته: «الجماعة

السياسية وساحة شمال الأطلنطي^(١)» (١٩٥٧)، و«القومية وبدائلها»^(٢) (١٩٦٩) و«القومية والتطور القومي: دراسة بيلوجرافية مشتركة»^(٣) (١٩٧٠) و«تطابق القانون الدولي»^(٤) (١٩٦٨). ويتم تفكيره عن نزعة تجريبية، واتجاه إلى طرق علم الاجتماع والوسائل الإعلامية التي تتخطى حواجز القومية في الوقت الحاضر.

ففي كتابه «الجماعة السياسية وساحة شمال الأطلنطي» نراه يتناول مع مساعديه، المسار التاريخي لكل من ألمانيا، وإمبراطورية الهابسبورج، والنرويج والسويد. والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، في تصوّره لإقامة جماعة سياسية كبرى، وقد تم هذا البحث تحت رعاية «مركز أبحاث المؤسسات السياسية العالمية» الذي أنشأته جامعة برنستون عام ١٩٥٠، وزيادة على البحوث المتناثرة كالبحت الذي قام به «روبرت أ. كان» عن «إمبراطورية الهابسبورج: دراسة في الاندماج والفرقة» يقوم المركز ودويتش بالذات بدعم التعميمات المقارنة عن الجماعة السياسية، وتأييدها، وكل ما كان ينشده المركز مع دويتش. رائد هذه النظرية أن يضع حدًا للحرب بالتوسع في هذه الجماعات السياسية والعمل على تنميتها. وخاصةً فيما يتعلق بساحة شمال الأطلنطي. ويشير دويتش إلى

Political Community and the North atlantic area.

(١)

Nationalism and alternatives.

(٢)

Nationalism and National Development: an Interdisciplinary Bibliography.

(٣)

The Relevnace of International Law.

(٤)

أن الحرب قد امتنعت لأسباب عملية في مناطق عديدة يقول عنها إنها جماعات سياسية أو «وحدات اجتماعية يغذيها إعلام سياسي، وقوى آلية دافعة، ونوع من التوافق في الطباع والعادات العامة» وإن لم يتسن لكل جماعة سياسية، أن تحول دون الحرب إطلاقاً (وقد عانت الولايات المتحدة نفسها من مأساة الحرب الأهلية). فإن منها ما استطاع أن يحقق الاندماج السياسي عن طريق جماعات الأمن، ويرى دويتش: «إذا ما تم اندماج عالم حقيقى كجماعة تنشُد الأمن فإن الحروب ستنتهى تلقائياً» كما كان دويتش يفرق بين الجماعات التي قامت وحدتها نتيجة اندماج وحدتين أو أكثر من الوحدات المستقلة فى حكومة موحدة أو اتحادية (كالولايات المتحدة مثلاً). وأغلبية جماعات الأمن التي استعادت حكوماتها المنفصلة استقلالها الصحيح (ككندا مثلاً، والولايات المتحدة فى إطار الحقوق المشروعة لكل ولاية). وجدير بالمنظمات الدولية القائمة أو من يخططون لها أن يلموا بالإجراء الذى أدى إلى قيام جماعات تنشُد الأمن «إذ أننا نعى بالاندماج الإحساس «بالجماعة» داخل حدود معينة، وكذلك الإحساس بالمؤسسات والممارسات إحساساً كافياً وشاملاً، بما يكفل لأمد طويل توقع أكيد «لمتغيرات سلمية» بين أفراد الجماعة.

وقد اختار دويتش ساحة شمال الأطلنطى ليقرر ما إذا كانت تستطيع أن تؤلف جماعة، وحدد هذه الساحة جغرافياً بالبلدان الواقعة شمال المحيط الأطلنطى، أو بحر الشمال، أو المناطق التى تحيط به، وأخذ يتفحص بعض التصورات السائدة عن الاندماج السياسى، ويمعن النظر

في تلك الأفكار الجارية التي ترى في المواصلات السريعة والإعلام الذي يسم حياة العصر ما يجعل الاندماج أمراً محتملاً، ويرى أنه: «لا دراسة أحوالنا، ولا تلك البيانات المحدودة عن هذا العدد الكبير من البلدان مما يوحي بأى تأييد لتلك الأفكار الجارية» وعندما رأى بعض الحالات القليلة التي نجح فيها توحيد دولتين أو أكثر من الدول ذات السيادة في الوقت الحاضر، فقد تساءل عما إذا كان الحذر من الفوضى أو الخوف من الحرب هو الحافز الأصيل لهذا الاندماج السياسى. ومع أنه قام ببحث بعض الأفكار الشائعة عن الاندماج السياسى، فإنه يؤكد أن الوحدة للأمن والوحدة بالاختيار لهما جذورهما التاريخية في اتجاههما إلى الاندماج، والاختيار (كندا والولايات المتحدة) دون غيره هو الاتجاه الصحيح للوحدة طالما كان على الأقل، له مثل هذا الأثر في تحقيق السلام بما حققته من اندماج جماعاتها، ولم تبد شعوب شمال الأطلسي من الاستجابة ما يكفي لاندماج سياسى، وإن رأى دويتش أن التعلم الاجتماعى (معلومات أكثر وتواصل أقوى) يسرع بذلك، ولكنه يدعو بالتالى إلى تبادل علاقات أوسع مدى كالاتفاقيات التجارية والتبادل السكانى الواسع والعلاقات الاجتماعية القوية، وقد سلمت دول شمال الأطلسي ماعدا أسبانيا والبرتغال بثمانية شروط من أربعة عشر من شروط الاندماج. وهناك من الخبرات العملية ما يعزز الاتجاه إلى الاندماج كالاتحاد الأوربي للفحم والحديد. ولكن كيف يتسنى للناس أن يعرفوا أن الاتجاه إلى الاندماج يسير في طريق عكسى؟ ويرى دويتش أن الإبهام ناجم من التحليل الكمى لأطراد التعامل الاجتماعى

فيما بين البلاد كالعلاقات التجارية وشئون البريد، ففي التجارة يرى «أن الجانِب الغربى من القارة الأوروبية لم يَقم بأى محاولة ظاهرة لوحدة اقتصادية تيسّر تدفق التجارة فيما بينها حتى عام ١٩٥٢..... وبالأحرى فإن معظم التجارة الأساسية يتدفق من الدول الكبرى نحو البلاد الناطقة بالإنجليزية» أما نقل البريد داخل بلاد شمال الأطلنطى، «فإنه لا يتم فيما بينها ولكنه لا يتم منها إلى البلاد الناطقة بالإنجليزية أيضاً» وإن كانت المراسلات البريدية فى تلك الفترة المعنية أكثر يسراً فيما بين البلاد الأوروبية مما كانت المبادلات التجارية إلا أن البيانات - كما يقول - كانت مهوشة لا تفصح عن بينة، وإن تبين من دراسته أن المبادلات التجارية كانت أضخم فيما بين بلدان شمال الأطلنطى منها فى غرب أوروبا عامة مما يعنى أنها كانت أكثر تكاملاً منها فى الثانية.

أما «القومية وبدائلها» (١٩٦٩) فقد كتبه دويتش للقارئ العادى منه إلى العالم المتخصص، فيبدأ بعرضه للقومية فى غربى أوروبا وينتهى بها إلى شرق أوروبا والعالم الشيوعى فالدول النامية والاتحادات الإقليمية، قد تشابهت خطواتها فى كلٍّ منها إلى حدٍّ بعيد، فالتطور القومى كان على وجه الإجمال اندماجاً سياسياً ناجحاً إلى حدٍّ ما «فعندما اتحدت شرائذ السكان نتيجة تعاملها مع بعضها البعض فى مكان ما، أو بسبب شبكة من الطرق تربط بينها، أو مواصلات أكثر يسراً، أو نشاط اقتصادى أعم، فإن الناس أخذوا يفكرون فى ذواتهم كأبناء بلد واحد»، والبلد كما يراه دويتش أرض تتكامل باعتماد بعضها على بعض، فأثمان

الأرض والأجور وتكلفة البضائع والخدمات، يتصل كلُّ منها بالآخر تماماً، كما يشعر الناس فيه بالمصير المشترك، فتتوحد اللغة، وتصبح الصفوة الاجتماعية عنواناً للمجتمع، ويتحوّل الشعور القرابي من إطاره القبلي إلى إطاره القومي، وتتشابه العادات، ويزداد اتصال الناس بعضهم ببعض، وتندمج الوحدات الإدارية المنفصلة في وحدة سياسية، ويفسر «الدولة القومية بأنها دولة يتميز فيها الناس بأنهم شعب واحد» وتم التعبئة الاجتماعية عندما يلفح التمدين الناس، وتقوم وسائل الاتصال بإعداد النظارة والمستمعين، ويصبح لكل شيء قدره، وينتشر التعليم وتتسع المهن غير الزراعية ويتجه الناس إلى الحضر، ويزداد عدد المأجورين، كما تتزايد الهجرة الداخلية، وللقومية نقائضها، فتعلو سلطة الدولة وتتضاءل النظرة الواعية لكل من المشكلات المحلية والعالمية، إلّا أن التمثيل القومي واللغوي في أوروبا الشرقية وفي البلدان النامية، وخاصة فيما بين الأقليات القائمة، لم يتم كما يجب، وبقي البناء القومي ناقصاً، فإذا كنا ننشد التميز القومي فإن علينا أن نعود إلى الصرب في بداية القرن العشرين حين أورت نيران الحرب العالمية الأولى، ففي بعض الأحيان كانت نشأة القومية في شرق أوروبا دعوة زرية إلى بلقنة الدولة العثمانية، وأصبحت أمراً مؤسياً، ويستشهد دويتش بعبارة جون ديكنسون التي يقول فيها: لخير للأحق أن يرتدى قيصره بنفسه من أن يُلبسه أياه عشرة من العقلاء.

ولم تكن القومية في مثل تلك البلدان كشرق أوروبا هي البديل الوحيد ففي فترة ما بين الحربين، «غدت حكراً وامتيازاً للقلة مغلفة

بوهم الخوف من الفقر» وكان الامتعاض الذى ساد شرق أوروبا من الظلم الاجتماعى، والرغبة فى التميز الذاتى قد وجد متنفسه فى الحركات الشيوعية، وغدت القومية والشيوعية سندًا لبعضهما البعض، فلم تلغ الشيوعية الدولة القومية، وعبر الحدود الفاصلة للصراع بين الشرق والغرب يلتقى العالم الشيوعى والعالم غير الشيوعى وجهًا لوجه فى كفاحهما لحلّ هاتين المعضلتين المزمنتين فى العالم : القضاء على الفقر والجهل، وقيام الدول القومية على التفاوت والخوف والشك وترقب الحرب، فلما تعذر استيعاب المعضلتين، تقدم دويتش بنداء لكل من الشرق والغرب أن يعترفا بفشلهما « وأن يرشدانا إلى تجنب هذا الصراع القاتل بين أيديولوجيتين مختلفتين وإن تساوتا فى الجهل » وكان البديل فى آسيا وأفريقية للشيوعية قيام ديكتاتوريات محلية تسندها حكومات أجنبية وتعتمد على المعونة الخارجية « والخطر ماثل من أن تتواءم كل من القومية والشيوعية فى تيار جارف من الكراهية للغرب، وطوفان عام من العداء يهدّد مواردنا وقوتنا البشرية المحدودة تهديدًا خطيرًا مما يجبرنا إلى سلسلة من الصراعات لا يعرف مداها » ومن الجدير بالملاحظة أن دويتش، وهو الأوربي، كان يرى فى محاضراته التى يلقيها على الأمريكين أن الديمقراطية دون غيرها من ألوان الحكومات هى الباقية ما بقى الذين يستظلون بظلها أحرارًا طلقاء يبدعون ويتعلمون.

لذلك كان ما قدمه دويتش إلى الباحثين وأصحاب القرار ذا شقين : أولهما إيمانه الذى لا يريم بالديمقراطية كخير ما ترنو إليه

البشرية، في كل ما كتب سواء فيما كتبه عن القومية وفيما كتب من تحليلات، ككتابه «قوة الحكومة»^(١) (١٩٦٣) و«السياسة والحكومة: كيف يقرر الناس نصيبهم»^(٢) (١٩٧٠) وكتابه «حلف الأطلسي والحد من التسليح»^(٣) (١٩٦٧)، وثانيهما أنه خط على صفحة العلوم السلوكية تصوراً جديداً للفكر والتحليل، وكانت كتبه مجالاً بصورة تقل أو تكبر لبحوث الدارسين، منهم «بروس م. رسيث» و«هوارد ر. الكر» وإلى حد ما «دافيد سنجر» كما نحس في كتاباته هذه النغمة الإنسانية السافرة، وقد ورثها عن الفكر الأوربي القديم، وهذا الاهتمام البالغ بمستقبل الإنسانية، وكان كأكثر رواده عالماً اجتماعياً لا يشق له غبار في أسلوبه الفني وإن كان أكبر من أن يقاس بذلك، فقد استطاع أن يزاوج بين الأسلوب الفني الجديد في تناول العلوم الاجتماعية والتصور التقليدي القديم للفلسفة السياسية والنظرية الدولية، وفي هذا فهو جدير بأن يكون من سادة الفكر.

Nerves of Government.

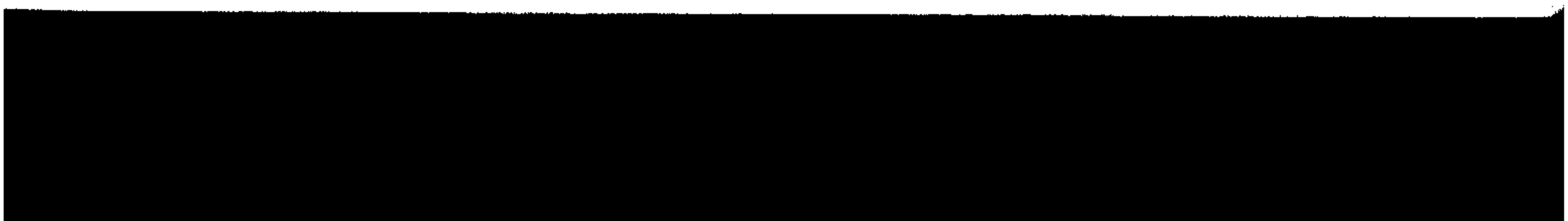
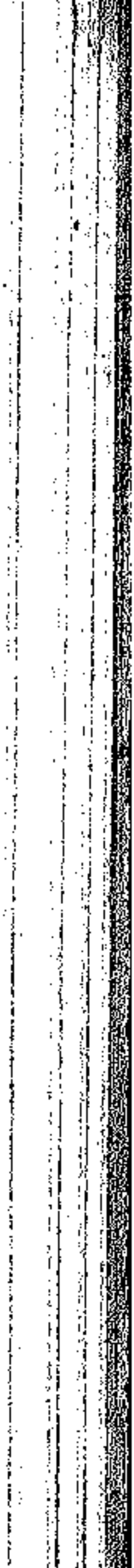
(١)

Politics and Government: How People decide their Fate.

(٢)

Arms control and the atlantic alliance.

(٣)



الباب الثالث

الصراع وأزمة العصر

لقد أعدّ رجل العصر نفسه لحياة يوتوبية، إلا أن العالم في حقيقته ملئ بالصراع والأزمات التي لا تنتهى، وما من صراع أشدّ كثافة وما من أزمة أبعد غورًا من الحرب الباردة، مأساة القرن العشرين الكبرى، فصراع العصر ملئ بالأحن تحف به المتناقضات من كلّ جانب، يتمّ عن مشكلات لا حلّ لها وصراع من القيم، فالرجال ممن لقنوا التفكير في النصر أو الهزيمة عليهم أن يعيشوا الضّرّ والبلوى، فإن ما تقوم عليه الحرب الباردة غير ما تقوم عليه الحرب حيث تتقارع الشعوب والأسلحة لمأرب واحد. والحرب الباردة أقرب إلى مكنون المأرب الإنسانية، فالصراع لتحقيق الذات والأمن والتسليم بما هو واقع صراع لا ينتهى، والمأرب الواحدة في دنيا السياسة محدودة وخاطئة ومبهمّة ولكنها تفرق بين الناس والشعوب، والحرب كالمباريات الرياضية، النصر والهزيمة صورتها ومعيارها، والسياسة والحرب الباردة أقرب في التعريف بهما إلى الكفاح الذى يصفه «والت هوبتمان» بأنه زاد لطبيعة الأشياء عندما يحدوها الأمل إلى النجاح دون اعتبار لما يحدث فيجعل

من هذا الصراع الأكبر أمراً ضرورياً»

وقد حاول بعض قادة الفكر، كلٌّ على نهجه، أن يضعوا صورةً جليةً لطبيعة الصراع القائم بين الشرق والغرب، وإن اختلف الأمر بينهم فقد اتفقوا جميعاً في فروضهم الأساسية وفي نظرتهم العالمية، ورأوا أن على رجال السياسة أن يمارسوا عملهم في دنيا لا تنم إبداءً عن عالم يوتوبي، بل هي دنيا من دول قومية لها سيادتها في تنظيم دولي مبتسر ألت بها الأخطار منذرةً بتفاقمها منذ عام ١٩٤٦، وأصبحت أسيرة موقف عسير، وحتى تصون أمنها أخذت تعدّ للحرب وهي تعرف أن مثل هذه الحرب كفيلة بالقضاء على أى أمل في بقاء البشرية مما حمل أربعة من الكتاب على تأييد الوسائل الدبلوماسية والدعوة إليها، والإلتزام بتوازن القوى، والعودة إلى تلك الحكمة القديمة «ما يستغنى به الحاضر شئلاً بعد» وأن يكون بقاء البشرية المحور الذي تطوف حوله القيادة.

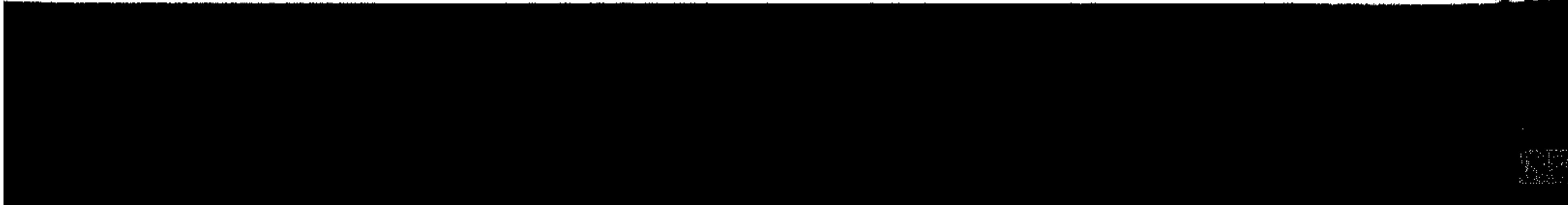
ومن هؤلاء الأربعة كان «والتر ليبان» وقد وصف بأنه «أعظم صحفي ترك بصماته جلية في القرن العشرين» وكانت كتاباته من القوة والجلال، بما لا يدع لأى سياسى قدرة على مجاراتها، وقد بدأ حياته في الميدان الدولى، يتابع فكر ويلسون، ويدعو إلى الاشتراكية، وكان من ناقدى سياسة ويلسون (التي تغفل آفاق السلام السياسية وتغضى عن إطاره الإقليمى)، كما كان محافظاً حين يعرض للتقاليد والإجراءات الاقتصادية، وداعياً إلى التسوية السياسية بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، ثم كان في أيامه الأخيرة من دعاة القانون الطبيعى والرشد

السياسى، و«جورج كينان» وقد جمع هو الآخر بين العمل فى وزارة الخارجية، والاشتراك فى مسابقات التاريخ السياسى، ولا يقلّ مهارةً فى الكتابة عن ليجان، وكان فيما يدعو إليه من سياسات وما ينشط إليه من تأييد موقف معين واضحاً وصريحاً، وكثيراً ما كانت أراءه تبهم على مواطنيه، فلا يدركون ما يقصده، ومن قبيل ذلك موقفه من سياسة الاحتواء التى وضعها الرئيس ترومان حين دعا كينان إلى إعلانها دون تحفظات، ولم يكن له ضريب بين الكتاب فى إصراره وقدرته حيث يدعو إلى الاعتدال أو الشدة فى السياسة الخارجية.

أما لويس هال فقد بدأ حياته واقعياً مغرقاً فى واقعيتها والتحق بخدمة وزارة الخارجية عضواً فى هيئة التخطيط للسياسة الخارجية، ويعتبر كتابه «الحرب الباردة كتاريخ» قواماً للواقع السياسى، كما كان كتابه «بعيداً عن التشوش» جولة فى التاريخ العالمى على غرار ما كان «أرنولد توينبى» و«أزفلدشبنجلر» فى تاريخ العالم، وما من معلق فى أمريكا أو أوروبا قد اتخذ من الماضى حجةً عقلية قوية غالبية فى عرضه للأزمة فى إطارها التاريخى.

وآخر الأربعة «ريموند آرون» ويدعى «والتر ليجان الفرنسى» وكان لعموده الصحفى أثره التاريخى والاجتماعى البارز، وعندما كان أستاذاً فى السوربون، وأصدر كتابه التذكارى «الحرب والسلام» وبما عهد عن الفرنسيين من صراحة، استطاع أن يقدم هذا الإطار التحليلى لدراسة أزمة العصر واستيعابها دون إهمال للمعايير الأساسية للسياسة الدولية.

فإذا جمعنا بين هؤلاء الأربعة الكبار فإنهم يزودونا بصورة متكاملة لأزمة العصر.



المعقول والرشد
السياسى

ولتر ليبمان (١٨٨٩-١٩٧٤)

ولد ولتر ليبمان بمدينة نيويورك فى الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٨٩ وتوفى الرابع عشر من ديسمبر ١٩٧٤ فى الرابعة والثمانين من عمره، وقد هاجر آباؤه من ألمانيا قبل نصف قرن من هجرة يهود شرق أوربا ممن كانوا يرونهم أدنى منهم، وقد يفسر ذلك ما نسب إليه من اللامبالاة بالمسألة اليهودية، ولإيمان أبويه، جاكوب وديزى ليبمان، بقيمة التعليم، ألحقاه بمدرسة الدكتور جولياس ساش الأكاديمية فى منهاتن، وصحباه إلى أوربا، وشجعاه فيه ميله المبكر إلى الفن والنقد الأدبى وفى عام ١٩٠٩ تخرج فى هارفارد حيث لفت إليه أنظار «جورج سانتيانا» و«وليم جيمس» واستمر فى دراساته العليا أربع سنوات آخر درس فيها الفلسفة، وبقيت صلاته بجامعة هارفارد لا تنقطع طوال حياته، وكان عضواً بمجلس العرفاء بها من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩.

ومنذ بواكير حياته عرفت أمريكا له قدرته الصحفية والسياسية، وفى أوربا كان على صلة بكبار مفكرىها، من أمثال «ه. ج. ويلز» و«جورج برناردشو» و«جون مانيارد كينز» و«برنارد بيرنسون» و«هارولد

نيكلسون»، وقد اكتشف فيه «لنكولن ستيفنز» المؤرخ والناقد الاجتماعي «العقل القادر على التعبير في كتاباته عما يدور بخلده.. إذ يدرك تمامًا كل معنى ألم به وتعلّمه» ورأى فيه الليبراليون والمفكرون الاشتراكيون شعاعًا جديدًا يشرق بضوئه، والتحق بالجمعية الفابية، وفي الرابعة والعشرين من عمره، دعاه «هربرت كرولي» للعمل في صحيفة «نيوربيلك» ونشر «أشعار بول ماريت»^(١) (١٩١٣) و «مقدمة للسياسة»^(٢) (١٩١٣) وقد عدّه «أرنست جونز» مؤرخ سيرة فرويد أول تطبيق للفرويدية على السياسة، وكتاب «التبعية والقيادة»^(٣) إلى جانب العديد من المقالات والموضوعات التي نشرها في «نيوربيلك» منها مقالة عن «الإرغام والأفكار»^(٤) في عددها الأول.

ولم يقف جهد ليهان في بواكير حياته تلك على الإنتاج الأدبي، فقد كان النشاط السياسي، وإن كان خفيًا حينذاك خلة من خلاله طوال حياته، وإن كان قد حذر زملاءه من الصحفيين من الاقتراب من رجال السلطة، فقد لجّ لجًا عنيفاً عام ١٩١٦ في تأييد مجلس الشيوخ لترشيح «لويس د. برانديز» للمحكمة العليا، وساعد على تحويل «آرثر فاندنبرج» إلى الدولية، وأيد تعيين «ماك جورج بسوندي» وزيراً في حكومة «جون ف. كيندي» وعرف بنشاطه في هارفارد، فلما ارتحل إلى

Poems of Paul Marrett.

(١)

Preface to Politics.

(٢)

Drift and Mastery.

(٣)

Force and Ideas.

(٤)

نيويورك عام ١٩١٢ ليعمل مع عمدتها الاشتراكي المتدين «جورج ر. لند» فستل عن مقود حبه، قال: «إنه العالم الحى» وفي الحرب العالمية الأولى أدى الخدمة العسكرية نقيباً فى المخابرات الحربية، وعمل مع المقدم «إدوارد. هارس» و «إيزيا بومان» فى وضع شروط الصلح الأمريكية (وقام بإعداد ثمانى نقط من الأربع عشرة نقطة) واشترك بعدها فى مؤتمر الصلح بباريس. وبقى يشارك فى تحرير «نيو ريبليك» حتى عام ١٩٢١. وكانت فترة من النمو الفكرى الهادئ. مرّ فيها تفكيره بالعديد من المتغيرات، يكتب عنها «أرثر شليزنجير. الأصغر» فيقول: «أما وقد ولد فى ذلك العهد الفكتورى الهادئ عام ١٨٨٩، ليجد نفسه فى مواجهة عصر يجيش بالتقدم، فاعتنق الاشتراكية قبل أن يبرح هارفارد عام ١٩١٠، إلّا أن اشتراكته سرعان ما تلاشت ولم تجمد، فخلفت وراءها فضلةً بدت فى صورة من الإيمان بضرورة التخطيط العقلى وسداد النظرة للتحكم فى فوضى المجتمع الحديث البادية» وكان مؤمناً، قبل أن يكتب ذلك، بأن الناس يعيشون حقبةً ثائرةً حافلةً بالقلق، تمرّ فيها القيم بنوع من التغير البعيد لا يدرك مداه، وصرح فى كتابه «مقدمة إلى الأخلاق»^(١) (١٩٢٩) أن «أحماض التمدين» تذيب القيم السائدة، وقد رأى فى حملة «تيودور روزفلت» عام ١٩١٢، أول جهد سياسى من نوعه يتصدّى لتحديات النظام الصناعى، إلّا أن حماسه لروزفلت تضاعل برودة روزفلت إلى العدوانية، ومن بعد جاء «ودرو ويلسون» ليرى فيه

هو وصحبه أمل أمريكا إن لم يكن أمل الإنسانية جمعاء. إلا أن الانحراف والعمل الذي لا يقوم على خطة في الديمقراطيات يضرّ بالمجتمع، وتعرض الحكومة النيابية للخطر إذا ما فشلت في توجيه الموارد القومية توجيهاً مثمراً يتواءم مع المتغيرات الحادة لهدف محدّد مرسوم. وقد أصيب الكونجرس بالخلل ويحتاج إلى تنظيم جديد. وإلى ما قبل السبعينيات بزمّن طويل حين كانت رئاسة الجمهورية موضوعاً للنقاش. حذر ليمان من هذا النشاط المحموم في المركز والقصور البادى في كافة الجهات الأخرى، والرئيس مثقل بكلّ أعباء الطاغية المحسن، ولكنه يأبى أن يجعل السلطة ذات أثر بين. ويكتب ليمان :

«إننا نتوقع من هذا الإنسان الفرد أن ينطلق بلسان الشعب وأن يصوغ مطالبه، وأن يضع لها البرامج الكفيلة بتنفيذها كما نتوقع منه أن يلقي بها وبالبرامج المعدة لها إلى هذا النظام الحزبي المتطفل، وأن يحمل حزبه على تأييدها، وأن يبدع نظاماً إدارياً هرمياً عفاً طاهراً يحقق له أهدافه وخططه. ونتوقع منه أن يلقي نظرة إلى الروتين الذي يسيطر على اهتمامات الجماعة، وأن يعدّ للمستقبل وأن يكون له نصيب في كلّ ما يبدر. وما من إنسان يستطيع أن يقوم بذلك».

ومن الواضح أن ما كان يحدوه في كتاباته الأولى إيمانه بدور الاشتراكية في التخطيط، وكانت هي الصدى لروح العصر، إلا أن هذه النظرة العامة كانت تخفى وراءها نزعة أصيلة للمحافظة، وتأييداً للنظام

وإيماناً بهدى العقل وبقي حفيظاً على هذه النزعة في مؤلفه الأخير الكبير «الفلسفة العامة»^(١) (١٩٥٥) (وهو كتاب لقي، على غير المؤلف القليل من التقريظ) ويتناول «هانز ج. مورجنتو» في عرضه للكتاب، ما طاف به من آمال في وضع مستويات موضوعية تغلف العمل السياسي وتحده، فيقول :

«إنه كتاب يبعث الأمل النبيل في إحياء مثالية القرن الثامن عشر العقلية، والإعلاء من شأن العقل لتغيير الفلسفة التي يحتذيها الناس ويعيشون حياتهم عليها، فالسيد ليبمان يؤمن بأن الناس قادرون في سلوكهم وأفكارهم السياسية على أن ينهجوا مؤمنين منهجاً عقلياً طيباً، وأن هذا الاتجاه هو الأساس الثابت لفلسفة عامة، وقد حاولنا هربرت بترفيلد، ورينولد نيبور وأنا وآخرون غيرنا، أن نبرز مدى ما يحيط بالعلاقة بين العقل والسياسة من خلط وإبهام بأكثر مما ساقه ليبمان بإيمانه العقلي المتواضع».

ويعترف مورجنتو أنه غالى كثيراً في نقده وفي تقريره لهذا القصد، إلا أن عقلية ليبمان السياسية كانت ركيزة كتاباته، ففي مقاله في أول عدد من أعداد نيو ريبليك، يبدأ بقوله : «ما من إنسان عاقل إلا ويدرك تماماً أن بناء مدينة أصعب بكثير من هدمها، وأن فلاحه حقل

أكثر جهداً من تخريبه، وأن غزو شعب أيسر من رعايته والقيام على خدمته» وأمل الإنسان في أفكاره لا في بنادقه ومدافعه، وأفكاره وحدها هي أعظم سلاح لقهر النزعة إلى الإرغام، وعقل الإنسان هو الذى يعنى معنى السلاح وهو الذى يقرر حشد الجيوش وتسليحها، والناس هم الذين يقيمون ترسانات الدمار حتى اتسعت إلى حدٍّ لم يعد في قدرتهم السيطرة عليها. إلا أن هذا الإنسان هو القادر وحده، إذا ما أراد، في المستقبل على قمع الحرب وهو الذى يتخذ القرار بالقضاء عليها، وعليه أن يصون الحضارة فلا يتسنى لأى آلة أن تكون أداة للغدر بها. وإن احتاج ذلك إلى عقل كبير ليصنع المحراث كما يصنع السيف، وإن كان عليه أن يتسلح بقم إنسانية عليا قبل أن يفضل صناعة المحراث على السيف.

وقد بدأ ليبمان مساره العقلى بتلك الأفكار التى قامت صحيفة نيوربيك تدعو إليها: الاشتراكية. والويلسنية، ومعارضة توازن القوى، ويكتب فى السابع والعشرين من يناير ١٩١٧: «لم يؤد توازن القوى إلى صيانة السلام فى أوربا، ولن يتحقق له ذلك، وحين كَوّن الرئيس ودرو ويلسون جماعةً من الأخصائيين للإعداد للسلام بعد الحرب العالمية الأولى اختاره سكرتيراً لها، وأسهم فى وضع النقاط الأربع عشرة، وعاون فى كتابة الديباجة الرسمية التى عرضها الكولونيل هاسوس فى المفاوضات التى سبقت الهدنة. وأيد اتجاه الرئيس ويلسون فى اعتباره أن هدف الحلفاء من ألمانيا أن يكونوا «صانعى سلام وليسوا أرباب فتح»

وأن تسوية ما بعد الحرب يجب أن تقوم على الوفاق بين القوى دون العمل على توازن القوى.

وبعد ما كتبه هذا بأقل من شهر، حاول في السابع عشر من فبراير ١٩١٧، أن يحذر الرئيس من أن الأخلاق والشرعية لا يكفیان وحدهما، وألا غناء عن استراتيجية فعالة للحرب والسلام. «فالشعوب الضعيفة هي التي يسيل لعابها للحرب» ثم أضاف: «ولا تدري لماذا، ولا كيف ولا أي الأمرين» وليس هناك من يستطيع أن يدين الحصار البريطاني، أو حرب الغواصات الألمانية طالما يدين الحرب عامة، وعلى أية حال، فإن الاختيار بينهما، لا يعنى أن تختار الولايات المتحدة الشرعية على اللاشرعية أو الرحمة على القسوة، ولكن كما يقول «إذا كنا لانرضى بانتصار ألمانيا، فإن ذلك لا يعنى أن نغلق البحار في وجهها، وأن تبقى مفتوحة في وجه الحلفاء» وفي عبارة يتوقعها من «كينان» يعلن: «نحن قوم لا نرضى بغير الشرعية، وقد حجبنا اتجاهاتنا الحقيقية في غلالة من المصطلحات الفنية... فنحن ننشد مساعدة الحلفاء، ونريد أن نعوق ألمانيا، إلا أننا نود بالتالي أن نبقي بعيداً عن الحرب، ولهذا انسأقت حكومتنا إلى الخلط بين هذه المصطلحات الفنية والنقطة الفاصلة، وحجبنا مرامينا اللاحيادية تماماً في أردية من تعبيرات الحياد». ويرى ليبان أن ما يحارب من أجله الأمريكيون هو أمن الأطلنطي وسلامته:

«لماذا؟ لأن على ضفتي الأطلنطي اتسعت شبكة المصالح البالغة

تجمع إليها العالم الغربي كله، بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وحتى أسبانيا وبلجيكا وهولندا والشعوب السكندنافية مع الجماعة الأمريكية في وحدة تامة من المصالح الهامة.... وهي مصالح تربط بينهم جميعاً في هذا المحيط الذي يصل بينهم... فإذا انهارت هذه المجموعة فإننا لابد وأن ندرك مدى خسارتنا، ومن ثم فإن علينا أن نعى تماماً ما تعنيه حدود كندية مفتوحة، والحماية المشتركة التي تضطلع بها الأساطيل البريطانية والأمريكية لأمريكا اللاتينية»، فإذا كانت ألمانيا قد نقلت ميدان الحرب إلى الأطلنطي، عندما خرقت حياد البلجيك في غزوها لفرنسا، وضربها لبريطانيا ومحاولتها إزعاج الولايات المتحدة، فإن الحياد عملاً وقولاً يغدو لغواً بعيداً عن الحقيقة، وإذا انتصرت ألمانيا في أعالي البحار فإنها تتزعم الشرق ضد الغرب، وبعد ذلك تقود التكتل الألماني الروسي الياباني ضد دول الأطلنطي، وينقلب ميزان القوى إلى صالحها، وهو ما لا تقبله الولايات المتحدة.

وبعد ذلك بعامين، وفي الثالث من سبتمبر ١٩١٩، انفصم تماماً ما بين ليمان وويلسون، فعلى الرغم من تقادم العزلة الأمريكية، فإن ليمان يتساءل عما يمكن أن يحل محلها، ويعلن ويلسون: «إن ما جرى لم يدر في خلدنا من قبل، ولكنها إرادة الله.... ولا نستطيع أن نعود إلى الوراء، وعلينا أن نمضي قدماً بجباه مرتفعة، وأمل غامر لتحقيق هذه الرؤيا» إلا أن ليمان يرى مثل هذا الرأي أشبه بما كان يروى منذ إحدى وعشرين عاماً من أنه لا يستطيع أن يعود إلى الوراء وأن عليه أن

يمضى قدمًا لتحقيق رؤياه، ولكن أية رؤية، وأين؟ وبلغته الواضحة، يتجه إلى الرئيس شارحًا رأيه:

«من الملامح البالغة لفكرة اللاعزلة الجديدة أنها تقود إلى الدمار، فالفكرة القديمة كان لها على الأقل معالمها البارزة، أما الفكرة الجديدة فلا تعدو كونها انحرافًا إلى خط جديد غير محدد، ولهذا، فإنى أرى أنها لا تعدو ما كان في العام الماضى، فإذا كنا قد اخترنا أن نكون «شركاء» فإننا قد نسينا أن نحدد، وقررنا أن يكون لنا دور فى الشؤون العالمية، إلا أننا فى فرحتنا قد نسينا أن نعرف إلى أى مدى وفى أى وضع».

وقد عادت هذه الفكرة إلى الظهور عندما أخذ لييمان يندد بسياسة احتواء الشيوعية فى شتى بقاع العالم.

واستهدى لييمان صوت العقل فى عالم مكفهر غاضب خال من الرشد. وهناك سمتان ثابتتان فى كتاباته جديرتان بالتنويه: اعترافه بالتغير والاستمرار، فقد أجمل رسالته فى محاولته الوصول إلى تعريف محدد للخلل المتزايد الذى يسود المجتمع الغربى، وفتح من جديد باباً للحوار حول المسائل الكبرى، وأخذ يعيد النظر فيما كان من احتمالات بما فيها احتمالاته هو نفسه، يجاهد جهادًا عنيفًا فى عصر تسوده الفوضى وحيث «دوامة السرعة هى الملك المسيطر» كما يقول أريستوفان، ليحمل الناس إلى مرفأ للفكر أمين، ينشد لهم حقائق ثابتة لا تتغير تصبح أساساً لحياة رصينة.

وليس هناك من يمارى فى أنه أحسن صحفى عصره ولربما أقواهم
تأثيراً وما من ضريب له فى كتاباته الصحفية - كما يرى آرثر شليزنجير
الصغير - (وخاصةً عموده اليومي : اليوم وغدا) ولا فى سلاسة لغته،
ولا فى تقصى كل ما يتصل بموضوعاته التى يكتبها ولا فى نظرتة البعيدة
التي لا تخيب. ولا فى رغبته الجياشة أن يهذى الناس إلى حقائق
السياسيتين الخارجية والداخلية، وما من أحد غيره تصدى لبيان قوة
التقاليد وقوة التغير، أو استطاع أن يبعث الإجلال والتوقير لقيم خلدت
على الزمن، أو أن يصور ربكة الحياة العصرية التي بدلت النسيج
السياسى والاجتماعى وما كان له من أثر فى تشكيل القيم الخالدة وإعادة
صياغتها.

وكرجل ينشد الرشيد ويسلك سبيل العقل بقى ليهان يضىء الطريق
ويكشف عن حقيقة المشكلات التي يضطرب بها العصر دون ادعاء بأنه
قادر على حل «العقدة الفريجية»^(١)، وفى عموده المتميز الذى يكتبه فى
«نيويورك هيرالد تريبون» لم يدع إطلاقاً أنه قادر على تقديم إجابة
صحيحة، وكانت تعليقاته المتوالية عن السياسة العامة الحاضرة توحى
إلى قرائه بأن السياسة القائمة مبهمة وخاطئة، وأنها أقرب إلى مضاعفة
أسباب العلة منها إلى شفاء المرض الذى تعمل من أجله، إلا أن ليهان

(١) العقدة الفريجية gordian knot تشير إلى العقدة التي عقدها ملك فريجيا كما تقول الأسطورة
اليونانية فلايفكها إلا من يحكم آسيا، ومصادق الأسطورة أن الإسكندر الأكبر هو الذى حل العقدة،
وتعنى الحل اليسير السهل لأى مشكلة عسيرة. (المترجم)

استطاع أن يعى النوايا الطيبة وخفايا السياسة التى تتحكم فى مجرى التاريخ، وبالرغم من ضيقه بالعاطفية والسخف العقلى، لم يكن مجرد آلة حاسبة، ولم يكن مجرداً من العاطفة والتأثر الإنسانى، ففي كتابه «رجال الأقدار»^(١) (١٩٢٧) تناول فى صورة طريفة لمحة تقييمه لكل من «سنكليرلويس» و «ه. ل. مينكن» وياقة من أحسن نقاد الأدب الذين يحبهم، وعبر فيه عن نظرته العميقة إن لم تكن ساخرة للتفاعل بين الأشخاص والقوى التاريخية، وكانت أحاديثه الخاصة تزدان بأحاسيس البطولة والضلال معاً، وبعد وفاة فرنكلين دي لانو روزفلت كتب: «إن الحكم الأخير على أى زعيم هو بمقدار ما ترك فى الناس من اصرار و يقين على المضى قدماً» وإذا كان «جورج ف. كينان يتحدث عن «رينولد نيبور» أبينا جميعاً، فما من صحفى جاد بعد ليبان. يستطيع أن يغفل ما خلفه من لقانة وصفاء فى صحافة العصر.

وما من حكم من أحكام التاريخ، له وزنه وقيمته، إلا ويقع فى الدائرة الفسيحة لتفسيراته للمجتمع والسياسة العامة. ومنذ ظهر كتابه الفريد «دعائم الدبلوماسية»^(٢) (١٩١٥). فى البداية حتى كتاباته الأخيرة عن العلاقات السوفيتية الأمريكية: «عالمنا والعالم الشيوعى»^(٣) (١٩٥٩) و«الاختبار القادم مع روسيا»^(٤) (١٩٦١)، ثم كتاباته عن الحضارة الغربية

Men of Destiny

(١)

The Stakes of Diplomacy

(٢)

The Communist World and Ours.

(٣)

The Coming Test with Russia

(٤)

ومنها كتابه «العزلة والتحالف»^(١) (١٩٥٢)، وكتابته «الوحدة الغربية والسوق المشتركة»^(٢) (١٩٦٢) وهو يصول بفكره حول غاية فريدة لا تتغير، فقد كان على يقين بأن الولايات المتحدة يعوزها خلال القرن العشرين سياسة خارجية ثابتة مقبولة، ولهذا فإنها بسبب هذا القصور تبدو عاجزة عن الإعداد للحرب، أو صيانة السلام، وكان يرى أن الولايات المتحدة كانت لها سياستها الخارجية الحكيمة منذ تلك الفترة التي تلت حرب ١٨١٢ حتى نهاية الحرب مع أسبانيا عام ١٨٩٨، ووقفت سياسة البلاد طوال القرن الأول من تاريخها عند حدود مياهاها الإقليمية، وإن كان الشعب قد انقسم على نفسه في انتخابات الرئاسة عام ١٩٠٠ حول نتائج الحرب مع أسبانيا. ومنذ ذلك التاريخ لم يتسنّ للرئيس أن يعتمد في سياسته الخارجية على تأييد يتفق عليه الشعب، ومنذ أعلن مبدأ مونرو حتى نهاية الحرب مع أسبانيا لم يكن لدى الشعب الأمريكي أى اهتمام بوضع سياسة خارجية، وكان النسيان أو التغاضي هو السمة البارزة على السياسة الخارجية - وهو وحده الكفيل بتسوية أى جدل أو حوار - حيث تقف الالتزامات والقوة على حدّ سواء. ويكتب ليبمان «ما من سبيل للتفكير في سياسة خارجية دون الحفاظ على المبدأ القائل بأن الشعب يحقق أهدافه كما يحقق قوّته على حدّ سواء، وأن تكون نواياه متفقة مع وسائله، ووسائله مساوية لنواياه، وأن تتفق التزاماته مع قدراته، وقدراته مناسبة لالتزاماته». (ولم يقف ليبمان موقف الخصومة مع أى رئيس أمريكي بدايةً من تيودور

Isolation and alliances

(١)

Western Unity and the Common Market

(٢)

روزفلت حتى ريتشارد نيكسون، وكل ما كان يأخذه عليهم فشلهم في تطبيق هذا المبدأ) وقد طلقت أمريكا الحرب والسلام وفصلت بينها وبين كافة المثل والاهتمامات، وأى التزام لها بمحادثات التسليح والمواقع الاستراتيجية، ولايعنيها حليف محتمل أو عدو متوقع، وفي السياسة الخارجية تتوازن الأهداف والوسائل، وعلى الشعوب أن تؤدي ثمن ما تريد، ولا تريد إلا ما تقدر على أداء ثمنه، وقد فشل الأمريكيون لأنهم كانوا على الدوام فريسة للرأى المبتسر عن تخومنا وقوتنا العسكرية وعن حلفائنا، وهو رأى لا أخلاقى ومثير «وكان هذا الرأى المبتسر رأى ودرو ويلسون، وكان تأثيره أقوى وأعمق في أيامه الأخيرة على أتباعه من أمثال «كوردل هل».

ولم يكتف ليبيان بهذا النقد العام، فقد أبدى رأيه بصورة بينة قاطعة بقولة : إنما أعنى بالالتزام الخارجى ما يجاوز الحدود القارية للولايات المتحدة، وهو ما يؤدى في النهاية للتصدى له إلى إعلان الحرب. كما أعنى بالقوة القدرة على الإرغام الذى يحول دون وقوع الحرب، أو كسبها إذا تعذر منعها، ومما يدخل في مضمون القوة الضرورية، القدرة على الإرغام العسكرى الذى يمتاز بحرية الحركة داخل حدود الولايات المتحدة، كما يمتاز بالتعزيزات التى يمكن أن يمدنا بها حلفاؤنا الذين يعتمدون علينا.

والبحث الأساسى الذى يدور حوله تفكير ليبيان فى السياسة الخارجية هو موازنة التزامات الشعب بقوته، وتكوين قوة كبرى

لا تثقل عليه قد تدعو الحاجة إليها : « فإذا أمعنا النظر في المثل، والبواعث، والمطامح التي تجد تأييدا في الخارج إذ أن قياس قدرة (أصحاب القرار) يتجلى في حقهم الشرعى في حشد ما يقدرون على حشده من القوات في أرض الوطن، وما يجدونه من عون خارجى من شعوب لها نفس المثل والبواعث والمطامح وقد يختلف الحد الذى يمكن أن يقف عند هذا التوازن الخالص (كما يختلف تمامًا بين أسرة فقيرة وأخرى ميسورة وثالثة ثرية) ولكن الأساس يجب أن يكون معروفاً وأن يتحقق ليحول دون وقوع الكارثة.

وفي بداية تاريخ الولايات المتحدة من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٢٣ بما شابهها من خصومات مريرة بعيدة الغور، مما دعا الرئيس جورج واشنطن إلى إعلان خوفه على الجمهورية من أو ضار الفرقة والتحزب، وهى يلقي خطاب الوداع بإنهاء مدة رئاسته. وقد كاد التحزب لفرنسا والتحزب لبريطانيا أن يقود البلاد إلى الحرب، مرةً مع هذه وأخرى مع تلك. ويعلو على كفاح الشعب للمحافظة على كيانه ما يتوقعه من التدخل المسلح للقوى الكبرى المتجمعة في وسط أوروبا، وقد سرت إشاعات بالانفصال وخاصةً بين ولايات نيوانجلند. ولم تكن هناك فكرة موحدة عن غايات ووسائل السياسة الخارجية. بدت بصورة مؤسسية عندما ثارت أزمة أخلاط المواطنين.

وفي عام ١٨٢٣، قام ثلاثة من فرجينيا هم «جيمس مونرو» و«توماس جيفرسون» و«جيمس ماديسون» بوضع حلول وأسباب لسياسة أمريكا

الخارجية، ومع مبدأ مونرو والتفاهم الضمني، وإن كان واضحاً تماماً مع القوة البريطانية، توافقت الالتزامات والبواعث الحيوية. ولم يقف هؤلاء الفرجينيون وحدهم، وقد يفوقهم «جون آدمز» نفوذاً، إلا أنهم جميعاً قاموا بإعلان المبادئ التي تقوم عليها السياسة الخارجية دون استهواء لمشاعر الجماهير، أو استجابة لأي إلحاح عنصري أو لأي جماعة من جماعات الضغط، ويشرح ليبمان البواعث الحيوية بأنها تلك البواعث التي لا يختلف الجميع في الدفاع عنها حتى الموت. ومع هذه الثقافات العديدة، والقوميات المتنوعة تعلو مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد وبقائه. حتى المهاتما غاندي وقد مارس المقاومة السلبية، لم يحسب لحياته أي حساب بجانب الدفاع عن البواعث الحيوية للجماعة، ومثل هؤلاء الرجال على استعداد للإضراب عن الطعام حتى الموت جوعاً أو التضحية بحياتهم ولا يهجرون مبادئهم.

ويثور السؤال التالي: ما هي البواعث الحيوية للولايات المتحدة؟

وتبدو هذه البواعث الحيوية في كتابات ليمان المبكرة، في الدفاع عن حدود الوطن المعترف بها. ولم يحجب إعجاب جيفرسون بفرنسا ما يمثله الجيش الفرنسي المعسكر في نيو أورليانز على فوهة المسيسيبي من تهديد، وقد أدى ابتياع لويزيانا إلى حصول الولايات المتحدة على الأراضي اللازمة لحماية نيو أورليانز، واعترف جيفرسون بحقائق البواعث الأمريكية، وإن لم ينل تأييد المحكمة العليا إلا بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً، واستقرت أوضاع هذا الوطن القارئ الأمريكي الأكبر، ولكن السنوات

التالية شهدت حاجة هذه الامتدادات القارية على الحدود الكندية والمكسيكية ومن الأطلنطى إلى الباسفيكى إلى نقط خارجية وامتدادات قارية جديدة للدفاع القومى، وكان الغزو الفرنسى للمكسيك عام ١٨٦١ قد أغضب الأمريكيين ولم يأت عام ١٨٧٣ حتى كان نصف الكرة الغربى داخل الحدود المعترف بها، وأصبح قواماً لنظام الأمن ومحور القوة فى النظام الدولى الأبعد مدى.

وفصل بين الولايات المتحدة وجيرانها مادعاه ليهان محيطاً من الماء والهواء، وما أمريكا الشمالية والجنوبية إلا جزيرتان فى هذا المحيط كما أنهما جزيرتان فى صلة كلٍّ منهما بالأخرى، فأمريكا الجنوبية إلى أسفل الانبعاث البرازيلى أقرب إلى أوروبا وأفريقية منها إلى الولايات المتحدة فى المسافة بينها وبين المراكز العسكرية فى أوروبا، وأمريكا الشمالية أقرب منالاً لبريطانيا، وأوروبا الغربية وروسيا واليابان منها إلى أمريكا الجنوبية والصين أو جنوب الباسفيك، وأقرب جيراننا من القوى الكبرى إلينا هى بريطانيا، والاتحاد السوفيتى، واليابان، إلى جانب ألمانيا، وقد استطاعت ألمانيا لمرتين أن تهدد التوازن التامى باجتياح واحد أو أكثر من القوى الكبرى لتصبح أقرب الجيرة لأمريكا، وطالما كان الدفاع عن أمريكا الجنوبية باعثاً حيويًا للولايات المتحدة، وطالما كانت أمريكا الجنوبية قاصرة عن إعداد قوة عسكرية أساسية داخل أراضيها وطالما كانت عرضة للتهديد من جانب قوة كبرى تحتل نصف الكرة الشمالى، ولمنع أى تهديد لإمريكا اللاتينية يصبح من الأمور الحيوية على أصدقاء

الولايات المتحدة الكبار أن يفوقوا أعداءهم قوة أو يتساووا معهم على الأقل..

وتلتزم الولايات المتحدة بالدفاع في حالة وقوع الحرب عن الأرض والجو والماء من ألاسكا حتى الفيلبين وأستراليا ومن جرينلاند حتى البرازيل وبتاجوينا، وقد استطاعت أن تحمي تلك المنطقة إلا قلة ضئيلة من أى سيطرة عسكرية لقوة كبرى خارجية، وبسبب تفوق القوات المشتركة للعالم القديم تفوقاً ساحقاً على قوات نصف الكرة الغربى، فإن أمريكا لا تسمح لأى مكان فى نصف الكرة الغربى أن يقع تحت سيطرة قوة كبرى حاكمة أو أى قوى تستطيع أن تتسلل بنفوذها إلى الولايات المتحدة، وحتى تضمن حماية نصف الكرة الغربى فإن عليها أن تحافظ على توازن القوى فى أى مكان فى العالم، وقد يؤدى تغير تكنولوجيا الحرب إلى تغيير نظام الدفاع الأمريكى، وقد تغير من حلفائها تبعاً لمقتضيات أمنها، ومهما يكن «فهذا هو طابع القوة الذى تعيشه الولايات المتحدة، وما زالت تعيش فيه».

وفى كتابه «أهداف الولايات المتحدة من الحرب»^(١) (١٩٤٤)، يرى ليبمان أن مبادئ ميثاق الأطلنطى، والحريات الأربع لا تستوعب كلّ مدار حوله الجدل من أهداف، وإن بدت نوراً يهدى الشعب طريقه، إلا أنها لم تكن من المعالم التى يمضى إليها شعب مهيض الجناح، ويكتب: «إن السلام الذى يمكن أن نناله... هو السلام الذى خطته

U.S. War aims.

(١)

نيران الحرب ومن التحيف أن ننكر هذا السلام وندعى أننا قادرون على غيره « وقد قام السلام على علاقات ثابتة وطيدة بين الحلفاء، واعترف بقيام الكتلتين : جماعة الأطلنطى، وجماعة السائرين فى الفلك الروسى. وروسيا. كما يقول كتلة أرضية متماسكة لا ثلثة فيها، بينا الولايات المتحدة بمثابة النواة فى جماعة الأطلنطى « وبين روسيا والعالم الغرب شكوك تمتد إلى عهد بعيد.. إلى عهد الانشقاق الدينى فى العصور الوسطى المظلمة التى جعلت من الكنيسة كينستين : كنيسة روما وكنيسة بيزنطة ». وتقصى أهداف الحرب على الولايات المتحدة :

- أن تعزز الروابط الاستراتيجية والدبلوماسية بين جماعة الأطلنطى.
- أن تسلم بالوضع الاستراتيجى للكتلة الروسية وتستوعبه بما فيها الدول الواقعة إلى الشرق من ألمانيا وإلى الغرب من الاتحاد السوفيتى.
- التسليم بوضع الصين كإطار ثالث للاستراتيجية قدر له أن يشغل الخيز الأكبر من شرق آسيا.
- التسليم بأن لكل من الشعوب الإسلامية والهندوكية والشمال الأفريقى (المغرب) والشرق الأوسط، استراتيجيته الخاصة التى يراها لنفسه.
- لتضع نصب عينيها أن أى تسوية فى الشرق الأقصى أو أوربا يجب أن تستبعد اليابان وألمانيا من أى ميزان للقوى الكبرى فى المنطقتين.

- ولتضع نصب عينها في أى تسوية تعقب الحرب أن تنزع سلاح دعاة الحرب، وتحمي دعاة السلام بأن تجعل من الهزيمة هزيمة حاسمة ومن السلام دعامة قوية

ويرى ليبان أن جورج كليمنصو كان على حق في تسويات السلام لما بعد الحرب العالمية الأولى وأن ودر وويلسون كان على خطأ «فإن يكون السلام عامة بديلاً لسلام من نوع ما، فهذا هو ما غفل عنه الرئيس وويلسون فيما يتصل بألمانيا في واقع الأمر» إذ أن وويلسون «قضى على التآلف الذي كسب الحرب، وقام وحده بتدشين التسوية، وأثار خصومة مؤذية لا جدوى منها مع إيطاليا حول ميناء فيومي». وفي هذه الخصومة التي إستغلها «جبرائيل دانزيو» بدأت الفاشية تفرخ في إيطاليا. وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ ليبان يؤكد بأن السلام يجب أن يقوم محددًا وواضحًا وفقًا لوضع العالم حينذاك. وعلى قوى الحلفاء المشتركة أن تحمي السلام.

وفي كتابه «الحرب الباردة»^(١) (١٩٤٧) تصدى ليبان لادعاءات المعيبة في مبدأ ترومان، ولمقال «جورج ف. كينان» الشهير «مستر إكس» المنشور في «الفورن أفيرز» واتفق مع كينان على أن القوة السوفيتية تقوم على التوسع مالم تواجهها قوة مضادة في المواقع التي تختارها أمريكا، إلا أن سياسة الاحتواء قد اختارت أن تواجه السوفيت في مواقع مناسبة لهم، وألقت بالمبادرة إلى أيدي الروس، وتصورت

The Cold war.

(١)

وضعا للقوات المسلحة الأمريكية لا يناسبها ويهدد بالخطر علاقة أمريكا بحلفائها الطبيعيين في جماعة الأطلنطي. وقد يبدو إخلاء أوروبا من القوات العسكرية الأجنبية سياسة أكثر جدوى إلا أن بقاء الجيش الأحمر في وسط أوروبا هو المعضلة التي لا حل لها، والانسحاب هو الوسيلة، الوحيدة لاختبار نوايا الروس، وهو الأساس الذي يعيد للدول الأوروبية، استقلالها، ويؤيد ليهان مشروع مارشال، ولكنه يعارض مبدأ ترومان ويرى أنه استراتيجية بشعة.

وفي كتابه «العزلة والأحلاف»^(١) (١٩٥٢) يدعو إلى فهم أبعد للمتغيرات العالمية التي أثرت في سياسة أمريكا الخارجية منذ عام ١٩٤٠، بعد أن غدت المصالح الأمريكية والبريطانية في شبكة واحدة، هي التي أشار إليها «ونستون س. تشرشل» في حديثه إلى الاجتماع المشترك لمجلس الكونجرس عام ١٩٥١، وكأنه وزير يطرح الثقة به أمام مجلس لا يؤيده. وقد مرت سياسة أمريكا الخارجية بمرحلتين: «العزلة» وقد استمرت حتى بداية الحرب العالمية الثانية واتسمت باستقطاب القوة الأمريكية للقارة حتى الفلبين وجزر الباسفيك. والمرحلة الثانية ظهورها كقوة، أساسية في الميدان العالمي، واضطلعت الولايات المتحدة فيها بإقامة تآلف جديد. وأصبح أمن أوروبا الحرة والدفاع عنها ضرورة حتمية للأمن الأمريكي. وتمثل هذا الهدف المشترك في تأليف أوروبا ووضع حل للمشكلة الألمانية وقد أصبحت المحور الذي تدور حوله الحرب الباردة.

Isolation and alliances.

(١)

وعاد ليهان في كتابه « الفلسفة العامة » (١٩٥٥) إلى ما كان يقلقه دائماً - انحلال وأحياء المجتمع الغربى. وكتب عن علّة الدول الديمقراطية، وخلل القوى والمصالح العامة وراقه أن يزود عن الرقة والتلطف وأن تحيا الفلسفة العامة. ودعا الأمريكيين لاكتشاف تراثهم ومثلهم وأن يلمّوا بالقوانين العامة، ومع ماواجه كتابه الأخير من نقد حاد حين أخذ يوفق على مزاجه بين اتجاهات القانون الطبيعى، فقد نجح فى جذب الانتباه نحو المصالح المشتركة بين الأمريكيين وأصدقائهم فى الخارج، كما بدت فى هذا الإيمان الخفى بقداسة الروح البشرية.

وفى عام ١٩٦٦ غادر ليهان واشنطن بعد ثمان وعشرين سنة وعاد إلى نيويورك حيث عاش حتى وفاته عام ١٩٧٤، وقد قلّت كتاباته خلالها ولكنه بقى يحظى بتوقير صانعى السياسة لأفكاره الصائبة، حتى أولئك الذين يخالفونه الرأى. ومع وقوفه خلال الخمسينيات إلى جانب قرار الأمم المتحدة الخاص بكوريا فى البداية فإنه سرعان ما أخذ يجبذ الهدنة ويدعو إلى التسوية السياسية ويعارض تقدم الجنرال «دوجلاس مكارثر» إلى نهر يالو، وبخصوص فيتنام كان يخشى منذ البداية أن يؤدى تورط الأمريكيين إلى حرب برية على أراض صينية، وعاد مرة أخرى إلى فكرته عن القوة الاقليمية، وأخذ يعارض الاتجاه الأمريكى فى الالتزام الزائد بما لا يعنىها من مصالحها الحيوية. ولم تكن أفكاره لتلقى قبولاً لدى العديد من الرؤساء واحداً بعد الآخر أولدى وزراء الخارجية، وبقى مع ذلك يحتل مكانة سامقة بين الذين يعتز برأيهم، وصدقت الأحداث

بعض مآثوه به، وتتمثل قدرته في المبادئ التي نادى بها أكثر مما تتمثل في الخطط التي أشار بها. وقد ساعده على الاحتفاظ باستقلاله أكثر من أي كاتب أو صحفي من البارزين أنه ظلّ بعيداً عن تلك الصفوة الذين يديرون السياسة الخارجية التي تتمركز في مركز العلاقات الخارجية بنيويورك، وقد وضع مستويات للمعلقين لم يتسنّ لغير القلة أن يسايروها، وكتب عنه «ريتشارد روفر» يقول: «على كل صحفي وكل من له اهتمام باللغة الإنجليزية أن يلم بأسلوبه في الكتابة، فقد استوى على القمة بين أساطين الكتاب الأمريكيين المحدثين» أما عن مادة كتبه، فإن روفر ينوّه «بمراجعة أعماله ككل فإنني قد رأيت فيها من الكمال فوق ما كنت أتوقع.. وقد استطاع أن يدرك معنى الوجود العسكري والسياسي للسوفيت من البلطيق إلى البلقان، وتنبأ بخلل النظام في الصين الوطنية، كما توقع المشكلات التي نجمت عن تعميم مبدأ ترومان، إلا أن المؤرخين قد يتعذر عليهم تقييمه تقييماً كاملاً إذا ما كان تقييمهم له قاصراً على حكمته الاجتماعية والسياسية.. فقد استطاع أن يجسد أجمل ما في التقاليد الليبرالية والإنسانية، وأضفى على الصحافة الأمريكية مهابةً ووقاراً».

ومن العسير حقاً أن يحتلّ مكانته آخر.

مشروعية الحرب
وأخلاقياتها

جورج ف. كينان
(١٩٠٤ -)

ولد جورج ف. كينان في ميلووكي، ويسكونسن في السادس عشر من فبراير ١٩٠٤، وقد توفيت أمه بعد ولادته بقليل، وقد تركت وفاتها في نفسه - كما يقول - جرحًا لا يندمل طوال حياته، وكان أبوه من سلالة الرواد الفلاحين الذين نزحوا إلى الولايات المتحدة من أيرلندا في بواكير القرن الثامن عشر، ونزل فيرمونت قبل أن يغادرها إلى أعالي ولاية نيويورك لينتهي به الرحيل إلى ويسكونسن. ويغلب على أسلافه العناد، واستقلال الرأي والاعتزاز بالحرية الفردية إلى أبعد الحدود، وكانوا من مستورى الحال لا هم بالفقراء ولا هم بالأغنياء، ولم يكونوا عمالاً لأحد، ولم يستخدموا أحدًا، لذلك بقى تفكيره خاليًا من تلك التعبيرات الماركسية عن الاستغلال والمستغلين، ولا يتقبل غيرها من الفتاوى الماركسية، وكان جدّه، كما كان أبوه الذى ولد عام ١٨٥١، يفضل القرن الثامن عشر على القرن التاسع عشر، وتمثل كينان بعض ما كانوا يدينون به من قيم إلى جانب ما استوعبه من أخلاقيات والتزامات القرن العشرين، وكان لابن عم لجده، يدعى هو الآخر جورج كينان، من الأثر عليه

أكثر مما كان لأبيه، وقد ولد مع أبيه في يوم واحد وفي عام واحد، وسارا معاً في طريق واحد، وكان لهما نفس الاهتمام بالشئون الروسية، مما أوحى إلى «جورج ف. كينان» إنشاء «معهد كينان العالي للدراسات الروسية في مدينة واشنطن، بالاشتراك مع مؤسسة سمثونيان»

وقد تلقى كينان تعليمه الأول بمدرسة ميلووكي الابتدائية ثم بأكاديمية سان جون العسكرية في ديلافيلد ويسكونسن، واختار له عميدها «هنري هولت» مثلما أوحى له قراءة، قصيدة «ف. سكوت فيتزجيرالد» «هذا الجانب من الفردوس» الخدمة في السلك الأجنبي، فلما التحق بجامعة برنستون عام ١٩٢١، كان أول ما انتابه الدهول من بنائها القوطي المهيب، وكان يعرف ما يعتوره من ريكة طفولته وفجاجة طباع الغرب الأوسط، خجولاً منطوياً على ذاته، ولكنه كان حساساً عظيم الكبرياء يأنف أن يطلب عون أحد وكان لاثنين من الأساتذة التأثير الكبير على تفكيره: «ريموند سونتاج» أستاذ التاريخ الدبلوماسي، و «جوزيف س. جرین» وهو الذي قام بوضع نظام الامتحانات للمتقدمين للخدمة في السلك الأجنبي، وكان تأثيرهما عليه فكرياً أكثر منه قائماً على صلة خاصة، وترك كينان برنستون بحفنة قليلة من الأصدقاء لائداً بوحدته، حالماً دون أن يعنى بمعرفة خفايا التنظيم الجامعي أويلم بسوانح الحياة الاجتماعية والثقافية، بعيداً بما جبل عليه من جفوة للمواجهة عن الخلافات الشخصية أو الجماعية، ولكنه وهو في برنستون عرف ما يتمتع به من صفاء ذهني وقدرة على الإبانة، وسلبية إلا عند التحدي،

وإحساس جياش بعالم الأفكار، إلى تحرّر من أى فكر مسبق، وقد أورى حبه للأدب، والأدب الكلاسيكى بالذات غرامه بالسياسة والتاريخ الحديث (وكان غرامه العام بالمدونات التاريخية الكبرى للمؤلفين العظام من أمثال « إدوارد جيبون » ماترك أثره البالغ على أسلوبه فى الكتابة، كقوله : « القوة هى الوسيط الذى نعمل من خلاله »).

وقد تخرج فى برنستون عام ١٩٢٥، مسلحاً بالقدرة على النمو الفكرى فى المستقبل، وإن لم تسفر عن اكتمالها تماماً، « وإن استشارها غموض الليبرالية التى نادى بها ويلسون، فانتابه الأسى لعزوف الولايات المتحدة عن الاشتراك فى عصبة الأمم، بقدر ما كان إيمانه بالاقتصاد الحر وجدوى المنافسة، ونفوره بالتالى من رفع التعريفات الجمركية » وكانت دراسته فى برنستون عوناً له على إبراز تلك الاهتمامات متحررة من القالب الأيدولوجى الجامد الذى يبهى على الفكر الناقد.

ومما أثار دهشة كينان أنه كان بين سبعة عشر مرشحاً ممن اجتازوا الاختبار للتعين فى السلك الخارجى. (وقد رأس لجنة الامتحان الشفاهى وكيل وزارة الخارجية جوزيف س. كرو) وبعد أن أدّى فترة التدريب بمدرسة الخدمة الخارجية فى واشنطن، عين تحت الاختيار بالقنصلية العامة فى جنيف، ثم نقل نائباً لقنصلية همبورج بألمانيا (وكان قد زار ألمانيا فى طفولته، ثم مرة أخرى قبيل تقدمه للاختبار، ولهذا كان قادراً على الحديث باللغة الألمانية). وفى عام ١٩٢٨ درّب ليكون خبيراً فى الشؤون الروسية، وقضى السنوات الخمس ونصف السنة التالية

في برلين وفي عاصمتي ولايتي البلطيق : تالين وريجا، وبعد ذلك أشرف على الترجمة إلى اللغة الألمانية في برلين عام ١٩٢٩، ثم سكرتيراً ثالثاً في ريجا عام ١٩٣١، وموسكو عام ١٩٣٤، وقنصلاً في فينا عام ١٩٣٥، وسكرتيراً ثانياً في موسكو عام ١٩٣٥، وسكرتيراً ثانياً عام ١٩٣٨، ثم قنصلاً عام ١٩٣٩ في براج. وسكرتيراً ثانياً عام ١٩٣٩، وسكرتيراً أول عام ١٩٤٠ في برلين، ومستشاراً لمفوضية لشبونه عام ١٩٤٢، ومستشاراً للوفد الأمريكي في اللجنة الاستشارية الأوربية بلندن عام ١٩٤٤، ووزيراً مفوضاً في موسكو عام ١٩٤٥، ثم نائباً لمدير الشؤون الخارجية في كلية الحرب بواشنطن عام ١٩٤٦، ومديراً لإدارة التخطيط السياسي بوزارة الخارجية عام ١٩٤٧، وسفيراً لدى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٢، ويوغوسلافيا من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٣. وقد اضطرت حياته العامة عندما اختير عضواً بمعهد الدراسات العليا في برنستون خلال الفترة من عام ١٩٥٠ إلى عام ١٩٥٢، وبعد أن أحيل إلى التقاعد من الخدمة في وزارة الخارجية أصبح أستاذاً دائماً بالمعهد حتى تقاعده وأصبح غير متفرغ عام ١٩٧٤، وقد جمع في حياته بين الدبلوماسية والأستاذية على مستوى لم يتسن لأحد غيره، وكانت خبرته بالشؤون الروسية، كما كان عمه من قبل، ذات أثر بالغ في تقدمه وارتقائه.

وكان كينان فيما بين العشرينيات والثلاثينيات أحد القلائل الذين اختيروا لعلمه باللغة الروسية والإلمام بالتاريخ الروسى والثقافة الروسية، وكان من زملائه «تشارلس بوهلن» (الداهية) و«للويلن تومبسون»،

وقد شغل كلاهما منصب السفير لدى الاتحاد السوفيتي في فترة الحرب الباردة الحرجة، وكانا على درجة عالية من الخبرة العملية أهلتهما للمشاركة في وضع القرار في وزارة الخارجية، ولمناصب تنفيذية متعددة، وكانت لهما خبرتهما البالغة في التعامل مع البيروقراطية، أما كينان وكان أكثر الثلاثة أصالة فكرية فقد بقى على فزعه من التنظيم الإداري، ويبدى رغبة عارمة في الاندماج بالعمل الدبلوماسي، والتخطيط السياسي والتكهن بخفايا السياسة، ورأى فيه خلّاته بعضاً من المعالم الرومانسية، ففي خلال الخمسينيات عنّ له أن يشارك في الحياة العامة كعضو في الكونجرس، وأعدّ نفسه لترك مسئولياته نحو العلاقات الخارجية ليقود حملة عامة لتجديد المدن المنهارة. ومرة أخرى يبالغ ويخطئ تقدير قدرته على التأثير مما أدّى إلى تناقض الرأي فيه، فهو إما متغطرس بالغ الغطرسة أو متواضع شديد التواضع. وعندما يكتب عن إخفاق شخصيته كتلميذ، يرده إلى الكبرياء. والحساسية الزائدة، والإباء الممض لأى عزاء، والإصرار على معرفة الشر والتعرّس به «لأحظى أكثر من الغير بالجاذبية والمشاركة الوجدانية» وكيفما كانت قدرة كينان على التغلب على ما سلم به من فشل في صباه، فإنه، باستثناء الفترة التي رأس فيها معهد برنستون، لم يصل إلى ما تؤهله له ملكاته العقلية وأخلاقه العالية من رفعة وسمو.

وقد ألم به الفشل كما ألم به النجاح في حياته الوظيفية، وبالرغم من أن كتاباته قد بلغت الذروة في تبرير العمل في الوظائف العامة،

فإنه ظلّ قاصراً عن تحقيق هذا الهدف في الواقع، وتعبير أدق فإن كينان الرومانسي الحالم كان في نزاع دائم مع كينان الموظف، وبقي يسأل زملاءه من الموظفين: «هل أقول غير ما أفعل». وفي عام ١٩٥٢ طلب الروس عودته سفيراً لبلاده لديهم، بعد مقابلة في مطار برلين، قارن فيها بين ضغوط الحياة الثقيلة في الاتحاد السوفيتي وتلك التي كانت في ألمانيا الهتلرية. وقبل ذلك بعث به وزير الخارجية «دين اتشيسون» عام ١٩٥٠ إلى أمريكا الجنوبية، كما يذكر «لويس هال» ليقنع عن عناده القابع في رأسه وكان أن كتب مذكرة، استعان فيها بما تزود به من رحلاته، عن الحكم والسياسة في أمريكا اللاتينية، كان فيها صادقاً، وإن نمت عن صورة كئيبة لبعض القوى والاتجاهات المتسلطة على تلك القارة المزعجة، وكانت الفروض والنتائج التي أجملها في تقريره مغايرة تماماً لكل ما سارت عليه سياسة أمريكا الخارجية، وعبرت تعبيراً دقيقاً عن يأسه وقنوطه من تلك القارة، مما أدى إلى صدور الأمر بتمزيق النسخ الإضافية والتخلص منها تماماً أما النسخة الأصلية فقد قبرت في محفوظات وزارة الخارجية، وقد حذر كينان فيها: «من ذلك العجز المخيف الذي يبدو في الأفق والوهن البادئ يخيم بظله على أمريكا اللاتينية» والقادة والزعماء فيها عاجزون أو يأبون مواجهة الحقيقة، وقد رأى في كل عاصمة من عواصمها نوعاً من التفوق البالغ حول الذات، والصلف، والإصرار المؤسسي على نثر الأوهام عن الذكاء والشجاعة وادعاء إنجازات بعيدة عن الواقع. «فالمجتمع في أمريكا اللاتينية يعيش.. سلسلة من الادعاء الكاذب وليس الادعاء المقتن الهادف للشيوعية الروسية، ولكنه ادعاء مفرق في الذاتية والفوضوية، يدور

فيها كل فرد أشبه بالشرنقة حول ذاته، لكل منهم دنياه الصغيرة من
الدعوى الذاتية» وكان لمدينة المكسيك أقصى الآثار وأشدّها عنفاً عليه
«فلم أحس أبداً أنها تهجع بليل (ولربما لأنني لم أكن لأهجع)» أما
«كارا كاس فكانت» صورة «بالغة السخافة من الحضر.. وسط جبالها
الصفراء العديدة» كما (كانت) ريو في غاية البشاعة» وبقيت «سان باولو»
أكثر بشاعة.. وحيثما ذهب كينان كان ينوشه «إحساس غريب من الخوف
المتزج بالكآبة» فإذا تمنع فيما كان من قبل، فإنه يرى: «أن الحقيقة
البادية، أنني في كل جولاتي واستجابتي لكل ما يثير لا أملك إلا أن أكتب
هذه الصفحات، بينما تبقى وزارة الخارجية على ما هي عليه. تقوم بواجباتها
كما كانت تقوم بها من قبل، لا تملك إلا أن ترفض هذه الصفحات وتأبى أن
تأخذ علماً بها.. (وأبدت) من المنطق ما وضع نهاية لتلك الحياة الناقصة التي
أزاول فيها عملي في واشنطن، وقامت بنقلي إلى الخارج لأواجه حياة
مؤسسية مملة في إعداد الملخصات والتمعن فيما لا يجدي.. وليس في الإغضاء
عنه ما يضر.» وحتى عندما استدعاه الرئيس «جون ف. كينيدي» من
التقاعد ليعود سفيراً لدى يوجوسلافيا عام ١٩٦١ غشى نفوذه تردد
واشنطن في الاستجابة إلى إلحاحه في استغلال الشقاق في دولة شيوعية
استغلالات كاملاً في أوروبا الشرقية، وكان كينان على عكس ما يرمى إليه
رؤساؤه، يرغب في إقامة علاقات ثقافية واقتصادية مع يوجوسلافيا، وكان
طوال حياته سابقاً لزمه، فهو يؤمن بأن القوتين الكبيرتين أو العظميين
تتجنبان العداوة ولكنها لن يكونا صديقين، ويرى أن ما ينشده هاري
هوبكنز من التصالح بينهما لا يعدو خداع الذات.

وكان كينان على خلاف شديد مع وزير الخارجية دين أتشيسون، وجون فوستر دلاس (وكان حينذاك مساعداً لأتشيسون) ودين رسك مساعد وزير الخارجية، والسفير فيليب جيسب حول قبول الصين الشيوعية بالأمم المتحدة. وكان الخلاف قد ثار حول هذه المسألة عام ١٩٥٠ وتناول النتائج السلبية والإيجابية لعضويتها بالأمم المتحدة، ورأى كينان نفسه «أغلب الأحيان وحيداً في موقفه، وأنه وحده الذى يعارض... الشركاء» ممن يرون أن قبولها بالأمم المتحدة لا يتعدى إقرار الأمر الواقع، وأنه، كما يعتقد، يخفف من الإبهام والشك الذى يحيط باتجاهات أمريكا حيال آسيا، ويقضى على الاتهام الذى يوجهه بعض الآسيويين على الأقل بأنها بتأييدها «تشانج كاي تشيك» تسعى فى إطار خطتها الإمبريالية إلى السيطرة على قلب الأرض، واقترح كينان فى هذا الحوار أن تعترف أمريكا أو تصوت إلى جانبها، ولكن عليها أن «تعلن علانية أن نظام بكين لا يبدى نوعاً من الالتزام الكافى بمسئوليته الدولية، وأن سلوكه الدولى سلوك عدوانى... وإننا لذلك لم نعترف به. ولا نرى ما يدعو إليه» ومهما تكن دواعينا (حول عضوية الصين بالأمم المتحدة) منذ غدت موضوعاً لتساؤلات عديدة، ومنذ بدا الزعم بأن لنا أغراضاً خفية، فإننا قد أعددنا أنفسنا... للامتناع إطلاقاً عن الاشتراك أبعد من ذلك... فيما يتصل بإثارة ذلك فى أروقة الأمم المتحدة، أو التصويت عليه، أو بأى صورة من صور الضغط أو التدخل لدى القوى الكبرى فى الإدلاء بصوتها ولم يلق دلاس بالاً إلى رأى كينان، خوفاً من أن يؤدى رأيه إلى حيرة الرأى العام الأمريكى، أو أن يؤدى إلى

لتهوين من البرنامج الدفاعي للرئيس. ويشرح كينان وجهة نظره،
فيقول :

«أما عن رسك وغيره فإنني أعتقد أن هناك نوعاً من الإدراك
الحقيقي للتبرم الأخلاقي بالشيوعيين الصينيين؛ إذ أنهم، بعد
كل هذا، يطأون نفس الدرب الذي وطئه الروس من قبلهم
طوال عشرين عاماً منذ أول تجربة لنا مع الديكتاتورية
السوفيتية، وما كنا يومها، كما نحن اليوم بغافلين عن التناقض
الفلسفي بين المثل التي ندين بها، ومثلهم التي يدينون بها، إلا
أننا كنا نسلك تجاه هذا التناقض كما نسلك مع غيره من
المسائل الدبلوماسية التي تقع في إطارها والتي نراها شبيهة بها
وتناولناها خلال قرون من قبل. وقد تعلمنا ألاّ ننبد صراع
القوى أو ننأى عنه كأمر مفزع أو شاذ، فهو ذريعتنا.. ولن
نضفي على اللعبة شيئاً من الأناقة أو نوشيها بشيء ما».

وعلى أمريكا أن تؤمن إيماناً عميقاً بأنها على حق، فها هي، في
السياسة الدولية إلاّ واحدة من دول عديدة تسعى لتأمين نفسها وحماية
مصالحها القومية، وما كان لنوازعها أو طموحها، حتى فيما يتصل
بأعدائها، أن تتواري، أو تحاول أن توارى بتلك المأثورات الشرعية أو
الأنظمة الفلسفية. وكان الخلاف عميقاً في ذلك الحوار الذي دار حول
الصين، حتى أن «دلاس» في تصريح صحفي، قال إنها مع ما يحمله
من إكبار لجورج كينان، إلا أنه يراه على درجة كبيرة من الخطورة في

دفاعه عن قبول الصين بالأمم المتحدة، وتوقف الولايات المتحدة عن عملياتها العسكرية في كوريا عند خط ٣٨.

فإذا كان ثمة دروس مستفادة من هذا الحوار، فإنها قد أثارت ثلاث مسائل معينة :

- أكان لسياسة أمريكا الخارجية في آسيا أن تتغير إذا ما غلب رأى كينان ؟

- أمن الأجدى في مثل هذا الحوار الذى يتناول سياسة خارجية معينة أن ندعى لهؤلاء المفكرين بما يصدر عنهم من أدلة وأفكار مليئة بالمراوغة والإيهام أن يبقى لهم الرأى الثانى ؟

- أم هناك جدوى فيما لو أن كينان قد نجح في التأثير على السياسة الخارجية لتسلك طريقاً مباشراً ومقنناً من طريقين - سياسة الاحتواء التى أجعلها في برقيته المؤرخة ٢٢ فبراير ١٩٤٦ من ثمانية آلاف كلمة بعث بها من موسكو أو تلك المقالة التى نشرها «مستر اكس» في مجلة «فورين أفيرز» بما لها من تأثير معروف (في يولييه ١٩٤٦) تحت عنوان : «أصول القيادة السوفيتية ؟ وقد بين الصحفي «آرثر كروك» بصحيفة نيويورك تيمز بعد مقارنة بين البرقية والمقال. أن كاتبها واحد. ويرى كينان أن الورقتين قد اتسمتا بالقصور في ثلاث مسائل : فقد نسبتا أن تشيرا إلى البلاد التابعة في أوروبا الشرقية وما يمكن أن تؤدى إليه من انهيار قوة السوفيت. وأنها لم يبرز إبرازاً كافياً معنى احتواء القوة السوفيتية وأنه ليس احتواء عسكرياً ينذر بتهديد مسلح، وإنما هو

احتواء سياسى ينذر بتهديد سياسى، كما أنهما لم يوضحا أن هذا الاحتواء ليس من الضرورى أن يمتدّ إلى كلّ مكان، كما أراد ترومان، وإنما هو احتواء لبعض المناطق الجغرافية التى تهم الولايات المتحدة وتؤثر على أمنها. أما الشواهد التى أثارت المزيد من الجدل فى مقال «مستر اكس» فقد بدت فى دعوته إلى مواجهة الروس بقوة مضادة ثابتة «فى كل مكان يبدو منهم أى دليل ينذر بخطر يهدد أمن العالم».

وتبع ذلك سلسلة من المقالات كتبها ولتر ليبان، يحمل فيها على كينان، بلغت اثنى عشر مقالاً ثم نشرها فى كتاب على غرار كتابه «الحرب الباردة» إلح فيه بالتركيز على الأقاليم الحساسة فى أوروبا وعلى انسحاب القوات السوفيتية والأمريكية والبريطانية من أوروبا، وحذّر من أى محاولة لاستقطاب ألمانيا الغربية فى حلف ضدّ العصبة السوفيتية، وكان فى كل ما ذهب إليه متفقاً اتفاقاً واضحاً مع ما جاء فى كتابات كينان الأخيرة، ومحاولته المتأخرة لشرح ما يقصده، وفى بواكير عام ١٩٤٦، وفى أعقاب برقيته الطويلة، عاونه «جورج فورستال» وزير البحرية فى العودة إلى واشنطن ليعمل بكلية الحرب الوطنية، وحمل وزير الدولة «جورج س. مارشال» على ترشيحه لرئاسة هيئة تخطيط السياسة، ولم يكن لماخذ كينان على الالتزامات الكاسحة التى قام عليها مبدأ ترومان كبير أثر فقد عمّ مفهوم الاحتواء وشاع عالمياً، فنراه يكتب «لقد صدمتني جفوة الأمريكيين الموروثة لاتخاذ قرارات محدّدة فى مشكلات محدّدة وإصرارهم على اتخاذ صورة عامة أو مبدأ يغلفون به

أعمالهم ويبررونها» ولسته شهور سابقة وأخرى لاحقة لم يكن لبيان كينان أثر يذكر، وعلى حدّ تعبيره: «لقد مضى كل هذا يفصح عن مدى ما لهذا من أهمية تعلو على طبيعة ما يسفر عنه الواقع الحقيقي عند ما يصبح الأمر متعلقاً بإصرار واشنطنون على نظرتها للعالم، والمبادرة الذاتية للرسميين بها لمعرفة أو معرفة طبيعتها» وظلّ كينان على رأيه هذا في كلّ ما كتب عن سياسة الاحتواء التي اعتنقتها أمريكا في أعقاب الحرب، وأخذ بعد ذلك يحس بأنه يمضي بعيداً عن المسئولية.

ويسفر في لقاءاته المتتالية مع «وزير الخارجية» هنري كيسنجر عما يراه في العلاقات السوفيتية الأمريكية وما يعوز سياسة أمريكا الخارجية، وكان الحديث عن احتواء الكرملين، ففي حديث أدلى به الوزير كيسنجر في ٣ فبراير ١٩٧٦، يعلن: «لأول مرة في التاريخ يصبح الاتحاد السوفيتي قادراً على تهديد المناطق النائية إلى أبعد مما تمتدّ إليه كتلته الأوراسية، بما فيها الولايات المتحدة أيضاً» ومع التكنولوجيا النووية والنظام الدولي لما بعد الاستعمار «يعرب الاتحاد السوفيتي لأول مرة عن مصالحه وأهدافه العالمية شاقاً طريقه إلى الشرق الأوسط وأفريقية وآسيا» (ومن المثير أن ينسى رجل له مثل هذا الإلمام الواسع بالتاريخ كهنري كيسنجر إيران ومصدق، وكوريا وفيتنام، وعبد الناصر في مصر، وأزمة الصواريخ الكوبية) وإن يكن كيسنجر قد تخير كلماته التي تناسب الإجراء المباشر للسوفيت، فإنه ينوّه بأن «أنجولا تمثل لأول مرة كيف تحرك السوفيت عسكرياً عبر هذه المسافة القاصية ليفرضوا نظاماً من

اختيارهم، وللمرة الأولى تفشل الولايات المتحدة في الوقوف أمام التحرك العسكرى الروسى خارج الفلك السوفيتى، ولأول مرة يعطل الكونجرس قراراً قومياً في مشكلة الشرق الأوسط» وكانت العواقب، كما يرى كيسنجر، مؤسسية، وهذا الفشل بادرة سوء، وسيكون الثمن غالياً في المستقبل «فإذا قيل إن أنجولا ليست بلداً مهماً، وليس للولايات المتحدة مصالح فيها، فإن ذلك يؤدى إلى السؤال التالى، إذا رأت الولايات المتحدة ألا تتصدى للكتلة السوفيتية ورأت ألا تقف دون التدخل الكورى، فإذا تكون عليه مشاعر زعماء العالم إذا ما عن لهم أن يتخذوا قراراً يتصل بأمنهم في المستقبل؟ وما هى الخطوات التى يمكن أن تتخذها قوة عظمى لا تثير أى معارضة إذا ما كانت المناسبة التالية تؤدى إلى التدخل؟»

وكانت استجابة كينان مقننة كريمة عطوفة وقد صيغت على أساس من المبادئ خالية من أى لعب بنواحى القوة أو الضعف في الأشخاص، وقد حمد لكيسنجر، أنه «مفكر يتحدث لغة السياسة» ويبدى الفروق بين احتواء التوسع السوفيتى في الوقت الحاضر، وما كان عليه عام ١٩٤٧، عندما ظهرت هذه الكلمة أول مرة، وسلم «بأن الاتحاد السوفيتى لديه القدرة الآن أكثر مما كان منذ ثلاثين عاماً، على الإدلال بقوته في مناطق تبعد عن تخومه كثيراً» وأخذ يذكر كيسنجر بما كان من مبالغات الدوائر العسكرية في الولايات عن قوة العدو، وينوع من الكياسة رأى أن يتسلح كيسنجر فيما يقوله بالقدرة والإفصاح

والتحوط: «ففي البداية عليه أن يدرك تماماً أن الأماكن ليست سواء في أهميتها من هذه الناحية» فلكوريا وكوبا من الأهمية الاستراتيجية البالغة لا للأمريكيين وحدهم ولكن لكافة القوى الكبرى الأخرى، وقد تكون للأماكن النائية بعض الأهمية الاستراتيجية المحلية ولكنها لا تؤثر على ميزان القوى العالمي، وبالتالي فإن على الرائي أن يحسب مدى الخسارة والمكسب لأي قوة كبرى إذا ما رأت أن تمد نفوذها إلى منطقة بعيدة عن حدودها، فالعجز عن احتلالها احتلالاً كاملاً أو التغلب على الحكومة الوطنية، واستغلال مواردها لصالح هذه القوى الدخيلة يصبح مثاراً للعديد من المشكلات، وعلى هذا الأساس تصبح كوبا أشبه بحجر الطاحون الذي يطحن المال السوفيتي، ومن العسير أن يكون لمصر دور فعال، «وليس ثمة داع لإحساس الولايات المتحدة بأي التزام لحماية أي قوة أخرى من انتحال مسئوليات يمكن أن تكون عبئاً ثقيلاً عليها أما الأمر الثالث، فإنه يحتم على أمريكا أن تتبصر أمر حلفائها والقوى التي تعمل معها. فإذا جدّ صراع مدني، فإن من اليسير قصر المعونة الأمريكية على جماعة معينة أو حزب من الأحزاب» فإذا ما كان حزباً عسكرياً أو سياسياً فإن ذلك مما يكيف مسلكنا نحوه. وإذا ما أهمل عامل ما، وبلغ من إهماله أنه أدى إلى إنكار ما سبقه من جهود على شاكلته، فإنه هو ذلك. (ولنعبر بما كان مع شانج كاي تشيك في الصين وما كان في فيتنام) وليس من اليسير أن يكون النجاح حليف كل إنسان، مهما كان له أو لقي من عون خارجي» وأخيراً فإن هناك من المواقع ما تحاول الولايات المتحدة أن تصنع لها قدماً فيها، وإن كان ذلك

لا يتسنى لها إلا من خلال الرأى العام العالمى أو الإقليمى على الأقل، وهو ما تفتقده أمريكا وتعانى منه حين تبدو كما يبدو المنافسون تماماً «فالناس تنتابهم الحساسية مع استعراض القوة، وإن كانت تنتابهم الحساسية فى مواقف أخرى أيضاً».

ولا يمكن أن تعثر على الأصول العميقة لا تجاهات كينان فى محاوراته السياسية (ونراه يعلن أنه بطبعه ومواهبه عاجز فى هذا الجانب) وإنما نراها جلية فى مؤلفاته العديدة القيمة، ففى كتابه «الدبلوماسية الأمريكية ١٩٠٠ - ١٩٥٠»^(١) (١٩٥١) وهى عبارة عن محاضرات ألقاها بجامعة شيكاغو خلال العام الأول لتركه خدمة وزارة الخارجية : يطرح سؤالاً محدداً : ما هو السبب فى فشل سياسة أمريكا الخارجية فى النصف الأول من القرن العشرين ؟ ويجد الإجابة فى اتجاه أمريكا الأخلاقى والقانونى فى عالم خارجى ملئ بالإحزن وخيبة الأمل، فالولايات المتحدة، القناعة أعظم القناعة بالنظام الدولى السائد وبالقوانين التى تحكمه، لا تستطيع أن تتصور وجود آخرين يسعون إلى تحطيم النظام قوة وغضباً، ولم تكتف الولايات المتحدة بإضفاء نوع من الشرعية على الوضع القائم فى دفاعها عنه، ولكنها ضاعفت من عوائقه بتبريراتها الأخلاقية وبدلاً من أن تسلم بالواقع المرير للصراع بين المصالح القومية، وتبحث عن حلول على الأقل لاضطراب الحياة الدولية، تلجأ إلى المعايير الشرعية لحل الخصومات، إلا أن القانون فى مجتمع دولى نصف

American Diplomacy: 1900-1950.

(١)

فوضوى يبدو شروداً عنيداً وأقل طواعية من الدبلوماسية لتسوية صراع المصالح، ولم يكن له من جدوى فى حماية البلاد التابعة فى شرق أوربا أو فى الحد من انتشار الحروب الأهلية، كما أضفت أهمية بالغة على العقوبات الدولية وما تتوقعه من إجراءات عسكرية تقوم بها جماعة دولية. فلماذا إذن ساد القانون سياسة أمريكا الخارجية؟ هذا لأنها أولاً وقد نجحت فى تطبيق القانون فى بلادها، قد ظنت أن ذلك يمكن أن يتحقق بين الجماعة الدولية، ومن ناحية ثانية لأن رجال القانون كانوا هم الذين يصوغون السياسة الخارجية، فكانت تلك الصورة البادية من إقحام الأحكام والحقيقة على عالم لا يعرف الحقيقة، ولأن الأمريكين ورجال القانون كانوا أحراراً فى حركتهم داخل وخارج الحكم.

وأقوم من هذه الشرعية كياناً لدى كينان كانت نزعتة الأخلاقية فى تناوله لشئون الدولة على أساس من الحق المطلق أو الخطأ المطلق، فأولئك الذين يدعون أن هناك قانوناً للأمم يغضبون لأى ثلمة تنال القانون ويحسون بما للأخلاق من مكانة تعلو عليه، فإذا كان للسخط أن يجمع السياسة العسكرية فإن الوضع القانونى والأخلاقى ينشد التسليم دون قيد أو شرط ويتصدى للقضاء على كل من يثلم القانون حتى يستسلم صاغراً. ومن السخرية أن تقوم الحروب فى ظل من المبادئ الأخلاقية التى تفرز العنف، وهى أدعى إلى القضاء على كل استقرار سياسى من كل حرب تقوم من أجل المصالح القومية، وما الحرب الشاملة والتسليم دون قيد أو شرط إلا أثر من آثار هذا المنحى الذى

يتسم بالشرعية والأخلاقية، وما التاريخ إلا شاهد عدل على أن الحروب التي قامت من أجل أهداف محددة قد استطاعت أن تحدّ من طبيعة الحرب، فإذا كان الهدف منها أخلاقياً أو من أجل عقيدة ما، يرمى إلى تغيير المواقف والتقاليد التي تحكم كافة الخلق أو طبيعة النظام، فإن النصر لا يتحقق عن طريق العمل العسكري، وقد يكون القانون للشعوب «أداة رقيقة لتهديب الأحداث» وإن كان من الأقوم للزعماء أن يدركوا أن المصالح القومية قد تكون أقصى ما يمكن أن يعرفوه أو يلموا به فإذا كانت الأهداف الوطنية معتدلةً قويمَةً، لا يشوبها كبرياء أو نوع من الكراهية للغير، بعيدة عن أوهام الاستعلاء، فإن ذلك هو الطريق القويم لعالم أكثر راحةً وسلاماً مما يمكن أن ينشده قانون عالمي أو مبادئ أخلاقية مجردة.

أما كتابه «حقائق سياسة أمريكا الخارجية»^(١) (١٩٥٤) ويضم محاضرات كينان القليلة بجامعة برنستون، فإنه يناقش السياسة الخارجية، ويرى أنها وسيلة وليست غاية، وأن أكثر ما يهم فيها هو ما يتناول شؤون أمريكا داخل أراضيها، فما هي تلك الغايات والمقاصد التي يبتغيها المجتمع الأمريكي؟ إنها أولاً: ما يعرض للحكومة التي تصون للفرد ممارسة حقوقه المشروعة: حق الحياة وحق الحرية، وحقه في أن ينعم بحياة هانئة، وهذا الحق الذي يعود إلى الرواد من آباءه الفلاحين،

ويقومون عليه فلسفتهم : حق التملك وحرية التصرف فيما يملك. فالفرد يدرك تماماً حقيقة مصالحه، وليست الحكومة أكثر من « كلب الحراسة » الأمين عليها (وإن أخذ كينان يشير في كتاباته الأخيرة إلى واجب الحكومة في مقاومة الفساد الذي يجتاح البيئة الاجتماعية) وغاية الحكم أن يكون عوناً لمجتمع منظم على تحقيق ما يبتغيه، ويبنى على هذا هدف في السياسة الخارجية وهما : حماية الشعب من أى تدخل عسكري أو سياسى، وحماية الأمريكيين في الخارج في كل ما يضطربون به من عمل خارج ديارهم. وهما وحدهما الهدفان الأساسيان اللذان ينبثقان من الأهداف الأصلية للمجتمع الأمريكى. وفى خفايا التاريخ الأمريكى القديم أدى هذان الهدفان إلى مفهوم محدود ومتواضع ومقيد للسياسة الخارجية ولم يكن لمثل هذين الهدفين أن يؤدى إلا إلى قاعدة ضيقة للأريحية الدولية، أو المزاغم السامقه أو الاستعلاء الأخلاقى، فلم تجعل من أمريكا دنيا الخلاص، أو مجتمعاً تغدو إصلاحاته الاجتماعية دواء للعالم من كل داء، وحالت هذه الأهداف الأصلية ليحل محلها حلم يراود أمريكا يشوبه سمة من البراءة القاتلة والجهل القائم بما يثور في بقية العالم.

وقبل أن يحول القرن وحتى الثلاثينيات من القرن الحالى ربطت أمريكا نفسها بأحكام عالمية واتفاقيات للتوفيق، وشبكة من الإتفاقيات الدولية بلغت سبعة وتسعين اتفاقية لم يكن منها غير اثنتين تتسمان بنوع من الرجاء، وبينما كان هتلر يخطو إلى القوة دون أن يلحظه أحد، كانت أمريكا تقوم بمحادثات لا تنتهى للحد من التسليح وخطط

لا تسفر عن شيء لإدانة العدوان. ومرة أخرى، أخذت أمريكا خلال الحرب الثانية تشريع لتنظيم عالمي دون أن تلقى بالاً إلى ظهور الاتحاد السوفيتي، وأنه يشكل تهديداً جديداً للتوازن الأوربي، فلما ثارت الحرب الباردة صحا الأمريكيون فجأةً ولأول مرة أو أن هذا هو ما بدا على تلك الحقيقة المزعجة لعالم ما بعد الحرب، وعلى أن هذا الشريك الجاد المستبشر قد اختفى وعلى غرة من أمريكا ترى نفسها في مواجهة مسخ هائل غامض أكثر تهديداً لها من كل الآخرين وأنه يحتكم على نصف موارد العالم.

وتلك هي الحقيقة الأولى في سياسة أمريكا الخارجية - خامة ناشئة لقوة منافسة تدين بالنظام الشيوعي، أما الحقيقة الأخرى فهي أهون وأكثر رحابة: هذا العالم غير الشيوعي الذي يتكلم أهله لغة مألوفة، عالم فيه مكان لأمريكا وأحلامها. ففي العالم الشيوعي ليس ثمة ما نلقى غير هذا الصراع الذي لا يهدأ وقانون الغاب، ويتساءل كينان: كيف يتسنى لأمريكا في مثل هذا العالم، أن تجد مبدأ واحداً يجمع بين هاتين الحقيقتين معاً لتخلص من هذا الخبل وذاك الانفصام العقلي؟

« فإذا كان ثمة درس عظيم، علينا نحن الأمريكيون، أن نتعلمه، فإنه درس عن النهج الذي تسلكه السياسة الخارجية - كما يقول كينان - فحين نتناول الشؤون الخارجية فإن علينا أن نتناولها على طريقة البستاني وليس على طريقة الميكانيكي. وأن نرى تطور الحياة الدولية وكأنه عملية عضوية لا ميكانيكية» فليس الأمريكيون وحدهم هم الذين ابدعوا

كل هذه القوى التي تعمل عملها في العالم وعليهم أن يتعلموا كيف يرون تلك القوى ولما كانت، وأن يتخذوا منها أداة ناجحة للعمل لنا ومن أجلنا، وعلى الأمريكيين أن يتعلموا الصبر، وألا يتوقعوا أبداً أن تأتيهم كل أثقال الأرض مستسلمة لمعايير القاهرة أو مشوشة، فهناك من يرى أن تكون غلبة الاتجاه الأمريكي على الروس بالعمل ضده مواجهة، ويرى كينان أن العكس هو الأصح، فالروس يرقبون ولا يتأثرون إلا بما يجري داخل أمريكا ذاتها وبما يعمله الأمريكيون أكثر منهم بما يقولونه.

وفي كتابه «روسيا، الذرة والغرب»^(١) (١٩٥٧) يناقش كينان وضع الاتحاد السوفيتي في العصر النووي، ويذكر سامعيه في بريطانيا (حيث كان يلقي محاضراته التي كانت أساساً لكتابه هذا) وأمريكا بأن الغاية من القوة العسكرية والتهديد الذري أن تكون درعاً ينمو من ورائه إدراك جديد للطريق وللغاية في المجتمعات الغربية، وعلى الدفاعات الأمريكية والبريطانية أن تتيح لهذه البلاد بعض الوقت حتى تستطيع أن تغير من وضعها لتأخذ مكانها على حافة هذا العدو بنظامه الجماعي القوى. ونشرت التيمز اللندنية في افتتاحيتها، تقول: «إن رجلاً واحداً بإحساسه القوى وفكره الخلاق، قد استطاع أن يحقق تغييراً سياسياً، إنه هذا التيار الذي يتحرك تحت الثلوج» لقد دعا إلى وحدة أمريكية

إنجليزية وأوربية أقوى وأعمق، وأن يسحب كل من الفريقين قواته من قلب أوروبا، فالمشكلة الألمانية قابضة في أي تسوية حول أوروبا. وطالب كينان بأن يعالج مستقيل ألمانيا بكثير من المرونة والصراحة، وكان على خلاف أنداده في وزارة الخارجية ممن يرون أن أي محاولة لسحب القوات الغربية ستترك أوروبا مجردة من أي دفاعات أمام أي تقدم سوفيتي، وقد أغضبت مقترحاته قادة ألمانيا الغربية وجلبت سخطهم عليه، وهيأت لمنافسه الفكرى القديم «دين أتشيسون» وزير الخارجية الفرصة ليحمل «جيمس ريستون» على كتابة ما يلي: «إلى الأمام من نصب لنكولن التذكاري، وأنت ترى مستر دين أتشيسون وهو يشد شعر رأسه تحت ضوء القمر، فإنك لتشهد دون ريب أعظم المشاهد إثارة في العاصمة» وإن بقيت ألمانيا الغربية لتشهد سياسة الشرق، وترى الأمريكيين يوقعون اتفاق هلسنكى الذى يعترف بالحدود المشروعة لنفوذ كل من الشرق والغرب. ولقد كانت رؤى كينان لأوروبا الغربية أكثر صدقاً من ناقديه كما كانت أحكامه سديدةً محققة.

ومؤلفات كينان عن روسيا هى فى الواقع ثمرة السنوات التى قضاها فى ربوعها وأكثرها سداداً لمن يتخصصون فى الشؤون السوفيتية، وقد ظفر كينان بجائزى بانكروفت، وبوليتزر، وشهادة الكتاب القومى عن كتابه: «روسيا تتخلى عن الحرب»^(١) (١٩٥٦) كان الجزء الأول منه عن العلاقات السوفيتية الأمريكية ١٩١٧ - ١٩٢٠ تبعه الجزء الثانى «قرار

Russia Leaves the war.

(١)

التدخل» (١٩٥٨). ومضى في دراساته للتاريخ الدبلوماسي في الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر، بينما قلت كثيراً أحاديثه عن المسائل ذات الأهمية المعاصرة، وفي أخريات الستينيات أصدر كتابه «الديمقراطية والطلاب اليساري»^(١) (١٩٦٨) عبارة عن حوار مع المتطرفين من الطلاب اليساريين، يعزو إليهم فيه القصور عن الهدف البناء. كما ظهر جزءان من مذكراته الأول عام ١٩٧١ والثاني عام ١٩٧٢، وبين عشية وضحاها، أصبحت مرجعاً لكل حديث عن الحرب الباردة.

وفي «غيوم الخطر: حقائق معاصرة في سياسة أمريكا الخارجية»^(٢) (١٩٧٧) تقدم كينان بتوصياته عن السياسة الخارجية لحكومة كارتر القادمة، وكل ما جاء فيه مما يدور حول العلاقات السوفيتية الأمريكية، ودعا فيه دون إبهام أو غموض إلى مزيد من الجهد البالغ لنزع رداء التنافس العسكري الأحق، والسعى بكل السبل لنزع السلاح. لمسح تلك الغيوم المدممة التي تحيط بالبشرية، كما عرض بالنقاش لمشكلات السياسة الخارجية في مناطق العالم الكبرى. إلى جانب المشكلات العاجلة التي تنوش العصر. كما تناولتها محادثات سولت، وحقوق الإنسان والوفاق. وأراد أن يستخلص إطاراً كبيراً متماسكاً لشق الاتجاهات التي سلكتها سياسة أمريكا الخارجية، فإذا كان قد حقق ثمة نجاح فلأنه قد عبد الطريق لصانعي السياسة في المستقبل أما إذا كان

Democracy and the Student left.

(١)

The cloud of Danger: current Realities of american Foreign Policy.

(٢)

الفشل نصيبه فقد وضع نسقاً من الأفكار العامة والمبادئ تبدو قاصرة في عالم من المتخصصين.

وبقى كينان حفيظاً بهذا الأثر البالغ العنيف للرأى العالم على السياسة الخارجية، فقد حذب بسمارك تقييد المناقشات التشريعية للسياسة الخارجية ورفض أى مناقشة برلمانية للتقديرات العسكرية، وهو اتجاه، كما توهم يؤدى إلى خفض الإنفاق بنسبة ١٠ إلى ٢٠ فى المائة، أما ما يراه كينان وعلى النقيض مما رآه «الرئيس دويت د. أيزنهاور» فهو هذا العدو الفطن فيما يراه من أضرار الصناعة العسكرية على سياسته الخارجية، ولا يرى كينان إلا أن يعترف بأنه لا يرى حلاً للمشكلات الكامنة فى نظام أمريكا السياسى، فأمريكا لا تستطيع أن تدير علاقاتها الخارجية دون حلفائها. إلا أن هذه العلاقات تتشابك وتتعدد فى مناقشات الكونجرس وما يتناولها من رأى عام تحدوه نزعة صليبية عسكرية وسياسية.

وبالرغم من الحدود الضيقة التى أضفها على الأخلاقيات، فقد كان فى أعماقه أخلاقياً، ويراه المقربون من أخوانه على قدر كبير من الحماسة والولاء أكثر مما يراه الناس عامة، وبالرغم من تحفظه وعزوفه عن الحديث، فإنه كان على صلة وثيقة بمن يجلبهم ويثق فيهم، بما كان لإنسان أن يستريب فى أنه يتمتع بقدر كبير من الألمعية والذكاء بالأصالة، وقلماً وجد قرين له فى إدراكه للسياسة الخارجية فى أمريكا كراً وعملاً.

الأزمات على إمتداد
التاريخ

لويس ج. هال. الصغير (١٩١٠ -)

ولد لويس ج. هال لأسرة ثرية في السابع عشر من نوفمبر ١٩١٠ بمدينة نيويورك، وحصل على درجة البكالوريوس من هارفارد، مع التخصص في التاريخ والاقتصاد وعلم الحكومات عام ١٩٣٢، وعمل في شركة وسط أمريكا للخطوط الحديدية، وقد بقي اهتمامه بالجنوب الأمريكي يصاحبه طوال حياته الوظيفية، كما عمل محرراً في دار للنشر، وقضى عاماً بالمدرسة العليا بجامعة هارفارد لدراسة الأنثروبولوجي، وأمضى فترة قصيرة في خدمة القوات المسلحة، حتى التحق أخيراً بوزارة الخارجية عام ١٩٤١ وظلّ بها حتى عام ١٩٥٤ فيما عدا فترة قصيرة قضّاها في خدمة حرس الحدود.

وينقسم عمله في وزارة الخارجية إلى فترتين متميزتين، فحتى صيف ١٩٥١ ارتبط بشئون أمريكا اللاتينية وبالذات فيما يتصل بالتعاون الفني وسياسة التنمية الممتدة لكافة بلاد أمريكا اللاتينية، ثم عين بكلية الحرب حيث لفت إليه أنظار «جورج ف. كينان» و«جوزيف ي. جونسون» الذي تولى فيما بعد رئاسة منحة كارنيجي للسلام الدولي، ثم

أصبح عضواً في هيئة التخطيط لوزارة الخارجية تحت إشراف كل من «جورج ف كينان» و«بول ه. نيتزي» وغدا على علاقة طيبة بوزير الخارجية «دين أتشيسون» ووسعت مسؤولياته كل جوانب سياسة الولايات المتحدة الخارجية، وشغل تماماً بكل تصوراتها، وتطورها وتخطيطها وأضفى على عمله هذا من التعميم ما تؤهله له ثقافته العريضة وخبرته السياسية الواسعة، فكان مثالياً في كل ما يعده ويقوم به.

وفي أغسطس ١٩٥٤، عندما تولى «جون فوستردلاس» وزارة الخارجية، تركها إلى منصب الأستاذية بقسم ودرو ويلسون للشؤون الخارجية بجامعة فرجينيا. وفي تلك الفترة من التأمل والدراسة استطاع أن يتميز بإنتاجه العلمي وحياته الدراسية، وأتيح له أن يؤلف بضع عشرة كتاباً في السياسة الخارجية والعلاقات الدولية. وفي جامعة فرجينيا أضفى على حلقاته الدراسية مزيجاً من التصور التاريخي والتحليل الواقعي للسياسة الخارجية تميز به وغدا علماً من أعلام التحليل السياسي في العالم الغربي وكان له من مزاجه وأسلوبه ما جعله على الاستقلال العلمي، فلم يحاول أن يخضع موهبته لأي منحى جديد من مناحي الدراسات السلوكية.

وقد ترك الولايات المتحدة عام ١٩٥٤ عندما دعاه «جاك فريموند» لمنصب أستاذ سياسة أمريكا الخارجية بالمعهد العالي للدراسات الدولية بجنيف، سويسرا حيث بقي حتى تقاعده، واكتسب الجنسية السويسرية عام ١٩٧٧، حيث قرر أن يتابع حياته العلمية في جنيف، وأن يتناول

سياسة أمريكا الخارجية، من حيث نفعها لأوروبا، وكانت له محاضراته الدورية في الولايات المتحدة وفي بعض المراكز الأوربية، ولكنه أبى كل فرصة مواتية للعودة إلى الولايات المتحدة، وفي جنيف قام بإعداد أكثر مؤلفاته، وشغل بعضاً من الزمن، بالأوضاع الاستراتيجية للسياسة الخارجية التي سادت خلال الفترة المعاصرة من تاريخ الغرب وكانت حلقاته الدراسية أداةً للكشف عن أفكار جديدة وتجربتها، وازدان بها كتاب حوى كل ما تناوله في حلقاته الدراسية الشهيرة بجنيف.

ولم تكن مؤلفاته الستة عشر لتثير دهشة من عرفوا كتاباته الأولى، وقد بدأ حياته الأولى كأحد كتّاب التاريخ الطبيعي، ونشر كتباً ساحرة شيقة منها كتابه «الطيور ضد الإنسان»^(١) (١٩٣٨) وكتاب «نهر الخراب»^(٢) (١٩٤١) و «ربيع في واشنطن»^(٣) (١٩٤٧) وقد بقى له طابعه الكلاسيكى البسيط، ولم يكن تصويره العميق للطبيعة ولحياة الطيور لينم عن قدراته على الكتابة فحسب، ولكنه يكشف عن اهتمامه بالعالم من حواليه أيضاً، فإذا لم يكن له من هذا الأهتمام غير هذا القليل، لكان قد لاذ بحياته الأسرية الهنيئة في أعالي مقاطعة وستشستر وقد تبدو كتاباته السياسية المبكرة بعيدة القياس، مطردة لا رابط بينها فلسفية، أقل من أن تثير نوعاً من الجدل كذلك الذى أثارت كتابات

Birds against Men.

(١)

River of Ruins.

(٢)

Spring in Washington.

(٣)

كينان، ومورجنتو، ونيبور، الصريحة والمثيرة للجدل، وإن كان لا يداني كتابه «الحرب الباردة كتاريخ»^(١) (١٩٦٧) كتاب من تلك الكتب التي صدرت في أعقاب الحرب في ملكة التفسير التاريخي. ولم يكن لأولئك الذين عرفوا كتاباته المبكرة، واهتماماته الثقافية الواسعة وملكاته الفكرية المتأججة أن يباغتهم ما انتحاه في سنواته الأخيرة من تصور للنظام العالمي الناجم عن قلقه حول ما يخفيه الزمن من تشوش وغموض.

وما بين كتبه في التاريخ الطبيعي، وجولته الرائعة في التاريخ العالمي، بعيداً عن التشوش والغموض، كتب هال العديد من الكتب التي لا نظير لها مما يضيف الضوء على شتى مناحي السياسة الخارجية في أصولها النظرية وفي إطارها الثقافي والتاريخي، منها كتابه «الحضارة والسياسة الخارجية»^(٢) (١٩٥٢)، وقد وصفه دين أتشيسون وزير الخارجية بأنه «كتاب من نور» يقدم فيه منهجاً وطريقة للتفكير في السياسة الخارجية، ففي هذه الدراسة المبكرة يبحث هال عن الأصول العامة للسياسة الخارجية، ليجيب عن هذا السؤال: لماذا سياسة خارجية؟ كما يناقش عناصر القوة، والسيطرة على القوة قهراً أو رضا، والقيادة أو التسلط. ويعلق أتشيسون وزير الخارجية في تقديمه للكتاب: «نتعمد نحن الأمريكيون في كل مانكتبه عن العلاقات الدولية أن نقوم بدراسته منها، أن نغفل التحليل النظري والمنطق الفلسفي للمادة التاريخية

Cold War History.

(١)

Civilization and Foreign Policy.

(٢)

وفي هذا القرن بالذات، تغلب شهوة السرد واستعراض الروايات وتكثر الأحاديث عن مشكلات المنظمات الدولية» ولم تكن الغاية التي ينشدها هال من كتابه «الحضارة والسياسة الخارجية» إلا إرساء هذه النظرية، التي يقول عنها أتشيسون: «يعتقد مستر هال أن الجيل الجديد، قد يتناول بالحديث أولئك الذين جاءوا بتلك الخبرات العملية العميقة التي يعجز عنها المنظرون منا. وأولئك الذين كانت مواهبهم الباهرة وخبراتهم التي تضيف على النقص كمالاً». فهذا الجيل الذي يضيف عليه كل من هال وأتشيسون هذا الثناء يحفل بهذا العدد من الرجال أمثال «جورج ف. كينان» و«بول نيتزي» و«س. ب. مارشال» وهم إلى جانب هال كانوا «الباحثين والنقاد للسياسات المقررة، وهم الذين يعيدون تقييم المسائل، ويتكهنون بما يقع منها ويشيرون الاتجاهات الفلسفية الجديدة والجهود التي يضعونها لكل ما يجدر في المستقبل» وحتى يتسنى لهم القيام بذلك فإنهم في حاجة إلى كيان عملي للنظرية في منطقة تحفل بالأفكار الفلسفية والعلمية. وللحقيقة فإن صاحب النظرية على ما يقوله أتشيسون، رجل يضع قدماً في السماء وأخرى على الأرض، ويضم كتاب هال هذين العنصرين معاً مما يتيح للقارئ نظرة عالمية ثابتة وكلية، وهو هدف يضع كل ما كتبه هال موضع التنديد. وأبرز ما يند به الكتاب تلك التفرقة التي يضعها هال بين المسئولية والفكرة، فمن ناحية، تعبر عنها كلمات أتشيسون: «أن مسيرة العلاقات الخارجية للولايات المتحدة تقع، ويجب أن تقع على عاتق رئيس الولايات المتحدة. فهو صاحب القرار وعلى كاهله تقع مسئوليته» وعلى كثرة

ما ينشد الرئيس من شورى أو نصيح، فإن وزير الخارجية هو ناصحه ومشير الأول. وعلى هذا « فإن الوزير... هو الأمين على كل أفكاره، وإليه وحده ترجع المشورة الواعية البينة التي تسبق الإجراء » والوزير في حاجة إلى العون حتى يستطيع أن يقدم المشورة « فالأحكام والتصريحات المحددة، والاحتمالات، والسياسة والإجراء هي جميعاً في حاجة إلى جهد تعليمي مما يستدعى أن يكون إلى جانب الوزير جهاز من أقوى الأجهزة الفعالة في العالم : هو وزارة الخارجية » وما من مفكر وحده أو جماعة من المفكرين تستطيع أن تضع الأساس لمثل هذه التصريحات المتشابكة المعقدة، « وقد يبقى كل شيء معلقاً حتى يتم طبع القرارات » وبأقوى ضغط العمل اليومي ليجعل من النظرة الواعية البعيدة أمراً عسيراً، وتمضى الإجراءات وراء أسبابها التي أبت أن تسلم بوجودها من قبل، والعجالة تحجب الحقيقة ولهذا، فإن هناك من ناحية أخرى واحد أو جماعة مسئولة أمام الوزير مهمتها أن تبرز اتجاهات وزارة الخارجية، وكانت تلك هي المهمة التي اضطلع بها هال ورفقته، ويعرض في كتابه « الحضارة والسياسة الخارجية » للتخطيط السياسى وللنظرة البعيدة المدى عن التحدى الحضارى فى الصراع القائم بين الحضارة الغربية وأعدائها.

ويختلف « الحضارة والسياسة الخارجية » فى مادته وأسلوبه عن كل ما كتب هال من قبل أو من بعد، فكتابه « فى مواجهة العالم ^(١) » (١٩٥٠) كان رسالةً منه إلى ابنه جون. وقد تعتمد فى الكثير من

فصوله أن يدلى فيها بشيء من فلسفته الخاصة. أما «اختيار البقاء»^(١) (١٩٥٨) فقد أخذ يتساءل فيه كمؤرخ عن الخيار السياسى، ومضى فيه ليتناول تأثير الثورة النووية على الاختيارات المعاصرة. فقد أدت هذه الثورة إلى «تزايد الاحتمالات التى ترجح اتقاء حرب طويلة... (ولكنها أيضاً) قد ضاعفت عقاب من يفشل فى اتقائها وفى «الحلم والحقيقة»^(٢) (١٩٥٨) يلقي الضوء على الجانب الإنسانى فى السياسة الخارجية والمحور الأساسى لفكرته، هو أن الحكومات هى أولئك الناس الذين تختل لديهم التصورات وتخطئ، والتى يحكمها الخوف، وتخضع لبروق الأمل والوهم أو الحلم والحقيقة، ومع إلمام هال بتاريخ الدول الأخرى، فقد ركز على الولايات المتحدة، وقد غاصت فى دنيا القوى السياسية منذ عام ١٨٩٨، تسعى طوال نصف قرن وراء التوفيق بين سياسة العزلة والسيطرة الاستعمارية فى أعالي البحار، وخطوة بعد أخرى، انتهى العمل والفكر الأمريكى بتلك المأساة الشبيهة بمآسى شيكسبير فى بيرل هاربر. ومع هذه السياسة الجديدة التى انتهجتها أمريكا فى أعقاب الحرب. بدأ الأمريكيون. كما يعتقد هال - يوائمون بين الحلم والحقيقة، وأخذوا يصعدون بنغمة من التفاؤل والأمل، لم يكن لهم منها نصيب خلال الستينيات والسبعينيات. «فبعد خمسين عاماً من التخبط، نرى شعبنا يسلك فى النهاية مسلك الحكمة والعقل، لم يكن له مثيل، منذ أيام الأباء الرواد».

Choice for Survival.

(١)

Dream and Reality.

(٢)

ويمضى هال في كتبه الثلاثة التالية بإثارة المسائل الأساسية في الفلسفة السياسية والدولية، ففي كتابه «الناس والشعوب»^(١) (١٩٦٢) يكشف عن الأصول الفلسفية في فكر الإنسان العادى، وفي «مجتمع الإنسان»^(٢) (١٩٦٥) يعود هال إلى بحث النظرية والتطبيق في السياسة - كيف استطاع الناس أن يوفقوا بين عالم منظم رتيب في تصوراتهم الفكرية، وعالم وجودى مشوش، فإذا كانت الحياة في عالمين تتباعد هذا التباعد الهائل، وهو ما يدين به الفكر الماركسى اللينينى كما يؤكد هال، فإن العواقب وخيمة، فإذا جدّت ثورة تؤدّى إلى تنظيم عالمى جديد، فإن الإنسان قد يمضى قدماً في عمل مشترك وفي دنيا تنقسمها ثنائية في الفكر والعمل نحو مجتمع عالمى جديد.

وفي كتاب «الحرب الباردة كتاريخ» (١٩٦٧)، يحذو هال حذو ثيو سيديد - الذى شارك في حرب اليلسوبرنيز - في وصفه تلك الحقبة الأخيرة من التاريخ كما لو كان قد مضى عليها مائة عام. أما من ناحية تأثيره على الموقف من الأزمة الحاضرة، فإن هذا الكتاب قد يعدّ بحق أبقاها أثراً من كل ما كتب هال، ففيه يعرض للأصول، وللقوى والاتجاهات الخفية، والأحداث الأصلية، والشركاء القادرين في هذا الصراع، بعيداً عن نظرة أولئك الذين يرون الحرب الباردة كما لو كانت تحمل كل بذور الشر لأمريكا، وأولئك الذين لا يرون فيها مكمناً

Men and Nations.

(١)

The Society of Man.

(٢)

للخطر، وأخذ يقتفى معالم السياسة السوفيتية من مواقف الروس وأهدافهم التاريخية، ويبين أن سلوك أمريكا ما هو إلا امتداد تجربة تاريخية كان الأمريكيون فيها يتصدّون للروس. (ما من عدو استطاع أن يخترق الحدود الأمريكية جيلاً بعد جيل. وقد وقف الأمريكيون دون المركزية والقمع، ولم يتجاوزوا التسليم بإقامة المستوطنات دون خوف أو حواجز جمركية) وقد استطاع هال أن يضع صورةً بارعةً لفراغ القوى على جانبي روسيا حيث كانت تنشُد طوال تاريخها التوسع والامتداد، أخذ يحلل نوايا الروس نحو أوروبا الشرقية في أعقاب الحرب، فكانت مناسبة بولندا، وسقوط رومانيا والمجر وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، كتحليله لردّ الفعل الأمريكى من خلال مبدأ ترومان ومشروع مارشال، والناتو (حلف الأطلسي) وصاغ تاريخه، لعهد نيكيتا خروشوف، والتعايش، وكوبا، وبداية فيتنام، وصور الحرب الباردة كدراما إنسانية يتنازع فيها الأقوياء والضعفاء للسيطرة على القوى التاريخية المحيطة بهم، والقصة كما بدت لهال لم تكن قصة الصراع بين الخير والشر، ولكنها كانت صراعاً مأساوياً متعسّفاً لا يمكن تجاهليه. تورّط فيه الطرفان في مشكلة عويصة لا حلّ لها ولا مخرج منها، لا يملك أى رقيب لها غير الأسى لكلا الجانبين.

ويعدّ كتاب لويس ج هال «بعيداً عن التشوش»^(١) ملحمة متسقة كتبت بنفس الدوافع والاهتمامات التي حفل بها فكر «أرنولد ج.

Out of Chaos.

(١)

توينبي» و«أوزفلد شبنجلر» و«جاكوب بوركهارت» ففي حنايا كل منهم تلك البذور العديدة من القلق، والضنى الوليد. قد تحجب تلك الشذمة من المعرفة المتخصصة كل بحث عن جدوى الحياة، فالمؤرخون يدونون أحداث الماضي ويشرحونها، أما فلاسفة التاريخ فإنهم يكشفون عن الأحداث كما وقعت ثم يعملون على سبر غورها، فمند ثيوسديد حتى هال كانت غاية هؤلاء الفلاسفة أن يضيفوا أصولاً حيّة على التاريخ وفكراً وطيداً لكل دراسة تقوم. فالبحث عند توينبي يقوم على إيمانه بأن الحضارات العالمية «تحمل جميعاً نفس الإطار إذا أردنا تحليله تحليلاً صادقاً» هذا الإطار يمكن أن يقتفى أثره من خلال مشاهد ثلاثة : يراها في النمو والتطور، والأزمات والفشل، والانتعاش، ثم الفناء الأخير. ويكتب المؤرخ البريطاني الكبير «ه. ا. ل. فيشر» عن توينبي، وكان فيشر ممن لا يؤمنون بالتكهن السياسي، أنه «لا يحصر نفسه في دائرة الحقائق تماماً، وإن كانت أفكاره التاريخية ريانة خصبة حافلة بالمقارنات الواعية... (لأنه) لا يتحيز» أما بوركهارت وهو الآخر مؤرخ يلتزم بالعلمية، فإنه يضع الواقعة والمغزى نواة لكتابه التاريخية : «فهمة التاريخ إجمالاً أن يبرز الصور المتوائمة، متميزة ولكنها متطابقة، يبدأ بالواقعة فهي، في جوهرها وفي أي إطار يمكن تصورهما، لها وضعها التاريخي فتبدو من خلاله وكأنها متغيرة... تشكل جزءاً من الكل لا يتسنى لنا أن نتكهن بها، هذا أولاً، وثانياً فإن كل حدث يتم عن جوهر يشارك من خلاله في الخسة والفساد» والإنسان في التاريخ مخلوق وخلاق، يخضع لقوى يمكن أن يحكمها إلى حد ما، ولكنه على خلاف

غيره من المخلوقات، يستطيع أن يصوغها وفق ما يشتهي». وقد أوحى الواقعة لشبنجلر تلك النظرة المقننة «فالإنسان هو الذى يبدع أسلوب حياته - وهذا هو سرّ عظمته وسرّ هلاكه، أمّا القوّة الخفيّة فى إبداعه فهى التى نسميها ثقافة».

ويختلف كتابه «بعيداً عن التشوش» اختلافاً بارزاً، فى أصوله، وفحواه وهيكله عن كل ما كتب توينبى، وسوركهارت، وشبنجلر فى التاريخ، ففي عام ١٩٢٢ بدأ توينبى وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره كتابه العظيم «دراسة التاريخ» وكان هال حين بدأ عمله العظيم، وألف ستة عشر كتاباً فى شتى الموضوعات: فى السياسة الخارجية، وفى الفلسفة، وفى السياسة، وفى التاريخ الطبيعى قد نيف على الضعف من عمر توينبى حين بدأ كتابه ذلك. وكان توينبى ومن سبقه قد حصروا أنفسهم داخل الصنعة والدراسات التقليدية للتاريخ، ولكن هال بكل ما فيه من جرأة مثيرة قد أخذ على عاتقه أن يقتنص كل جوانب المعارف الأساسية، فبدأ بدراسة العلوم الطبيعية وعلم الأحياء، ثم اقتحم هذا الميدان المضنى بمراسلة مؤلفى المراجع الأساسية، وبجهده الذاقى فى التحصيل أخذ يتابع المثل التى سادت عصر النهضة، وبكل ما أتيح لى من معايير، أعرف أنه حقق ما ينشده، ففي الجزءين الأولين من كتابه الذى تبلغ صفحاته ستمائة وخمسين استطاع أن يبرز قدرته ومواهبه العقلية الفذة فى الإنسانيات وأن يحيط بكل مظاهر الكون المعقدة، وبكل معالم التطور فى حياة هذا الكوكب الأرضى، فإذا كان قد تحقق

له ذلك بكل ما ألم به من دراسات متكاملة، ولم يكن له غير ذلك
لكفى، ولم تكن تلك الحصيلة الكبرى من المعارف المتكاملة لهذا العقل
الفرد، كل ما يؤثر عنه، ولكنه كان فى عرضه لها دقيقاً وواضحاً، حتى
ليذكر جيمس ريستون عرضاً لكتاب قديم من كتب «جورج ف.
كينان» ألصق صديق لهال، يقول فيه عنه: «إنه يملك الفكرة ويستطيع
الكتابة... لم تطل حياته بالجامعة... لتخدم أفكاره فى غبار المتاهات
الأكاديمية» وفى هذا الكتاب، يسبر هال أغوار التجربة الإنسانية بما لم
يتصد له غير قلة من علماء الإنسانيات. ويتناول الجزء الثالث العقل،
فى فصول تتناول: «أصل العقل» و«مجئ الإنسان» و«تطور المخ»
و«بداية الثقافة الإنسانية» و«الرجل البروميثي»^(١) و«المخيلة» و«اللغة»
أما الفصل الرابع والخامس والسادس، والخاتمة، فقد اختار لها عنواناً
«مؤشرات» وهى أقرب إلى الطابع الفلسفى للتاريخ، مع فرق واحد
بين. وتتناول الدراسة فى الفصول الثلاثة الأولى، والتي يعتمد فيها
اعتماداً كلياً على علم الحياة والعلوم الطبيعية عرضاً تطبيقياً ملخصاً
للتاريخ الثقافى والسياسى، ولم يكن يتوسل بالعلم ليضفى على كتابه نوعاً
من الوقار المفتعل ولكنه أراد أن يثريه بتلك المعرفة التى أضفها العلم
على الفكر الإنسانى، وكان ذلك العلم الذى يعنيه هو على الإبداع
النظري فى الرياضيات والعلوم التجريبية، وليس ذلك العلم الذى يقوم

(١) فى الأساطير اليونانية أن بروميثيوس سرق النار من الآلهة ووهبها الجنس البشرى، وعاقبه
زيوس كبير الآلهة على فعلته. (المترجم).

على البحث الضيق كما عرف، « فالبحث العلمى يقوم بفك الساعة ليعرف أجزائها و يقيسها، أما العلم النظرى فإنه يرى تلك الأجزاء المبعثرة مهوشة مختلطة، ليتخيلها بعد ذلك كلاً واحداً ».

أما العمل العلمى الكبير الذى قام به هال فقد انتهى به إلى أن الإنسان فى الحضارات التاريخية التى امتدت نيفاً وستة آلاف عام هو الذى جاء بالنظام من غمار الفوضى تحفزه قواه العقلية والروحية وإقامة معيار للنظام، وما من حضارة إلا وكانت ثمرةً من ثمار الإيجاء مغلفاً بالمعايير العقلية فى صورة دين أو عقيدة، والحضارات، كأتى كائن حتى لها امتدادها التاريخى من الطفولة إلى الشباب فالشيخوخة ثم الفناء، ويدلل هال على أن الحضارة القائمة التى امتدت إلى طرفى المعمورة بقوة العلم والتكنولوجيا قد بدأت حياة الشيخوخة، وكان مولد هذه الحضارة الغربية فى نهاية الألف الأخيرة من الميلاد، تنفض عنها غبار العصور المظلمة تشدّها رؤيا الأبدية (كاتدرائية القوط) كما تشدّها نظرة معقدة للتوفيق بين كافة القوى (هذه الأقواس التى يتسم بها البناء القوطى بالقياس إلى الأعمدة والعقود اليونانية) المليئة بالاستقطاب والتوتر. وعلى مدى التاريخ كان انهيار الحضارات عندما تتهاوى لديها معايير الرؤية وتحل محلها القوة العسكرية وحدها. وكان الطغيان والاستبداد القيصرى والدولة البوليسية آخر ما نجم عن الفوضى الاجتماعية المطردة من آثار بدت فى توسع الإمبراطوريات العسكرية وامتدادها ثم تفككها وانهيارها.

وفى مثل تلك اللحظات التاريخية ، يبدو المستقبل كما يراه هال فى

صورتين: مستقبل لا يمكن لأى إنسان أن يتكهن به، ومستقبل تفتقد الثقافة فيه مراسيها ويتمزق فيه إحساس البشرية بالاستقرار النفسى، وحتى يتسنى للناس فى الغرب أن يسوسوا حياتهم، وأن ينظموا سلوكهم، وأن تقوم قراراتهم على نظام يستند إلى تقاليد ثابتة، تستمد سلطانها من العادات والأخلاقيات التى يجمعون عليها، لتكون أساساً لنمط من القيم المتدرجة تقوم على التمييز بين الخطأ والصواب، وعندما ينهار هذا البناء من التقاليد والعادات التى تزن الحياة، يفقد الناس مراسيمهم الأخلاقية دون أن يكون لهم بديل عنها من القيم الجديدة، ويصبحون فريسة أساليب مستهجنة وغوغائية سياسية، وحركات جماهيرية متشنجة، ولما كان التغير أسرع من أن تلحق به التقاليد والعادات، فإن هال يتوقع أن تعم الفوضى ويشيع الخلل بما لم يسبق له مثيل خلال القرنين أو القرون الثلاثة القادمة، ويخيم خطر السلاح النووى، بقوته التدميرية الرهيبة القادرة على أن تمحق خلال أيام قلائل كل حياة تجرى على سطح الأرض لتتركها خراباً يباباً.

ويتساءل هال، كما يتساءل توينبى عما تصبح عليه البشرية إذا ما استهدت طريقاً آخر، إن اتفق الاثنان على أن الحضارة الغربية تمرّ بمرحلة من الانحلال. إلا أن توينبى يأبى تطير شبنجلر ولا يدين بأحكامه العشوائية عن الغرب وهو ما يتفق مع ما يراه هال إلى حدّ كبير. إذ يأمل توينبى أن تتم تسوية سياسية بين الشرق والغرب فى وقت قريب وقيام حكومة عالمية، ويرى هال أن مثل هذه التسوية محتملة،

ولكنه لا يرى أملاً في قيام حكومة عالمية في الوقت الحاضر. كما يقرر
توينبي أن الموجة الحضارية تتكرر وتتواتر، إلا أن «الموجة الدينية
المتصاعدة قد تكون في صالح دورة حضارية وبداية لها حيث تولد
لتموت، وتولد من جديد «فالدين، والمسيحية بنوع خاص هو الأمل
المرتبجى عند توينبي، ويختم هال كتابه هذا الكبير بكلمات ماثورة
لتوينبي: «باستثناء حقيقة واحدة، لا نستطيع أن ندعى معرفة أى
شئ. وهذه الحقيقة المستثناة قد جاءت على لسان ديكارت.. أنا
أفكر، فأنا موجود... وأفكارى مغلفة باللاهوت، وهماك هو
اللاهوت.. فاللاهوت الذى يغلف أفكارى مائل فى النظام الذى
يخرجنى من الظلمات إلى النور.. وحيث تتسع آفاق المعرفة لدينا عن هذا
العالم، فإننا.. نراها ونلمحها فى صورة نظام مهيب رائع يعيه الإنسان
ويدرك فحواه.»

الصراع
والأوهام الاجتماعية

ريموند أرون (١٩٠٥ -)

ولد ريموند أرون في الرابع عشر من مارس ١٩٠٥، في باريس، فرنسا، لأبيه جوستاف أميل وأمه سوزان آرون، وكان أبوه استاذًا للقانون، والتحق أرون الصغير بمدرسة النورمال بباريس، ونال منها درجة «الأجريجا سيون» عام ١٩٢٨ (وكان الأول على فصله وكان جان بول سارتر الثاني) ثم الدكتوراه في الآداب عام ١٩٣٨، وعمل محاضرًا بجامعة كولون في ألمانيا من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣١، وعضوًا بهيئة موظفي المعهد الفرنسي في برلين من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٣، وأستاذًا للفلسفة في الليسية بالهافر فرنسا من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٤، ثم سكرتيرًا لمركز المعلومات الاجتماعية بمدرسة النورمال العليا في باريس من سنة ١٩٣٤ إلى سنة ١٩٤٩، وأستاذًا للاجتماع بجامعة نولوز، فرنسا عام ١٩٣٩ ومحررًا لصحيفة فرنسا الحرة بلندن، المجلّتا من سنة ١٩٤٠ - ١٩٤٤، كما عمل طيارًا في قوات فرنسا الحرة خلال الحرب العالمية الثانية، وطوال الحرب كان مرافقًا للجنرال شارل ديغول، وقيل في أعقاب الحرب إنه كان عالم السياسة الوحيد الذي

لا يفوت الجنرال قراءة ما يكتب، وكان لأرون عدد كبير من القراء في أمريكا. وقد عرف بنزعتة المتشككة وواقعيته الليبرالية، وكثيراً ما كان يقارن بوالتر ليبمان، ودعاه «هربرت ج. نيوكولاس» «رجل المؤتمرات المفكر الذى لا غنى عنه» و «الإنسان الرزين الذى يفيض هوى بالرتابة والوضوح»

وفي فرنسا ظفر بأطيب مقام فى مجالين عمل فيهما : الأستاذ المتميز فى علم الاجتماع السياسى، فقد كان أستاذاً للاجتماع فى الكوليج فرانس منذ عام ١٩٧٠ وأستاذاً بكلية آداب السوربون منذ ١٩٥٥ حتى ١٩٦٨، وصحفيًا يكتب عموده الملى بالحكمة وشريكاً فى تأسيس «تامب مودرن» وعضواً فى هيئة تحرير «كومبات» عام ١٩٤٦، وكاتب العمود المنتظم للفيجارو منذ ١٩٤٧، وقد نأى بنفسه عن الاشتراك فى الشئون السياسية والدينية. إلا أن نظرتة السياسية المحافظة كثيراً ما قادتة إلى جدل عنيف مع مفكرى الماركسية. (وأحرقت دمية له فى حرب فيتنام).

وقد صاغت الأحداث فلسفته، وأضفت تجربته المباشرة مع نشأة الجماعة فى ألمانيا ظلالها على نزعتة الكانتية المتفائلة فلم يعد يؤمن بفكرة التقدم التاريخى، وعندما كان يناقش رسالته للدكتوراه، سألته الممتحنون عما إذا كان هناك علة لنظرتة المتشائمة، وأجاب بأن إحساسه بوقوع الكارثة لا يشيع فى نفسه الفرح، وفى أخريات الثلاثينيات كان قد تميز باتجاهه الواقعى فى الفكر الاجتماعى، يعنى بالحاضر أكثر مما يعنى بالماضى أو المستقبل. ويرى «ستانلى هوفمان» أن أرون قد تأثر بفكر «البارون

دى مونتسكيو» و«ماكس فيبر» أكثر مما تأثر «بكارل ماركس» أو «كانت» وإن كان تأثره بمونتسكيو، وتوكفيل قد جاء متأخرًا وفي أخريات حياته.

ويتبع أرون المجرى المعاصر للفكر الأوربي الخالص أكثر مما يلحق بالفكر الاجتماعى والسياسى للمتأمركين الإنجليز، وتسمّ مكانه فى القمة من ذلك الحوار العظيم بين النظرة الكلاسيكية والنظرة العلمية. وكان رجال علم الاجتماع الأوربيون فى أخريات القرن الثامن عشر يدينون باتجاهات أوجست كونت العلمية، وينكرون تطبيق المناهج العلمية الضيقة على العلوم الإنسانية، وكغيره من الكتاب الأوربيين، اعتبر أرون أن علم الاجتماع وفلسفة التاريخ هما دائرتا التبادل الفكرى، وفى بحثه للدكتوراه قدم أدلة قوية عن النسبية التاريخية. فالفكرة التاريخية تتحرك فى اتجاهات ثلاثة: الأول هو: الخيال والأسطورة والملحمة، والثانى: التاريخ، والثالث: التحليل النقدى، وهو لا يأبى المنهج العلمى، وإن كان يشير إلى قصور العلم التاريخى، وكان بحثه للدكتوراه «مقدمة إلى فلسفة التاريخ» (١٩٦١) قد تضمن فصلا عن: «قصور الموضوعية التاريخية»، وكان أول مؤلفاته الهامة بعد بحثه للدكتوراه كتابه «علم الاجتماع الألماني»^(١) (١٩٦٤) يناقش فيه اتجاهات «ماكس فيبر» فى العلوم الاجتماعية، ومحاولته الوصول إلى مضمون عام ثابت للحقيقة والمصادفة، فالعلم كما يراه فيبر لا يقوم على حقائق أبدية ثابتة ولكنه محاولة للوصول إلى الحقيقة، والعلم الحقيقى هو ما يمكن أن يقوم على

(١)

German Sociology.

معرفة عامة ثابتة، وليس لنا أن نتوقع ذلك في العلوم الإنسانية، أما العلوم الطبيعية فإنها تقوم على نتف من الواقع يمكن عزلها وقياسها، ولكن الأحداث التاريخية لا يتيسر استيعابها وإدراكها إلا من خلال المزج والتركيب، وقد رفض كل من فيبر وأرون مزاعم كومث وشيخته ممن يرون أن كل دراسة هي دراسة علمية، وإن كان فيبر قد وضع تفرقة حادة بين الحقائق والقيم وهو ما لا يمكن تحقيقه كما يرى أرون؛ إذ يرى فيبر أن الحقائق الاجتماعية مشرذمة مهوشة، إلا أن علماءها قادرون على إضفاء نوع من الموضوعية عليها يسمح بإجابات ثابتة عامة، ولا يقبل أرون هذا التعميم المصطنع طالما يعتقد أن ذاتية الرأى لا يمكن أن تنساح أبداً، وليست الأحوال التاريخية في رأى فيبر غير وقائع جرت بعيداً عن القيم، ويتساءل أرون قائلاً أترى من اليسير قبول هذه التفرقة بصورة كلية؟.

وفي كتابة «عصر الحرب الشاملة»^(١) (١٩٥٤) يتناول أرون تغير أداة الحرب منذ سيرا جيفو حتى هيروشيما، ففي حروب القرن الثامن عشر المحدودة لم يكن الجندي في حاجة لأن يسأل، لماذا يحارب، أما في القرن العشرين فقد أصبح الجندي والمواطن كلاً واحداً وقد لحق بهما التغير معاً، فإذا سيق الناس للحرب فلا بدّ لهم من شحنة من الحق والخلق تحملهم عليها، فإذا ما انتهت الحرب قضت مشاعر الجماهير والمعتقدات العلمانية على الأنظمة القديمة ودمرتها، وكان من اليسير أن

تحقق الاستقرار بدلاً من هذا العنف. وقد اقتحمت أوروبا عصر الحرب الشاملة بالحرب العالمية الثانية، وفقدت السيطرة على تاريخها، وانجرت نحو تيارات متناقضة بين التقنية والانفعال. وكما تحولت الحرب القومية إلى حرب استعمارية فإن ما يخشاه أرون أن تقوم الحرب الثالثة بسبب العنف الناجم عن سلسلة من ردود الأفعال.

ويسأل أرون كيف يتسنى للناس أن يحكموا انفلاتهم في عصر الحرب الشاملة. ويتوقع توينبي أن السلام يحل عندما يرضى الناس بالعنف، وعندما تقوم الدولة العالمية لتخضع الدول المتحاربة لحكم القانون. ويكتب ماركس عن الوعي بالتاريخ فهو وحده القادر على التغيير، وقد تهاوى التأثير الأوربي في العالم الثالث عندما اجتاحت الماركسية بنظريتها الجذابة عن الاستعمار وما أحرزته من مكانة حملت الاقتصاد الغربى على السعى وراء الإمبراطوريات الاستعمارية ليتحاشى الانهيار الاجتماعى والاقتصادى. إلا أن أرون وقد مضى عليه ثلاثون عاماً في نقد الماركسية يرى أن الحاجة الاقتصادية لم يكن لها تأثير كبير على الاستعمار، وخاصة بالنسبة لفرنسا « فلم يكن هناك من ينكر أن الرأسمالية تتجه إلى إدماج البلدان النامية في نظامها..... (إلا أنه) لا الحرب العالمية الأولى ولا الثانية قد استطاعت أن تنبرأ من الصراع حول المستعمرات بصورة صريحة » فقد طغت الاهتمامات السياسية والدبلوماسية على الاقتصاد وتقدمته. « فالاقتصاد الحديث يؤدى إلى التكافل والتضامن بين الشعوب جميعاً، فاققسام المغنم أو نهب الثروات

لم تعد من طبيعة العصر وإنما تنتمى إلى عصر سلف، ففي عصر الصناعة والتجارة، تصبح الحرب كارثة يضئ بها كل فرد، المنتصر والمهزوم على السواء»، وقد كان هتلر يقدم المصالح السياسية على المصالح الاقتصادية.

وقد اجتاحت الحرب فى هذا القرن الدول جميعاً، وما الحروب إلا صورة للمجتمعات التى تورى شرارتها، وقد يجمع القانون الأعلى للشعب حين الحرب كلمتان هما: النظام والترشيد، فعندما تقع الحرب تعلو السلطة المركزية على ما عداها، وتقع الدولة فى قبضة الجنرالات ورجال الصناعة، أما الحديث عن حرية الإرادة وحرية التعبير وحرية التقييم فيغدو من قبيل الكماليات، ويصبح الحشد الجماعى خطوة إلى النظام الجماعى، ويند احتكار الدولة للإعلام والفكر بالحاجة إلى حماس غامر منظم، وقد أتاحت الحرب العالمية الأولى الفرصة لا ستيلاء البولشفيك على السلطة فى روسيا، كما أتاحت الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩ السبيل إلى ظهور الاشتراكيين الوطنيين فى ألمانيا. ولما كانت الحرب العالمية الثانية لم تسفر عن وضع متميز يفصل بين حالتى الحرب والسلام، فقد ابتليت الديمقراطيات فى الحرب الباردة بكارثة الحشود الدائمة، « وإذا امتدت الحرب الباردة سنوات أخرى، فإن البلاد ستتحول إلى قلاع حصينة، ما لم تؤثر الحقائق التى تدعو إلى نبذ المواجهة والتصدى على الأباطيل التى تدعو إلى المقاومة والصراع ».

وأمام هذه الظروف يدعو أرون إلى « إيمان خال من الأوهام .. فإذا

ما قارن بين حقوق الفرد، وظروف المعارضة السياسية وتأثير الإنتاج على رفاه الجماهير ورخائها في النظامين الأمريكي والروسي فإنه يراها على طرفي نقيض، وعندما تواجه الحضارة الغربية مصيرها المحتوم فلا مناص من الصراع بالرغم مما ينادى به دعاة الحياد. ويبقى سؤال في حاجة إلى جواب: هل يتسنى لآسيا وأفريقية أن تعيا طبيعة هذا الصراع كما نعيه، فالتباين مازال قائماً بين الدول المتقدمة والدول دون النامية، وسيبقى لا لحقبة معينة ولكن لقرون طوال، فالمعاناة والمجاعات التي تعانيها هو الجزء الأوفى لقصورها عن استثمار مواردها، ويرى أرون أن التقدم المادي يسير على العالم النامي، ولكنه في ريب من أن يتبع التقدم المادي تقدم اجتماعي أو فكري، فالعامل الفرنسي مع أنه يتقاضى أعلى أجر لأقل ساعات عمل، قد أصبح في شك (وهي شكوك يغذيه بها المفكرون) في أنه لا يجد ما يدافع عنه «فالجسد الاجتماعي... في خطر من أن يقضى على الالتحام والتماسك في النظم الجماعية التي ترى النجاح المادي غاية آمالها» وكان أرون من الشجاعة حين كشف عن الشك الذي أخذ يسفر عن ذاته في جدوى القواعد الأخرى، (وليست القاعدة التي يسير عليها الإنتاج الاقتصادي وحدها) - كحكم القانون.. والحياة الممهدة للموهبة والإبداع. والثقة المتبادلة بين كافة عناصر الجماعة المتباينة، والتقدم العلمي من خلال حرية البحث» والعلوم التقنية محايدة بطبيعتها وأخلاقياتها، وإن كان العلم زاداً للعنف حين سخرته الدولة الحديثة لذلك، ولكن الدواء كان خير شفاء. ولم تكن الثورة الصناعية أداة للوحشية، «وقد نقص سكان ألمانيا إلى النصف بعد حرب الثلاثين عاماً، بينما كان معدل الزيادة بين سكان غرب

أوروبا عام ١٩٣٩ حوالى ١٠٪، وكان الرومان يبتاعون الرقيق، وكان قدامى أهل الصين يقننون التعذيب، فالعلم لا يعلم الرجل أن ينبذ رفيقه، ولكن يزوده بالوسائل المهلكة لذلك. «فالإنسانية لا تفقد ذاتها بالسيطرة على الطبيعة ولا تدين نفسها بالنسيان».

وعندما كتب روائى عن الصراع بين الديمقراطية والشيوعية فإنه كان يدفع فى الأولى بنصف الحقيقة أمام أكذوبة تامة. فالمجتمع السوفيتى يدعى أنه فى طريقه إلى الكمال، وما أكثر ما يخجل الناس من الواقع إذا ما قورن بما هو مثالى والبعض يرى إمبراطورية الشيوعية العالمية وكأنها أتوبيا، بينما يرى أرون «أن مثل هذه الإمبراطورية ليست أكثر من حلم وأنها كابوس مزعج» فالثقافة العالمية تتعدد وتتنوع، وقد شاعت القوميات فى العالم حملها الأوربيون إلى كافة القارات يحدوهم حماس طاغ إلى إقامة إمبراطورية عالمية، فالغرب: «يجب أن يتمتع بحقه فى اختيار ربه، وحقه الحرّ فى إدراك الحقيقة، وحقه فى ألا يكون تحت رحمة البوليس أو الرسميين ولا للأساليب التقنية للقهر النفسى فهى جميعاً من القيم التى لا يسلم بغيرها تسليم الاتحاد السوفيتى بفوز الستالينية» وعلى المدى الطويل يبدو هذا الولاء لمثل تلك القيم التقليدية أبدياً يمسك بالرقاب أكثر مما تمسك بها ثائرة التعصب، فأصحاب الدعوة إلى الجماعة يندفعون فى الواقع إلى الورا بإحياء «الطغيان العلمانى» وكهنوت البيروقراطية.. ولم يتسن لها أن تقيم الدليل على أن الأنظمة الجماعية ليست أكثر من حدث عارض فى عالم ملئ بالحروب، ولكن الأمل باق فى انتصار المجتمعات الليبرالية».

وما تلك الأهداف إلا الأمل الذى يغذى به أرون عالماً يتهيأ للحرب، وهى الأهداف التى تقبع فى أخيلة علماء الاجتماع، وأخذ جانب فيبر فى تطلعه إلى اختبارات جريئة مقدمة فى عالم متناقض من القيم تتصارع معاً، ولكنها بطبيعتها ليست عسيرة على التوافق، فالشعوب التى تبقى أسيرة هذا العالم الذى تخيله هونز، ترى فلسفة المسئولية - كما عنها فيبر - أكثر سداً من فلسفة الإدانة. وعلى القرارات السياسية أن تحذر ما تحمله النوايا، وأن تتجنب ما يسميه أرون اختيار العقل. والفطنة والتوافق هما السبيل إلى التوفيق بين هاتين الفلسفتين، فالعلم، كما يرى فيبر، ليس له غير القليل من الصلة أو لا صلة له إطلاقاً بالاختيار السياسى. ولكنه يستطيع أن يكون عوناً على التحليل عند الاختيار، فحالة الطبيعة هى السمة التى تتميز بها العلاقات الدولية، وعلى النظرية الرشيدة أن تضع ذلك فى حسابها، وهو ما تناوله أرون فى كتابه «السلام والحرب»^(١) (١٩٧٠)، فإن ما يميز الميدان الدولى عن غيره هو مدى الشرعية فى استخدام القوة العسكرية، وفى العلاقات الدولية تنشُد الدولة أن يكون الحق معها. وحالة الطبيعة هى حالة الحرب، ما دامت العلاقات الدولية تتقرر فى ظلال الحرب، ويتفق أرون مع مونتسكيو فى وصفه الحرب كظاهرة اجتماعية وليست ظاهرة طبيعية، وما ينشده رجل الدولة هو أن يخفف ويهدئ من ضراوة الحرب دون القضاء عليها. وعلى الشعوب فى حالة السلم أن

تقدم كل ما يمكنها من خير لغيرها، أما في حالة الحرب فعليها أن تقلل من أضرارها وتضطلع بالعلاقات الدولية على هذه الصورة بجانب اجتماعي وجانب آخر غير اجتماعي، فهناك في هذه العلاقات ما هو أبعد من الصراع، ولكن الصراع لن يختفى أبداً.

وتقوم النظرية المعيارية في تمييزها عن النظرية العقلية، على استقلالها في الاختيار من أحداث التاريخ، ومن حدود المعرفة أو المذهب، ومن الحاجة إلى الترشيد. ويتصل الاختيار، كما صوره أرون، بالنظرية وبالتطبيق وهما القوتان التي تقوم عليهما النظرية المعيارية في الشؤون الدولية. وما من سبيل هين في النظرية، كالعلم بالنسبة للنظرية كعمل والواقع أن المشورة بعمل ما، أو الإحساس بالسياسة الخارجية لا يستمد كيانه من العلم كما يستمدّه من النظريات الأخلاقية، وإن كان التطبيق العملي للنظرية يتحدّد دائماً وفقاً للنهيات غير الثابتة، والوسائل غير المحددة، كما أن الظروف الطارئة قد لا تجد القياس، فالدبلوماسية لا تثبت على حال، والحاكم الذي يخضع للقواعد قد يواجه الهزيمة أمام أولئك الذين لا يلتزمون كثيراً بما يرون.

والفطنة في السياسة الخارجية جماع حاجيات اجتماعية وغير اجتماعية في النظرية المعيارية، فإنها لا تستطيع أن تصل إلى حلّ للتناقض في الطبيعة الثنائية للأخلاق، وإن جهدت في الوصول إلى نوع من الوفاق، فالحالة الأولى للاختيار الأخلاقي بين الشعوب، هو الاعتراف بمسؤوليات القيادة عن أمن الدولة، فإذا كان المثاليون يأبون الإلتجاء إلى القوة،

فإن الحاكم قد يلجأ إليها وقايةً لذاته، وتستدعى الفطنة والحصافة العمل وفقاً لحقائق ثابتة في الأوضاع الدولية، دون الاستجابة السلبية لأهداف مطلقة، ومن دواعي الفطنة الحد من العنف عقاباً للمعتدى، وهو عنف غالباً ما يصل إلى سند لا فحوى له في إدانة المذنب، وكل ما تنشده النظرية المعيارية في الواقع وضع أهداف أخلاقية ثابتة ومقبولة. وليس البحث عن أهداف أخلاقية قاصرة. ومن اليسير وضع إطار أخلاقي عندما تبين الأحاسيس الأخلاقية وتظهر، فالفطنة تعنى العمل في عالم بعيد عن الحقائق القائمة وغير المحددة، مدركة تماماً لحدود الشرعية في الإلتجاء إلى القوة، باحثة عن أسباب الوفاق القانوني، بدلاً من الإدانة المسبقة والمتكررة للعنف.

فهل استطاع أرون أن يلتزم في تفكيره وكتابات بهذا الإطار الأخلاقي، أم أن منصبه قد حمله على التكرار للأخلاقيات في مواجهة الصراع الدائم؟ وبمعنى أوسع، هل تعنى الفطنة إقامة بناء للتصور الأخلاقي، أم تعنى إنكار كل مبدأ أخلاقي؟

ومن الناحية النظرية، يعد اتجاه أرون نوعاً من الاتجاهات العقلية الآلية، يقوم على تفسير الوقائع، ويخضع السياسة للوقائع الميسورة، ويبحث عن المضمون الأخلاقي في المحتوى الواقعي، ومن الناحية المعيارية فإنه يرفض أخلاقيات الإدانة التي تؤدي إلى اتخاذ إجراء سريع، ويفضل عليها المسؤولية الأخلاقية، وهو ما بدا في صورة محددة في السياسة الخارجية للحرب الباردة، عندما أدت المسؤولية الأخلاقية بالغرب إلى

الاستمرار في تحديه للاتحاد السوفيتي، ورفض أى استراتيجية تدعو الغرب لغزو شرق أوروبا، والمحافظة على التوازن مع الاتحاد السوفيتي في الأسلحة النووية والأسلحة التقليدية، أما استراتيجية الحرب الباردة العسكرية فإن مسئوليتها الأخلاقية تتطلب منها الإعداد العسكري والقوة الكافية لحماية الغرب وردع أى محاولة للحرب ما أمكن.

وفي تقديره للحد الأقصى لقيم الغرب في صراعه مع الاتحاد السوفيتي، يمضى أرون في اتجاهين، فعلى الرغم من أن كلا الجانبين يدعى الحفاظ على القيم الديمقراطية، فإن التقييم الذى يضعه عالم الاجتماع يبرز أن الاتحاد السوفيتي يقف عند الجانب النظرى للديمقراطية، وقد يكشف عالم الاجتماع بعض صور الحرية فيه، أما التحليل الفلسفى فإنه يقود أرون إلى نبذ البراهين الشيوعية الباطلة في ادعائها بأن الحتمية التاريخية تضى نوعاً من الحق الأخلاقى على طموحها السياسى، فالأنظمة من الناحية التاريخية تدعى حقيقة مطلقة لتكون أساساً للقهر والاستبداد الذى تفرضه على المجتمع، ولا يستثنى الاتحاد السوفيتي من ذلك.

وأخيراً، فإن أرون لا يأمل أن يكون هناك سلام عالمى، وليس هناك احتمال لتغيير أساسى فى المجتمع الدولى، وعلى قادة الشعوب من ذوى النزعة الإنسانية والأخلاقية أن يجاهدوا ما حق لهم الجهاد لتحقيق الأناة والهدوء والاختيار الصائب، وأن يستهدوا فطرتهم وخصائصهم.

الباب الرابع

نظريات النظام العالمى

لا يستقيم أى بحث فى الفكر الدولى إذا ما أغفل أولئك الذين وضعوا نظريات النظام العالمى، ولا يعدّ مثل هذا البحث مكتملاً أو متكاملًا، والوضع العالمى فى حاجة إلى دراسة تحليلية عميقة وافية للدوافع القومية والدولية، وتتناول الدراسات الدولية المعاصرة الطبيعة الثنائية للتنافس القومى من ناحية والتعاون الدولى من ناحية أخرى. ويؤكد أغلب المفكرين فى الفصول الثلاثة الأولى أهمية السيادة القومية وإن لم يكن إلى الحدّ الذى تهمل فيه مصالحها الدولية العادية، بينما ذهب آخرون إلى إضفاء نوع من الأهمية البالغة على المصالح العالمية النامية وحاولوا أن يقيموا نظريات للنظام العالمى.

والى جانب الكتاب الذين عرضنا لهم، توجد قائمة من كتاب النظام العالمى البارزين ممن اخترناهم وإن لم تكتمل القائمة بهم، فهناك هذا العديد من المحامين الدوليين، ورجال العلوم السياسية، والمؤرخين ممن وضعوا اللبنة الأولى فى هذا العلم وحملوا الآخرين على اقتفاء آثارهم فى دراسة النظام العالمى ووضع تصورات ونظريات جديدة حفلت بها

حقبة السبعينيات، وما زال هذا المعهد الذى يرأسه «صول مندلووتز» لدراسة النظام العالمى، وذلك المعهد الذى قمت بإدارته لدراسة السياسة العالمية، ديلان بارزان على الاهتمام البالغ بدراسة النظام العالمى، وما من قائمة لمنظري النظام العالمى إلا وتضم إليها أمثال «كوينسى رايت» و«دافيد ميترانى» و«شارل دى فيشر» و«أرنولد ج. توينبى» وإن كتاباتهم لتبرز في محتواها العلمى وقوتها النظرية، تلك الكتابات التى تسير الأحداث لأولئك الأعلام من قادة حركات «السلام عن طريق القانون»^(١) أو حركة «الفيدراليين العالميين»^(٢)، وبقدر ما كانت عليه من جلال وتأثير إلا أنها أخذت تفقد الكثير من سدادها خلال السبعينيات، وإن بقيت مؤلفات أولئك الكتاب من أمثال «رايت» و«ميترانى» ذائعة لا يستطيع أن يغفلها دارس فى الوقت الحاضر.

وقد عمل «كوينسى رايت» على إنشاء مدرسة شيكاجو، وكان أول من كوّن لجان الدراسات المشتركة للعلاقات الدولية فى أى جامعة أمريكية، وكان من تلاميذه «هارولد لازويل» و«وليم ت. د. فوكس» و«فردريك شومان» و«نathan ليتز» و«ريتشارد فولك» و«ماركوس رسكن» وغيرهم ممن أنشأوا مراكز للدراسات الدولية فى جامعات أخرى، وكان رايت أستاذاً لا يقارن، يسر أغوار كل النظم القائمة، ليلقى من خلالها الضوء على مشكلات الحرب والسلام والمصلح الذى

Peace Through Law.

(١)

World Federalists.

(٢)

لا يكل للنظام الدولي، وما من أستاذ مهما علا شأنه أو أى منظمة مهنية إلا وراحت تنشد منه التوجيه، وما زالت دراسته للحرب أبعد من أن تقارن في نظرتها الموسوعية بكل ما كتب في اللغة الإنجليزية.

أما «دافيد ميثرانى» فأقل إنتاجاً في دراساته المعتمدة، ولكن نظريته عن التوظيف تحيط بكل ما سبقها من كتابات عن القوميات المشتركة والتداخل بين الدول المستقلة، ويسترعى كتابه «إدارة السلام»^(١) الانتباه إلى النشاط الذى تقوم به الشعوب لإقامة مجتمع دولى، وبينما يتجه الكتاب الآخرون إلى السياسة الدولية، يتجه ميثرانى إلى الاهتمام بالتعاون الدولى باستخدام الطرق المائية والاتصالات البرقية والبريدية إذ يأمل أن تؤدي إلى تآكل السيادة القومية لتجرفها الأعمال الدولية فتحيلها إلى عالم يسوده التعاون السياسى الدولى.

وبين هؤلاء الكتاب والمشرعين والأساتذة من رجال القانون الدولى، يقف القاضى البلجيكي «شارل دى فيستشر» على القمة في تأثيره، ويشهد له الفقهاء من الكتاب الأوروبين والأساتذة الأمريكيون من أمثال «برسى كوريت» (الذى قام بترجمة كتابه «النظرية والواقع فى القانون الدولى العام»^(٢) إلى اللغة الإنجليزية) و«فيليب جيسب» و«مايرز مكدوجال» بأنهم قد تأثروا بكتاب فيستشر بكل مقوماته. وقد تناول دى فيستشر العلاقة بين النظرية والتطبيق فى القانون الدولى، والصلة بين الأخلاق الدولية

Working Peace System

(١)

Theory and Reality in Public International Law.

(٢)

والقانون الدولي، ودواعي الإرغام ومشكلاته بالتالي، وكان دي فيستشر
فيلسوفاً أخلاقياً كما كان مشرعاً دولياً.

أما أرنولد ج. توينبي فقد كان مؤرخاً يشرح قيام الحضارات العالمية
وإنحلالها إلى جانب احتمالات النظام العالمي، وكان من فلاسفة التاريخ
أكثر منه مؤرخاً، وقد طاف بإحدى وعشرين حضارة، وأبدع نظريةً
للتاريخ تحيط بمولد الحضارات ونهايتها، وتنبأ بمستقبل الحضارة الغربية
واشتباكها بالنظام العالمي في الوقت الحاضر، وسيبقى كتابه الضخم
«دراسة التاريخ»^(١) أعظم تحليل معاصر للتاريخ العالمي، والختام الجدير
بهذه الدراسة لقادة الفكر.

كوينسي رايت (١٨٩٠-١٩٧٠)

ولد كوينسي رايت في الثامن والعشرين من ديسمبر ١٨٩٠ في مدفورد ماشوسيت، وهو أحد أبناء ثلاثة لفيليب واليزابث رايت في أسرة أنجبت الكثيرين من أقطاب العلم وأعلام الأساتذة، فكان جده الأعلى «اليزور رايت» من رواد الحساب الإكتواري، حتى سمي أبوالتأمين على الحياة، وقد بدأ أبوه «فيليب جرين رايت» حياته بدراسة الرياضيات ثم وسعت دراساته من بعد الفلك والاقتصاد والآداب، ويذكره «كارل ساندبرج» أستاذاً ملهماً بكلية لومبارد في جالزبرج، الينوى، وأنه نشر له أول كتبه. ومما يذكر له بحثه في التعريف والاقتصاد الدولي والتجارة الخارجية لمعهد بروكنجز، كما نشر تقريراً عن البطالة عام ١٩٣٢، بعنوان «بعيداً عن الفاعلية»^(١). وبدأ اهتمام الأسرة البارز في العلوم فيما كان من آثار أخوين لكوينسي في هذا الميدان: «سيويل» وقام بتطبيق قواعد الرياضيات على التكاثر السكاني «وتيودور» الأخ الأصغر وكان له إنجازات ضخمة في هندسة الطيران ومبتكراته

Out casts of Effeeciency.

(١)

وكان لكوينسى نصيبه من هذا الإنجاز العلمى فى كتابه «دراسة الحرب»^(١) (١٩٤٢) وبالذات عندما قام بتطبيق طريقة «لويس رتشاردسون» الإحصائية، وكان قد استخدم الرياضيات فى تحليل الحرب وغيرها من الظواهر الدولية الأخرى.

وقد نال كوينسى درجة البكالوريوس من كلية لومبارد عام ١٩١٢ ثم درجة الماجستير عام ١٩١٣، ودرجة الدكتوراه عام ١٩١٥ من جامعة إلينوى. وإلى جانب اهتمامه بالرياضيات أبدى اهتماماً مبكراً بالوسائل المعيارية وإصلاح النظام الدولى، ففي عام ١٩١٢ ظفر مقالته «المسيح فى جبال الأنديز»^(٢) بالجائزة، وقدم فيه تحليلاً للتحكيم فى النزاع المبرر حول الحدود بين شيلي والأرجنتين (ويشير عنوان المقال إلى النصب التذكارى الذى أقيم تخليداً للتسوية بين البلدين)، وكان رأيت طوال حياته يدعو إلى إصلاح القانون الدولى والنظم والسياسات الدولية وتغييرها بما يتفق مع العقل، وقد استطاع بما ناله من سمعة طيبة وأستاذية رفيعة لموضوعيته وتبشيره بنظام دولى جديد أن يمزج بين صرامة العلوم الإنسانية والقدرة على الإصلاح الاجتماعى، وتزعم الدعوة إلى قانون دولى جديد فى كتاباته، ولما كان مستشاراً أثيراً للقاضى «روبرث جاكسون» فى محاكمات نورمبرج وأحد الأعضاء المؤسسين للجنة التى أخذت على عاتقها دراسة تنظيم السلام، فقد كان لدراسته أثرها فى

The Study of War.

(١)

The Christ of the Andes.

(٢)

الأساس الذى قامت عليه الأمم المتحدة بعد الحرب. وأبدى المزيد من
الهمة والنشاط فى الدعوة لقيام الأمم المتحدة داخل الولايات المتحدة،
وكان الأستاذ الأمريكى الوحيد الذى ظفر برئاسة الجمعية الأمريكية
للقانون الدولى، والجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، والجمعية الدولية
للعلوم السياسية، ورابطة أساتذة الجامعات الأمريكية فى آن واحد.
ومما هزنى فى مذكراته الخاصة أنه استطاع أن يجمع بين كل هذه
الاهتمامات النظرية المتعددة بالسياسة وبالدراسات الفذة لكافة المشكلات.

وغالباً ما كان نقد النقاد لهذا الكم الهائل من الكتابة عن
العلاقات الدولية والنظريات التى يقدمها أصحابها لا تتفق على رؤيا
معينة للمشكلات، وأن الطلاب الذين يقومون بدراسة السياسة الخارجية
لا يأنهون كثيراً بالتعميمات الفلسفية والعلمية. وأن الفكرة الأساسية
السائدة فى كل ما يكتب اليوم هى أنها تفصل بين النظرية والتطبيق،
وغالباً ما تترك الدراسة للحكماء والمراقبين من المغامرين والمتحلّين
بالجسارة ممن يتصدّون لمثل تلك المشكلات المعقدة. وكانت تلك هى
النبرة التى سادت مذكرات كوينسى رايت الخاصة حين ساق صورةً
مختلفةً إلى حدٍّ بعيد للنظرية والمشكلة. فازدانت محاضراته بمناقشات
متواترة وممتدة عن مشكلات السياسة، وكانت محاضراته الثلاث الأولى
التي استمعت إليه فيها عن العلاقات الأمريكية السوفيتية، وعن محاكمات
نورمبرج ودور الأمم المتحدة ومداه فيها.

وكانت طبيعة العلاقات الدولية فى النصف الأول من القرن

العشرين تحتم على أقطابها من أمثال رايت أن يكونوا علماء وعمليين في آن واحد، وكان المجتمع الدولي في علاقاته لا يطلب منهم غير إطار للتحكيم، ومشورة فيما يتصل بالمنظمات والمحاكم الدولية وأن يقوموا بدراسة المشكلات العملية، ولم تكن الفجوة بين من يديرون السياسة الخارجية ومن يكتبون عنها بمثل ما هي عليه اليوم من عمق واتساع، وبالذات بعدما رفض السناتو الأمريكي الاشتراك في عصبة الأمم، وقام رجال من أمثال رايت يشرعون أقلامهم دفاعاً عن ربط السياسة الخارجية بالمنظمات الدولية وعلى رأسها العصبة، وكانوا دعاة الإصلاح الأخلاقي في المجتمع الدولي، فأخذوا يستنهضون المشرعين ورجال السياسة لإعادة النظر في علاقة الولايات المتحدة بعصبة الأمم، ولما كان ما يقدمونه لتغيير المجتمع الدولي فريداً وبسيطاً فقد وجدوا أذنًا صاغيةً من رجال السياسة، وكان للطابع الأنجيلي المتسامح في دعوتهم للإصلاح ما ضاعف منها وزادها تأثيراً، ولم يكن في قدرة رجال السياسة أن يغفلوا شأن هؤلاء الأساتذة الذين حملوا هذا التيار إلى طلابهم وإلى الرأي العام، ومنحتهم مراكز الدراسات الدولية الجديدة كمركز بروكنجز مدى أوسع لأفكارهم بنشر كل ما يكتبونه حول تلك المشكلات. وفي أخريات عام ١٩٤٥ أخذ رايت يتنقل ما بين شيكاغو وواشنطن، سعياً وراء توجيه السياسة الخارجية، وكان هناك بعض الغموض، إذا ما وجد، في علاقته بالحكومة. والواقع أن الجو الذي يحيط برجل يشغل بمثل تلك المسائل قد اكتنف رايت وأضفى على نظرياته مزيداً من الجدّة، وكان الاتفاق على أهداف السياسة الخارجية أقوى حينذاك

بما كان عليه في السبعينيات، ولا أستطيع أن أعود إلى مرجع في كتاباته عن النظام، لأن إدراك المجتمع للنظام كان متكاملًا، حتى أن الحوار الذي جرى بين رايت وهانس ج. مورجنتو في جامعة شيكاغو مضى في نفس الإطار وعلى هدى النظام، وكان لغيبة الاختلافات الحادة ما شجّع الأساتذة على النظر في المسائل السياسية، وكان إنتاج رايت العلمي هائلًا - يضم ١١٥٥ عنواناً لموضوعات نشرت، منها ٢١ كتاباً، و ١٤١ مقدمة أو فصولاً كتبها لآخرين، و ٣٩٢ مقالاً صحفياً، و ١٢٣ موضوعاً لدوائر المعارف، و ٤٢٣ عرضاً للكتب، و ٥٥ إذاعة نشرت بعد إذاعتها، وليس مما يثير الدهش وقد عرفت له اهتماماته المعيارية والعلمية، أن يظهر نصف ما كتب من هذه العناوين منشوراً في صحف قومية ودولية، وأن النصف الآخر قد نشر في صحف العلوم الاجتماعية والفلسفة والتاريخ، وكانت كتاباته برغم علميتها ودقتها واضحة وعملية، وبعد كتابه «دراسة الحرب» أعظم أعماله، وقد نشر أول مرة عام ١٩٤٢ وأعيد نشره عام ١٩٦٥، مع إضافات عن الحرب منذ ١٩٤٢. (وقامت زوجته لويز رايت بنشر تلخيص له في مجلد واحد، عام ١٩٦٥). . . ويقع هذا الكتاب في أربعين فصلاً تملأ ١٠٨٠ صفحة، فضلاً عن ٤٢٠ صفحة في أربعة وأربعين تذييلاً علمياً لدراسات متنوعة عن الحرب والسلام والعلاقات الدولية مع تحليل نقدي للفروض والبدхийات في كل من هذه الدراسات، ولا يعد هذا الكتاب - دراسة الحرب - عملاً رائعاً لاستيعاب الحرب وفهمها، ولكنه إلى جانب هذا، يتضمن الكثير من آراء رايت الهامة في العلوم

الاجتماعية وفي الدراسات الدولية، وإن لم يكن دوره كعالم اجتماعي ومفكر معياري على مكانته العظيمة كمنظر للنظام العالمي، فقد كان يستهدى بالكثير من تعاليمه في تناوله للسياسات الدولية والنظام الدولي والحرب والسلام، والواقع أن تعاليم الأستاذ رايت لا تقل أهمية عن كتاباته العلمية وإنتاجه العلمي الكبير، وكثيراً ما ازدادت تصوراتها عن الحرب والسلام والتنظيم الدولي والسياسة الخارجية، في دروسه التعليمية ثباتاً ورسوخاً ووضوحاً.

ففي ذلك الوقت المبكر خلال الثلاثينيات وكوينسي رايت يتصدى لمشكلة الحرب في محاضراته وبحوثه، وقد رأى الحرب دستوراً اجتماعياً وسياسياً دائماً ومستمرّاً، ومع اختلافه مع ما ذهب إليه «كلاورفتز» في تعريفه للحرب بأنها استمرار للسياسة بوسيلة أخرى، فقد سلم بأن السياسة الداخلية والاستراتيجية الدولية عاملان جوهريان لا يمكن إغفالهما، وكما لحظ آخرون، كان رايت قد اندمج تماماً في حركة فكرية بارزة عندما كان في شيكاغو فقد رأى قسم العلوم السياسية في الجامعة وكان من رجاله أن يطوع كل مصادر العلوم الاجتماعية لدراسة المشكلات السياسية والاجتماعية، وكان من الطبيعي أن يبدأ رايت، وإن كان مشرعاً دولياً، بحشد كل زملاء الدراسة وغيرهم من أصحاب الدراسات البعيدة ليعينوه في دراسة الحرب. فقد تناول هذه الدراسة في إطار موسوعي ورجع فيها إلى علماء الأحياء والنبات في النظر إلى الحرب كنظام طبيعي، وإلى علماء النفس والنفسانيين لدراسة الحرب

كنوع من المرض، وإلى علم الإنسان (الانستروبولوجى) وعلم الآثار لاستيعاب الدروس عن الثقافات القديمة والسكان الأقدمين، واقتبس فيه الكثير من أقوال «وارد س. ألى» و «برونو بتلهاييم» و«لويس ف. رتشاردسون» و «كارل روجرز» وكانت جامعة شيكاغو كغيرها من الجامعات فى البلاد، زاهرة حينذاك بحشد من الأصول الفكرية، وكانت المدارس المهنية هى الأخرى مهذاً لأبحاثه، ولم يترك كليات الحقوق والطب بدورها بحثاً وراء الأفراد المهتمين بالصراع والعدوان والعنف، حتى غدا لمن جاءوا بعده من الدارسين هادياً ومرشداً بما نقلوا عنه من إبداءات وحلول.

ومن أقيم ما يذكر به فى «دراسة الحرب» تلك الأدلة التاريخية التى يسوقها رايت على فشل عصبة الأمم والأمم المتحدة وغير ذلك من الاتفاقيات الدولية فى إدانة الحرب أو الحد منها بين الشعوب، وسار على نهجه جيل الستينيات الجديد من رجال العلوم الاجتماعية والطبيعية فى بحثهم المضنى عن حلٍّ للنزاع، ولن يتسنى لأحد أن يدعى اليوم أن البشرية قد أضنتها دراسة الحرب أو البحث عن أنماط للسلام. فالصراع باقٍ وقائم فى كل منحنى - فى العالم الشيوعى وفى العالم غير الشيوعى - وفى الدول حديثة الاستقلال وفى الدول الأقدم.

ومن العجيب أن تكون دراسة رايت لحناً هادر النغم فى وقتنا هذا أكثر مما كانت بالنسبة للروح التى سادت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. ففى وقت ما نبذت الولايات المتحدة عصبة الأمم التى نادى بها

وعمل على إقامتها «ودرو ويلسون» بأحاديثه وكتابات، وانقلب الشعب.
على النبي الذي دعا إليها، ونبذ السناتو ومعه حفنة من ذوى الرأى
العنيد فكرة الدولية، ولم ين العلماء وأرباب النشاط عن أن يهبوا
أنفسهم فى نزعة عارمة للعمل على إقامة منظمة دولية تقضى على
الحروب، وصرح وزير الخارجية «كوردل هل» بأن الأمم المتحدة ما هى
إلا أداة للقضاء على المنازعات القومية وسياسة القوة من الآن وإلى
الأبد، فأسباب الحرب معروفة كما ندعى - فهى ثمرة نظام معين من
العلاقات الدولية، تستأصل شأفته المنظمة الدولية الجديدة، وليس من
المستغرب أن يقوم عدد من المشرعين الدوليين وأن ينهض نبت جديد
من رجال العلوم الاجتماعية بدراسة السلام. وقد برم بعض المثاليين
بما جاء فى كتاب «دراسة الحرب» لتركيزه البالغ على الجوانب الاجتماعية
والنفسية للعدوان، ومناقشته للغرائز الفطرية، والبحث عن دوافع
الشعوب وصراعاتها التاريخية، ويفضلون عليها التركيز على إنشاء نظام
دولى يحول دون الحرب، بدلاً من دراسة تواتر الحروب على مدى
التاريخ، وقد كان رايت حفياً أشدّ الحفاوة بقيام عصبة الأمم والأمم
المتحدة، ولكنه كان يريد أن يقرر أوضاع السلام بالفهم العميق
لأسباب الحرب.

وكان رايت أحسن حظاً فى كتابته للتاريخ خلال الثلاثينيات
والأربعينيات منه خلال الستينيات، فقد كان الناس فى تلك الأيام أدنى
من أن يغوصوا فى أعماق تلك الأيام ليتخذوا من مؤتمر فينا أو من

دبلوماسية الإمارات الإيطالية مثلاً وقدوةً، وكان هناك نوع من الإكبار لتاريخ في سبيله إلى الزوال. وقد كان «هانتس ج. مورجنتو» نتاجاً لهذه الممارسة التقليدية للتاريخ الأوربي، وإن كنت أعجب أحياناً من أن رايت ومورجنتو كانا على حدّ سواء في إلمامهم بتفاصيل تاريخ القرن الثاني عشر أو السادس عشر الدبلوماسية، ومع حماسة البالغ لإصلاح المجتمع الدولي، كان رايت يدرك أن الناس والشعوب قد اجتازوا هذا الطريق من قبل، وكان يؤدّ أن يعرف وأن يذكر كيف كان الناس يفكرون ويعملون في تلك الأزمنة السابقة من التاريخ، وغالباً ما كان يذكر بذلك التشابه التاريخي، وبالرغم من حذره من ذلك التشابه فقد كان يرى فيه إيعازاً إلى أمر ما. وأخذ يدوّن الملامح الساخرة للقتال، كما يدون للتغير البالغ في كثافة الحرب الحديثة، بكل ما يملك المؤرخ من علم ومهارة. ومن المسلم به أنه أفاد من بحوث الآخرين التاريخية، فما من دارس يستطيع وحده أن يقوم بكل ما يتطلبه مثل هذا البحث الأصيل : «دراسة الحرب».

وفي كل هذا كان رايت يحس بالتوافق مع توينبي، وكان قد وجّه بعض طلابه منذ البداية إلى ما بين الفلسفات التاريخية والعلاقات الدولية المعاصرة من صلة وتوافق، وإن كان ماحيّه من توينبي إغراقه في التعميم دون سند، وكان وايت في بعض نواحيه كلفاً بالمؤرخين التجريبيين ممن يحرصون على الجانب العملي في التاريخ. إلا أن اتساع آفاقه وقدرته على الاختيار حملاه على حثّ الآخرين على التنقيب في

فلسفة التاريخ، وكان صاحب نظرية تاريخية جريئة في ميدان واحد على الأقل، إذ إن أفكاره عن العمليات الحربية، وتقييدها تبرز كفلسفة تاريخية محدودة. وإن أغضبت تعميماته العديد من الدراسين المتخصصين، ولكنها كانت مزودةً بالوثائق والدراسة الواتية ولم يستطع أن يتخذ لنفسه خطأ بارزاً كالحظ الذي اتخذته توينبي في فلسفة التاريخ. وإن غلبه وتأثر به إلى حد بعيد.

وقد اتخذ تاريخ المؤسسات مجاله على عهد كوينسى رايت فبدأ الناس يكتبون عن مؤتمر فينا، والنظام الأوربي، والمراحل الأولى لقيام عصبة الأمم، وبدأ ذلك في بعض المنظمات الإصلاحية التي أفرزها مؤتمر لاهاي عندما أشرف القرن على نهايته، وكان رايت حفيًا بالعمل الذي قامت به تلك المؤسسات ومؤثرات هذه الأبنية الجديدة، وكيف كانت ممارسة التشريعات في الواقع. ولماذا كان لبعض المنظمات ما ليس لغيرها من عمل في السياسة الدولية. وأبدى اهتمامًا بالغًا بوزارة الخارجية بوصفها مؤسسة، وتناول أعمالها في أبحاثه ومشاوراته، كما أيد ما قام به معهد بروكنجز عندما بدأ تحت إشراف «ليو بازفولسكى» في دراسة المنظمات الدولية دراسة شاملة.

ولسبب آخر يقوم رايت بعمله كرائد من رواد تلك المؤسسات، فقد وجد نفسه على غرة منه وسط هؤلاء الرواد الذين ينادون بإصلاح تلك المؤسسات وفي جملتهم ومنهم روبرت هتشنز و«مارتيمر ادلر» وأقطاب جامعة شيكاغو، وكان هتشنز يعتقد بأن هذه المؤسسات

الجديدة قادرة على تغيير السلوك الإنساني. وفي حوار مع رينولد نيبور يقرر أنه بالرغم من حاجة المجتمع العالمي الماسة والملحة إلى قيام حكومة عالمية إلا أنها لم تتحقق، وإن كان من اليسير أن تتحقق إذا ما كان هناك نوع من التفاعل بين المجتمع والحكومة العالمية، فالحكومة العالمية ضرورة كما يرى هتشتر. ولذلك فإن قيامها ممكن. وكان لرايت نصيب من هذه الرؤية، ولكن ارتطامه بالبحث التاريخي والقانوني جعله في ريبة من رؤية هتشنز وإن تعاطف في نفس الوقت مع ما يراه. فيغدو مرة أخرى وقد غرق في هذا التبادل الفكري الساحر مع تلك العقول الكبيرة التي تنشد إطاراً عاماً للرؤى العديدة المتباينة. وكثيراً ما تكلم وأفاض في الشرح والتعليق في كل ندوة يعقدها هتشتر. وكثيراً ما قام بالدعوة العامة لأشتات من الناس تباينت آراؤهم لندوات على مدى الأسبوع برعاية مؤسسة نورمان ويت هاريس يناقشون فيها المجتمع العالمي، والمؤسسات الدولية، والأمم المتحدة، وكون فريقاً منه ومن «وليم فيلدنج أوجبرن» و«لويس ويرث» من أقطاب علم الاجتماع في شيكاغو لإثارة حوار حول العلاقة بين المجتمع والجماعة والنظم، وكان على الدوام أسير هذا السؤال: أي وحدة من المجتمع يمكن أن تصلح لأي من هذه النظم، وما كان لأحد أن يصمه بضيق الأفق في رؤيته للأنظمة ليضع فاصلاً بين المنظمات وإطارها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فقد كان مشرعاً، وكانت الأنظمة هي المحور الأول في كل ما يكتب ويدرس من تاريخ النظم. أو الدراسات السياسية أو نظرية المنظمات (وكان حفيّاً بكتابات «هربرت سيمون» و«ناثان ليتز»

و«هارولد لازويل» المبكرة)، وعندما تضاعفت النزعة ضدّ النظم، رجع الباحثون مرةً أخرى إلى آراء رايت في النظم، كما رجعوا إلى اتجاهاته التاريخية والتشريعية بحثاً عن رؤيا جديدة للمشكلات المعاصرة، وأكثر من هذا أهمية، أن نظريته عن مشكلات النظام قد أصبحت درساً لكل هؤلاء الذين كانوا يفصلون أحياناً بين النظرية والتطبيق.

ومازال عرض رايت للصراع والحرب عظيماً في قيمته، إذ إن المشكلات التي تناولها ومزج ما بينها وبين الأصول الفكرية للعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية والمدارس المهنية باقية ثابتة، فقد عرف أن للحرب خوافيها الكامنة في طبيعة الإنسان وفي أعماق المجتمع - فالصراع حول الموارد الطبيعية والافتقار إلى الأمن في ذات الإنسان وفي العلاقات الدولية، وقصور النظام والقانون على المسرح الدولي، وكانت تلك هي معالم الأربعينيات وبقيت من معالم السبعينيات والثمانينيات كذلك.

ودرس كوينسي رايت النظام العالمي والمنظمات الدولية دراسة عمليةً مستفيضة. نتعلم منها الكثير، إذا ما تفحصنا آراءه حول كيان دولي معين، كما في كتابه «الانتداب في ظل عصبة الأمم»^(١) (١٩٣٠) وفي محاضراته التي ألقاها عام ١٩٤٦ عن مجلس الوصاية، فقد تناولت محاضراته عن مجلس الوصاية، أنه أحد معالم أساسية خمسة للأمم المتحدة، وأن المشكلات التي تتلمسها لها جذورها التاريخية البعيدة، ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت البلاد غير المستقلة بعض

Mandates Under the League of Nations.

(١)

ما يشغل الاهتمام الدولي، حين أبحرت الحملة وراء الحملة من أوروبا لاكتشاف آسيا وأفريقية وأمريكا واستعمارها، ومازال ربع المساحة العالمية وخمس سكان العالم عام ١٩٤٦ لا يتمتع باستقلال سياسى، وإن تقلص ذلك يوماً بعد الآخر، إلا أن أشكالاً جديدةً من التبعية تبدو في الأفق، وهو ما تبينه رايت بحق، ونبه إلى أن هذه البلاد قد تتمتع بالمساواة القانونية ولكنها ستبقى من التوابع في واقع الأمر، كما أشار إلى التباين في معاملة تلك الشعوب التابعة حتى في ظل المنظمات الدولية، ففي بعض المستعمرات كان الحاكم يعين ليحكم المواطنين الذين لا يتمتعون بأي حق من حقوق الاستقلال، أما المحميات وهي نمط آخر من أنماط الاستعمار، فإن الدولة قد تتمتع ببعض الحقوق، ولكنها جميعاً دون حقها في السلطة.

وفي كافة هذه الصور الاستعمارية تقررت مبادئ معينة: «أولها: أن تقوم الحكومة في المستعمرة لمصلحة المحكومين، وعلى الحكام أن يضطلعوا» برسالة الرجل الأبيض ولايتحرّون في حكمهم منفعةً تعود عليهم، وأن يقوموا بنشر التعليم وتيسيره، ومن الطبيعى أن يكون الواقع مختلفاً، فإن أكثر هذه الشعوب الخاضعة قد خضعت في الغالب للعبودية أو للسخرة، وثانيها: أن هذه الشعوب التابعة يجب أن تؤهل للاستقلال، أو لتكون على الأقل على نفس مستوى الحكم، وقد صرح «سير سيسل هيرست» بأن المستعمرات البريطانية تمضى بخطى سريعة إلى وضع الدومنيون. وعلى كافة الشعوب التابعة أن تمضى على نفس

الطريق سواء بسواء، وقد بدأ هذا الاتجاه في وقت مبكر منذ حققت الولايات المتحدة استقلالها، ففي القرن التاسع عشر كانت الهند والباكستان وبورما والملايو وجزر الهند الشرقية الهولندية تحتط طريقها إلى وضع الدومينيون، وحقق الكثير من الدول استقلاله قبيل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وبعدها بقليل، ومن بين الدول السبع والخمسين الأعضاء في الأمم المتحدة عام ١٩٤٦ كانت ثلاثون دولة منها دولاً غير مستقلة حتى منتصف القرن الثامن عشر، عدا ست منها بقيت غير مستقلة حتى قيام الحرب العالمية الثانية. وثالثها: أن الدولة الحاكمة ليس من حقها أن تحتكر تجارة توابعها (سياسة الباب المفتوح)، ولما كانت بريطانيا قد أخذت بهذا المبدأ فقد ارتبطت مستعمراتها بشبكة من المصالح الاقتصادية المشتركة، خففت من شدة الاتجاه الاحتكاري في المركز. ورابعاً: وعلى الحكم في البلاد التابعة أن يكون في إطار المسؤولية الدولية ولا يصح أن يقوم هذا الإطار من العلاقات تبعاً لإرادة الحاكم، وإنما يجب أن تحكمه معاهدات دولية ورقابة دولية، ومنذ ذلك الحين تقرر الانتداب الذي أصبح عام ١٩٤٦ وصاية.

وقد تقرر هذه المبادئ منذ وقت مبكر يرجع إلى مؤتمر برلين عام ١٨٨٥، ونصت عليها المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، وكان الميثاق في رأى رايت نوعاً من التوفيق. فقد أرادت بعض الشعوب أن تضم إليها توابعها المجاورة، إلا أن نقاط ودرو ويلسون الأربع عشرة قد حالت دون ذلك، فقد طالب بعضها بالاستقلال، بينما طالب البعض الآخر

بالعودة إلى أصحابها الأصليين، وجاء التوفيق باقتراح الانتداب تقدم به سياسى عجوز من جنوب أفريقية، هو «جان كريستيان سمطس» وقامت لجنة تضع نظام الحكم الذى يحقق مصلحة المحكومين، وبقيت أكثر هذه البلاد خاضعة للانتداب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وحقق نظام الانتداب نجاحاً كبيراً خلال العشرينيات، فلما تضاعف شأن عصبة الأمم تضاعفت معه المبادئ العامة التى قام عليها فانتهكت من جانب حكومات باغية كاليابان التى أخذت تعدّ الجزر التى تخضع لانتدابها للحرب، فلما جاءت الأمم المتحدة واجهت نفس المشكلات ونفس الحلول.

أما نظام الوصاية الذى ابتدعته الأمم المتحدة فهو شبيه بنظام الانتداب إلى حدّ كبير بالرغم من بعض الاختلافات البسيطة فجاء تعبير الائتمان والولاية فى المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، وهو يحدّد تماماً أن تدار تلك البلاد لصالح المحكومين، وأن تقودها تلك الإدارة فى النهاية إلى النضج القومى والاستقلال، وجاء ميثاق الأمم المتحدة ليؤكد من جديد على الوصاية، وأن يكون الحكم فى الشعوب التابعة لصالح بلادها ذاتها ولا يكون ذلك قاصراً على البلاد التى تخضع للوصاية (الباب الثانى عشر)، بل يعدوه إلى «البلاد التى لا تتمتع بالحكم الذاتى» (الباب الحادى عشر) وعلى الدول التى تدير تلك البلاد التى لا تتمتع بالحكم الذاتى، أن تفى بالتزاماتها حيالها، كما كان من الولايات المتحدة ليورترىكو، كما أشارت الفقرة إلى تطور تلك البلاد نحو «الحكم الذاتى» ويختتم رايت قوله بأن الكيان الدستورى لمجلس الوصاية

وتركيبة السياسى يوحى بأنه سيكون أداة قوية لاستقلال الشعوب غير المستقلة، وذلك هو الوضع فى حقيقته.

ولم يكن تقييم رايت لما عرف بالوكالات المتخصصة، أو لوحدة الأمم المتحدة الممزقة إلا على ضوء السياسة الدولية وعلى ضوء القانون الدولى بالتالى، فعكف على دراسة التوقعات التى تنتظر الأمم المتحدة على ضوء التشريعات التى وردت فى الميثاق وعلى ضوء الحقائق التى تواجه السياسة الخارجية، كما كان أكثر معاصريه اهتماماً بالأثر الحاكم للتاريخ فلم تكن الأمم المتحدة بعيدة عن الإطار الذى قامت عليه عصبة الأمم، وكانت الصعوبات التى تواجه هذه المنظمة الجديدة تمتد بجذورها من النجاح والفشل إلى ما كان من قبل، فقد كان ذلك هو الوقت المناسب للتمسك ببدعة التنظيم الدولى، وإن كان رايت قد أنكر تلك البداية وتجنب الخوض فيها. مما يعنى أن تعاليمه التى تعكس تناوله لتلك المشكلات، وأن كتاباته التى تتميز بالنظرة البعيدة للمشكلات الممتدة، مازالت سديدة حتى وإن تغيرت الملابس التاريخية.

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة وفى عام ١٩٤٦ بالتحديد يضع رايت دراسة عن طبيعة العلاقات الخارجية الأمريكية، وكان قد نشر كتابه «توجيه علاقات أمريكا الخارجية»^(١) قبل ذلك بوقت مبكر عام ١٩٢٢، وكان الأساس الذى قامت عليه دراسته فى أعقاب الحرب العالمية

Control of the american Foreign Relations.

(١)

الثانية، هو ما كان من بؤادر الحرب الباردة، وإني لأذهل عندما أراجع مذكراتي عن تلك الدراسة، لموضوعيتها وشمولها وآفاقها التحليلية البعيدة. وقد بدأ مناقشته لسياسة السوفيت الخارجية بإبراز ماتحتويه من متناقضات، ومنها أثر الستالينية على النظرية الماركسية اللينينية إلى جانب تقلب السياسة السوفيتية، ففي العشرينيات وقف الاتحاد السوفيتي ضد عصبة الأمم، ثم أصبح في الثلاثينيات من أعضائها البارزين، ومن بعد، عندما وقع الخلاف على توقيع العقوبات، ثم التصويت على إقصاء الروس عن العصبة، ثم إن الرأي العام في روسيا يختلف عنه في الغرب والرأي العام - كما يرى رايت - ليس قوة مستقلة بذاتها، وإنما تخلقه الصحافة بامتثالها للسياسة الحزبية، فإذا ما تحول الاتجاه الحزبي تحول معه الاتجاه الرسمي للصحافة، ومن ثم يتحول الرأي العام تبعاً له.

ويتناول رايت الإتجاهات الكبرى للعلاقة مع السوفيت عامي ١٩٤٦-١٩٤٧، ففي ذلك الوقت. كان وزير الخارجية «جيمس بيرنز» يدعو إلى التشدد في مواجهة التوسع الروسي، بينما كان «هنري ولاس» يتزعم الدعوة إلى الوفاق مع هذا الصديق الغامض، ويرى رايت أن سياسة بيرنز هي التي كسبت الجولة فكان مشروع مارشال، وقيام حلف الأطلسي وازدادت الحرب الباردة حدة، ويستطرد رايت فيقول إن صور التكتيك السوفيتي تبدو مغايرة في تفسيرها للأهداف السوفيتية، كما كان مقال مستر (اكس) في الفورين أفيرز في يولية ١٩٤٧ ويستشهد رايت، مع بعض التقدير بآراء جورج كينان (فقد كان رايت كمستشار لوزارة

الخارجية أحد القلائل الذين يعرفون أن مستر (إكس هو كينان) بضرورة التشدد مع الروس. وكان الاتحاد السوفيتي جرياً على أيديولوجيته وأوضاعه القائمة يؤكد لشعبه استمرار خطر الهجوم الغربي، والديكتاتورية العنيفة والصحافة المحكومة لا تبقى ولا تجد التأييد ما لم يكن هناك خوف من عدوان أجنبي؛ ولهذا كان الكرملين حريصاً على إثارة هذا الخوف، وطلما بقي هذا الخوف قائماً، كما يرى كينان، فإن الاتحاد السوفيتي لا يرى الوفاق سياسية واقعية؛ ولهذا كانت سياسة الاحتواء ضرورة حتمية لمواجهة التقدم الروسي، كما يستشهد رايت أيضاً بتفسير «والدمار جوريان أف نوترادم» الذي يقول فيه إن الاتحاد السوفيتي يتبع سياسة مرنة ولكنها سياسة رشيدة ترمى إلى غزو العالم، ويفسر جوريان ذلك بأن السوفيت شعب مريب متشائم بطبعه، يخشى أحيال أبناء المدن كما يفعل الفلاحون أحياناً ولكنه يتمتع بكل ما للفلاح من غريزة المكر.

ويخرج رايت من هذه النظريات بنظرتين عريضتين: أولهما أن السياسة السوفيتية عدوانية بطبيعتها وأنها ترمى إلى اجتياح العالم، وثانيهما: أن التوسع الروسي ليس إلا تحقيقاً للأمن. ومازلت أذكر تماماً محاولته للتوفيق بين هذين الرأيين. وعلى من يتصدون لدراسة السياسة السوفيتية من الطلاب أن يضعوا في اعتبارهم تلك النزعة الحادة للعدوان والنزعة إلى تحقيق الأمن، فما من شعب إلا وتتملكه نزعة إلى التوسع ونزعة إلى تحقيق الأمن في سياسته، وينشد الروس الاثنين معاً. والقومية الروسية والتطلع الشيوعي إلى العالم هما أصل هاتين النزعتين

أما القومية الروسية التي وضعت القيصرية سياستها التقليدية، فقد كانت وحيًا للشيوعية الروسية في اتخاذ قاعدة أرضية وقوة كبرى إذا ما أرادت أن تصون كيائها في هذا العالم، وكان على الروس ضمانًا للبقاء وتحقيق الأمن أن يقوموا بدورهم التقليدي القديم بين القوى السياسية، وفي غيبة تنظيم عالمي مؤثر كان عليهم أن يضاعفوا من قوتهم القومية وأن يتخذوا مواقع استراتيجية جديدة. وبالذات عندما انقسم العالم إلى قوتين، فكل منهما: الشرق أو الغرب تبغى أن تفوق الأخرى بقوتها إلى حدٍّ ما، وإن كان من العسير قياس هذه القوة، ويبقى ما ينشدها واقعاً ماثلاً، وبقي خوف الروس من «حزام الأمن» في أعقاب الحرب العالمية الثانية كما كان في أعقاب الحرب العالمية الأولى، حيث بدأت الولايات المتحدة وتوابعها تطوق روسيا في آسيا وفي غرب أوروبا.

ولا تقل الأيدولوجية الثورية قوة عما كان من أهداف روسيا التقليدية القديمة بعد أن ورثها الاتحاد السوفيتي، فلم يكن الروس ليؤمنوا فحسب عندما اعتنقوا الاقتصاد الشيوعي وأنه السبيل الوحيد لرخاء الجنس البشري، وأن التوزيع العادل لعائد الإنتاج يزيد من نصيب الرجل العادي (وهو ما دافع عنه «ي.ه. كار» في كتابه «التأثير السوفيتي في العالم الغربي») بل إنهم يؤمنون أيضاً بأن الرأسمالية تحمل في داخلها بذور فنائها، وفي النهاية تفوز الشيوعية بالغلب عن طريق القوة مادام العنف هو السبيل الوحيد للقضاء على فلول النظام الرأسمالي الزائل.

ويرى رايت أن التاريخ يعزّز النظرة السوفيتية إلى حدثاً، ويذكر قادة الشيوعية كستالين أن حفنة صغيرة من أناس لا يذكرون قد بدأوا حركتها، وقد ظلّ ماركس عاكفاً على عمله في المتحف لا يلحظه أحد، حتى أن أمين المكتبة لم يكن يدرى ماذا يحدث له، وعلى مدى ثلاثين عاماً استطاعت هذه الحفنة الصغيرة أن تفوز بالسيطرة على شعب هائل وأن تفوز بانتصارين عسكريين وأن تضم إليها توابع وأن تحرز توسعاً ملحوظاً لتصبح واحدة من القوتين الكبيرتين في العالم، وأن يكون لها أحزابها المنحازة في فرنسا وإيطاليا وفي شرق أوروبا.

وكان لهذا الكسب المزدوج من التوسع الإقليمي والانتشار الشيوعي سوابقه العديدة، فيما كان من انفساح إمبراطورية الغرب في القرن السابع، والحملات الفرنسية الصليبية في العصور الوسطى واتساع إمبراطورية الهابسبورج في عصر الإصلاح، وبالذات عندما تصدّت للدفاع عن الكاثوليكية في حرب الثلاثين عاماً، ويرى رايت أن ذلك هو ما حدث أيضاً في الولايات المتحدة عندما اجتازت المحنة التي عصفت بالجمهورية على عهد إبراهيم لنكولن، فقد كان الأمن وكانت المشيئة البارزة هما العلة حينذاك كما كانتا عام ١٨٢٢ عندما أعلن جيمس مونرو عطفه على كفاح اليونان، وعلى أية حال فإن حيوية الأيدولوجية تتضاءل مع التغير الثوري كما حدث في الثورة الفرنسية، وكذلك عندما خرجت الولايات المتحدة من كفاحها لتكفل بنشر الديمقراطية، فإذا ما حدث ذلك للأيدولوجية السوفيتية فإن هذا ما تسفر عنه الأيام..

ولا تحمل قوّة الاتحاد السوفيتي المتزايدة رايت على الاعتراف لروسيا بأنها القوّة العظمى، فالولايات المتحدة تملك القبلة الذرية كما تملك اقتصاداً نامياً، ولها الصوت النافذ في مجلس الأمن بتسعة أصوات لصوتين. وفيها هذا التأييد للاقتصاد الحر وليس هناك ما ينم عن ضموره، وعلى هذه الصورة من القوّة، لا يرى رايت للاتحاد السوفيتي منها ما يهدّد استقلال الولايات المتحدة.

وتعانى روسيا من بعض المتاعب التي بدت جلية بعد الحرب العالمية الثانية بنوع خاص، وقد تراكمت حتى غدت عويصةً، كما أن الدبلوماسيين السوفيت قد أصابهم الجمود كأنهم دمي يحركها الكرملين، وغرقت الحكومة المركزية في أثقال من الأعباء ضلّت معها كل رغبة في التوجيه، ويرتفع مستوى المعيشة في الولايات المتحدة عن مثيله في روسيا بعشرة أضعاف، فالروس شعب يطحنه الفقر يسعى عبثاً أن يعيد بناء ما دمرته الحرب التي أودت بثلاثيه، وينم عن سخطه الحكم البوليسي الذي يسيطر عليه ودورات التطهير المتعاقبة، وهذا السخط لا يراه رايت عارضاً بل حتماً قائماً (والواقع أن نظريات التوسع السوفيتي التي ناقشها رايت، لا تردّ هذه القفزة التي قفزتها الشيوعية إلى انهيار الرأسمالية كما تردّها إلى البؤس الإنساني، وهي في حاجة إلى هذا الوقود من التعاسة لتبقى شعلتها مورية، ولهذا كان على القوى الغربية أن تقاوم الشيوعية بالقضاء على التعاسة والبؤس الإنساني)

وفي هذا الإطار يتوقع رايت أن تسلك السياسة السوفيتية سبيلها،

ولم يكن هناك محيص عن تلك العلاقات التي تربط التوابع في شرق أوروبا، ففي عام ١٩٤٤ يحدد ونستون تشرشل وأنتوني إيدن نطاق النفوذ لجوزيف ستالين بعد أن استبعدا منه اليونان، ووقف روزفلت دون ذلك وحاول أن يمنعه في يالتا، ويرى تلميذ من تلاميذ رأيته هو «فردريك شومان» أن قادة الروس يعتقدون أن اتفاق يالتا قد منحهم يداً مطلقاً في السيطرة على شرق أوروبا، ولهذا كان إحساس الروس بأن معارضة الغرب لسيطرة السوفيت على التوابع لا تقوم على أساس من الحق، فأخذوا ينشدون تأييد أوروبا الشرقية، ومن ثم اليونان وتركيا، وتابعوا سياستهم تلك في شمال آسيا، محاولين تحقيق مصالحهم في شمال الصين وإيران ومنغوليا وكوريا الشمالية وفي الهند وأندونيسيا، كما كانت المستعمرات الأخرى ميداناً لدعايتهم، وبدت روسيا وكأنها تدافع عن حق تقرير المصير، ومارسوا حقهم في الفيتو في الأمم المتحدة، ومع أنهم قد حاولوا كسر الجمود في محادثات الاستخدامات السلمية للقوى الذرية إلا أنهم لم يقوموا بشيء ما أكثر من الحديث.

وبالاختصار فإن رأيته يعي تلك العناصر والقوى العديدة التي تلعب دورها في تحديد السياسة السوفيتية، فقد تبين تماماً الأخطار والمصاعب الكامنة في التطرف الثوري، وإن كان يرى أن الزمن كفيل بالتخفيف من غلواء التطرف، فأخذ يؤكد أن الاستقرار في ظل القانون ضرورة لعالم متسبب، وعلى الدول أن تتسامح في خلافاتها الأيدولوجية، لتصل إلى ما سماه الرئيس «جون ف. كيندي» «عالم حفي بالتعدد»

أما اتجاه كوينس رايت الكاثوليكي، وهو ما يبدو في دراسته للحرب كظاهرة اجتماعية، فإنه قرين دراسته للتنظيم الدولي في حقبة متغيرة لعالم من شعوب تابعة لعالم تسوده دول مستقلة، وقد واجه الحقائق التي نذت في منتصف القرن العشرين، ملئاً بالمؤثرات المتخلفة عن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وعارضاً لقوى التاريخ في الأزمنة المعاصرة وفي المستقبل، ومع احترافه للعلوم السياسية والتشريع الدولي، فإنه يحس إحساس المؤرخ باستمرارية التاريخ. ولا يرى الاتجاه اليوتوبى مجدياً في إرشاد صانعي السياسة، وله من القدرة على الاختيار في تناوله للعلاقات الخارجية ما يمكنه من المزج بين نظرة المشرع ونظرة السياسي الواقعي والنظرية السياسية.

وفي تحليله لظهور الاتحاد السوفيتي كقوة دولية كبرى، أبدى اهتماماً بالغاً بالعلاقات التاريخية والاجتماعية والنفسية المتشابكة، فالسياسة الروسية تقوم أصلاً على الإحساس الروسي التاريخي بعدم الأمن، ثم اهتمت سبيلها إلى التوسع على هدى الأيدولوجية الماركسية اللينينية كما عبر عنها ستالين، ولم يؤخذ كوينسي رايت على غرة عندما تحرك نيكيتا خروشوف بالسياسة السوفيتية إلى الأوضاع العادية مع الغرب، فقد كانت قدرته على الاختيار والانتقاء والطريقة الصريحة التي يعالج بها موضوعاته سياجاً لإلمامه بسياسة الشعوب وما فيها من استمرارية وجدة.

وعلى المنهج ذاته، يرى رايت أن المؤسسات الدولية صورة متكررة ومستمرة في النظام السياسي والاجتماعي المتغير، ومن قبيل ذلك تحوّل

نظام الانتداب في عصبة الأمم إلى نظام الوصاية في الأمم المتحدة. حين عجلت نهاية العالم الاستعماري بنظام الوصاية، فعاقبت وقطعت الطريق على الاستقلال حين غدا مجلس الوصاية في الأمم المتحدة طريقاً غامماً ومعوجاً يوجّه الاستقلال ويتحكم فيه، وكانت نظريته التي أعلنها عام ١٩٤٦ نذيراً بأن مجلس الوصاية يمكن أن يكون قوة أساسية إذا ما رغبت الشعوب أو كثرتها أن تسلحه بالقوة؛ إذ أن هذا الأثر البارز الذي بدا فجأة كشهاب لامع لتلك الشعوب الجديدة في الأمم المتحدة ما يؤكد قدرة مجلس الوصاية على تقرير المصير القومي، فإذا كان المجلس قد قام بدوره على حدّ سواء في تأييد هذه الدول المستقلة الجديدة وقدرتها على الحكم الذاتي، فإن ذلك لم يشغل بال رايت ومازال يبحث له عن إجابة. وإن كان مما أنعم الله به عليه حقاً هو تلك الرحلة العقلية الطويلة المثمرة التي عاشها. وأخيراً نراه في دراسته للحرب والسلام يضع أمامه كل أبعاد المشكلة، فكتابه «دراسة الحرب» ذخيرة كبرى لطلاب الدراسة في الوقت الحاضر، وتعد بعض الأبحاث والمناهج فجّة أمام التقدم العلمي؛ ومازال هناك حتى اليوم من يرى في الأدوات التي اعتمد عليها رايت عملاً مهجوراً لم يعد له وجود، وإن لم يتسنّ لهم أن ينالوا من إنجاز رايت وقيّمته العظيمة، فإن لم يعد له في الواقع إلا أنه أصبح مرجعاً للعلوم الاجتماعية في كل ما يتصل بكافة ألوان الصراع ومسائل الحرب وما من كتاب إلا وبذيل بالرجوع إليه لكفاه ذلك ماثرة خالدة. ففي كل هذه المجالات التي عرض لها وتناولها، كان يكرس كل ما فيه من قوة وإصرار للبحث والدراسة، وكانت

طلاقة ووضوح ما يكشف عنه السمة التي تزدان بها مؤلفاته، وهانحن نعود إليها تحدونا وتلهمنا بالرشد لتلك الحقب القادمة.

وكثيراً ما قيل عن تحبط ما شرعه لمسيرة العلاقات الخارجية، في إصرارها على ما يجب أن يكون، وعلى ما يلم بها من إبهام وتجريد في تصورهما لقواعد السلوك الدولي، فأغضت عن الحقائق القاسية في ممارسة السياسة الخارجية وأخطأت ما هو خارجي لاعتبارها أن ما هو داخلي متمرد ساخر عندما يقرر ما يجب أن يكون لمصلحة الشعب، وانتهت إلى وضع هزيل عندما بدلت بالسخرية المثالية وظنت أن ذلك يصلح ما فسد، وبالاختصار، فإن الشرعية قد تجاهلت أولوية المصالح القومية، والإبهام الذي يحيط بالاختيار واتخاذ القرار.

وكان هذا النقد لكوينسي رايت من بعضنا إن لم يكن منا جميعاً، فعندما راجعنا مؤلفاته، لم نتردد في أن نشير إلى الصعوبات التي تعترض تطبيق آرائه، ومنها ما ذهب إليه مع آخرين عندما أخذوا يؤكدون أن الشعوب ستهتدى بالتشريع الذي وضعوه وتتبعه. والواقع أن هذه الفروض التشريعية التي أعدها كانت أكثر مما تقتضيه حاجة أولئك المسؤولين عن السياسة القومية، ويصدق ذلك ما كتبه رايت عن تعميم عضوية المنظمة الدولية بدلاً من العضوية الفردية في القانون الدولي، كما كان في محاكمات نورمبرج عندما أنيط بالأفراد مسؤولية الدولة، واحتمال أن يغلب الإلتجاء إلى القوة في السياسة الخارجية، وإنصافاً لرايت، علينا أن نقول إنه في هذا وفي غير ذلك من الحالات استطاع

أن يدرك أن ما ينادى به أقرب إلى المثالية منه إلى الواقعية عند التطبيق، وهناك ما يشير حقيقة إلى أنه كلما تقدم به الزمن ازداد تشاؤماً من سلوك الدولة، وهى حقيقة بدت، كما أرى، عندما رأى أولئك الناس الذين يجلبهم ويحمل لهم كل توقير في حياتهم الخاصة، قد سلكوا في حياتهم العامة ما عدّه انتهاكاً للمبادئ والقيم، وعندما تحدثت إليه في أخريات أيامه أحسست بالأسى دون السخط يعصف به عندما جرّنا الحديث إلى فيتنام، أو سياسة الصين، أو تهافت الأمم المتحدة، ولعل ذلك بعض آثار السن، وإن أحسست من ناحيتي أنه الأسى لمثل ذرتها الرياح لما أصاب الحياة الدولية من العجز والفشل، إلا أن الشرعية التي نادى بها رايت قد لا يتسنى التعبير عنها ما لم نضعه في إطار واحد مع أولئك المشرّعين والأخلاقين ممن شاعت آراؤهم؛ وذلك لأسباب ثلاثة كان رايت فيها مشرعاً عملياً أكثر من أولئك الذين تزعموا تلك الحركة.

أولها: أنه كان في حوار دائم إما بنفسه مباشرة أو عن طريق تلاميذه مع مورجنتو ورواده، ولعل تاريخ الدراسات الدولية لم يشهد مثال هذا الحوار المثير من قبل، وكان هذا الحوار لقاءً بين عقليتين متفردتين لا يمرّ دون أن يثير الانتباه، وكان هناك قدر كاف من الاهتمام، تكشففت من خلاله مواطن الخلاف بين الفريقين ولم يبلغ الصدام بينهما من الشدة ما يستحق الذكر، فقد كان كلاهما يحمل للآخر كلّ توقير وودّ حتى عندما يشتدّ بينهما التلاحى ويعنف، قد

تفصح عنه الذكريات الخاصة، فعندما تقدمت إلى الدراسات العليا بجامعة شيكاغو، والتقينا في حفل يوم الأحد بفندق وندرمير، رأيت جماعة من اثني عشر أو خمسة عشر نفرًا على مائدة مستطيلة أغلقت عليهم وكأنهم في ملاحاة لا تحدث إلا في مثل تلك اللحظات النادرة عندما تتصارع المذاهب وتطغى على الحياة الإنسانية، وقد أخطأت فهم الحوار وظننته مما يدور حول الحياة الخاصة أو أحداث العام العالمية، حتى أدركت أن نصفهم كان من تلاميذ رايت والنصف الآخر من تلاميذ مورجنتو، وذكرتي مناقشاتهم بذلك الحوار الذي أتصور أنه كان يدور في عصر الإصلاح أو في الثورة الفرنسية، وفضت تلك التجربة مغاليق الواقع القائم للصراع الفكري بين رجل التشريع ورجل الواقع، ولاح لي أن المشرع يقترب كثيرًا من البرجماتية بعيداً عن دينامية التفاعل فيما بينهما.

والسبب الثاني، أن رايت كان ولوعاً باستيعاب أكبر قدر من المعرفة الإنسانية، وكان جاداً في اكتشاف ما يصل إليه العلماء والإنسانيون والسيكولوجيون إلى جانب التفاسير العامة، ولشدة ولعه بتطبيق ذلك الكم المتعدد من المعارف على العلاقات الدولية، كانت نظرياته وتناوله لتلك العلاقات الدولية يتسم بالشمول والاختيار مما يميزه بصورة بارزة عن غيره من أصحاب النظريات «الجافة» فلم يكن هناك هذا العامل الفرد في تحليله لها. وغالباً ما كان يصل بين الأفكار والبيانات جميعاً، فتبدو وكأنها للوهلة الأولى قليلة الأثر إذا ما أدت

العلاقات المتداخلة إلى إثارة بعض التساؤلات عن التوافق والإنسجام فيما بينها، أو تؤدي إلى الدهشة أن يكون راييت قد خرج بهذا المقال الأخير من حلقات الدرس أو قراءاته الحديثة، ولقد داهمني هذا الإحساس أنا نفسي عندما كنت أستمع إلى شروحه التي يستمدّها من الفلسفة السياسية أو من اللاهوت (وكثيراً ما قلت بيني وبين نفسي إن لوك أو كانت أو نيبور قد يعجزون عن إدراك أفكارهم عندما يردّدها راييت) إلا أن أهم ما يبدو هو أن راييت في إلمامه الواسع بهذا الكم الهائل من المعارف قد جعله على استعداد دائم لأيّ بديل، وقدرة بالغة على أن يعيش ويفكر في حدود ثابتة.

وكانت تجربة راييت في نظرياته تريباقاً لتشريعته، ممّا يسر له أن يضع أربعة احتمالات يكون من بينها الاحتمال الذي ينشده، وحمل ناقديه على القول عليه بأنه يرمى إلى اجتذاب أولئك التساهلين إلى صفّه، وإن كنت أرى أن راييت كان يرى في تلك البدائل ما يضع منهاجه موضع النظر، إذ أنها تحميه من الوهم، أو أن رأيه هو الحلّ الوحيد للمشكلة، وكانت عوناً له على وضع ما يختاره من تشريع موضع التفكير.

وكان له من أصراره على الدراسة وجهده الذي لا يتعب في التحصيل عوناً له على دعم آرائه، وكثيراً ما استوعبت تذييلاته ثلاثة أرباع الصفحة لنصّ لا يزيد على أربعة أسطر في أعلى الصفحة، وداشاً ما كان يعثر على نقيض للمثل أو للحالة، وكان يتحاشى أن يربط نفسه

بتشريع واحد مسبق بل يتناول كل سابقة سلفت ومن بينها تلك السابقة التي خرجت بها صحيفة نيويورك تيمز صباح نفس اليوم وكان مكتبه مكتظاً بالكتب بصفحاتها وأوراقها المعلّمة مما قرأه وأحاط به خلال شهر، ولم يكن بطبعه ليبدأ حديثاً برأى بسيط، مفضلاً أن يتناول الملامح والسوابق التي تقودك أو تقوده نحو الرأى الأخير، وكان ما تعلّمه هائلاً، يجّده ويضيف إليه باستمرار، ومنذ اتسع وامتد إلى ما وراء فكره التشريعى، أصبح من العسير عليه أن يبقى مشرّعاً بالمعنى الضيق.

وثالث الأسباب، أنه كان عضواً بمدرسة العلوم السياسية بشيكاجو، مما جعله قريباً من الواقع السياسى والعملى، وقد يعود إلى «تشارلز ي. مريام» كآخر من يستشهد به فى مناقشاته السياسية، وكان فى حوار دائم مع مريام، وهارولد لازويل، ووالتر جونسون، ومن يتشيعون لهم، وقد تمّ المقارنة بين القانون الدولى وقانون المجالس المحلية مع رايت فى فترة الغداء بالكلية مع مريام وغيره، فإذا كانت صلته بتلك الجماعة التى ترى السياسة قاصرةً على الإطار التشريعى مضلّلة إلى حدّ ما إلّا أنها كانت تمّد رايت بالمزيد من القوة، إذ كان له من مريام وجماعته مزيد من الخبرة القائمة على السياسة العملية، وقد وصف مريام الأعمال الداخلية التى يقوم بها مجلس مدينة شيكاغو بالبيزنطية والتلاعب، تتجلى فى الإبهام والتناحر البادى حول المصالح، ويصبح الحديث عن نظرية صحيحة للقانون مجالاً فى هذا الإطار من الناحية العملية، ولا بدّ أن يكون رايت قد أدرك أن أىّ قانون يتناول تلك المحليات ما هو إلّا

و «هانز ح. مورجنتو» و «لويس ج. هال» اعتزازا بمكانته العلمية الكبيرة فانزلق إلى التعالّات المتغيرة التي لا ثبات لها، وكثيراً ما أُهمل في أيامه الأخيرة لكثرة ما كان يدلى به من آراء يتحدث فيها عن خطط كبرى تتناسب مع الماضي أكثر مما تتناسب مع الحاضر أو المستقبل، ولم يكن ليفصل أبداً بين السياسات والنظريات التي يتحيز لها ويدافع عنها، كما كانت بعض تصوراتهِ الجريئة لا تؤدّي به إلى رؤيا دولية صحيحة ولكنها تقوده إلى سلسلة متعاقبة من المنحنيات الضالة، أما آماله البهيجة وقصور فلسفته السياسية عن الالتحام والتماسك، فكانت من أسباب ضعفه أكثر منها سنداً لقوّته، أما وقد خاض في كل المشكلات، فقد أعوزته الأصالة كما أعوزته النظرة العميقة، وقد بدا للكثيرين وكأنه «دون كيشوت» الفكر الدولي أكثر منه مفكراً منهجياً.

ولكنه ظلّ حتى الساعات الأخيرة من سنواته الثمانين المثمرة معيناً لا ينضب وشخصية حيّة لا تكل نشاطاً وأملاً، وكان مثلاً مضيئاً لتلاميذه كعالم وإداري، يمضي في الطريق الذي يرى فيه خير العالم، وبقي وحيّاً وأملاً لمن اتصل بهم في حياته في الولايات المتحدة وفي الهند وتركيا أو في شرقي أفريقيا.

و «هانز ح. مورجنتو» و «لويس ج. هال» اعتزازاً بمكانته العلمية الكبيرة فانزلق إلى التعلّلات المتغيرة التي لا ثبات لها، وكثيراً ما أهمل في أيامه الأخيرة لكثرة ما كان يدلى به من آراء يتحدث فيها عن خطط كبرى تتناسب مع الماضي أكثر مما تتناسب مع الحاضر أو المستقبل، ولم يكن ليفصل أبداً بين السياسات والنظريات التي يتحيز لها ويدافع عنها، كما كانت بعض تصوراتهِ الجريئة لا تؤدّي به إلى رؤيا دولية صحيحة ولكنها تقوده إلى سلسلة متعاقبة من المنحنيات الضالة، أما آماله البهيجة وقصور فلسفته السياسية عن الالتحام والتماسك، فكانت من أسباب ضعفه أكثر منها سنداً لقوّته، أما وقد خاض في كل المشكلات، فقد أعوزته الأصالة كما أعوزته النظرة العميقة، وقد بدا للكثيرين وكأنه «دون كيشوت» الفكر الدولي أكثر منه مفكراً منهجياً.

ولكنه ظلّ حتى الساعات الأخيرة من سنواته الثمانين المثمرة معيناً لا ينضب وشخصية حيّة لا تكل نشاطاً وأملاً، وكان مثلاً مضيئاً لتلاميذه كعالم وإداري، يمضي في الطريق الذي يرى فيه خير العالم، وبقي وحيّاً وأملاً لمن اتصل بهم في حياته في الولايات المتحدة وفي الهند وتركيا أو في شرقي أفريقيا.

إلى العمل بعيداً
عن السياسة

دافيد ميتراى (١٨٨٨-١٩٧٧)

ولد دافيد ميتراى أول يناير ١٨٨٨ فى بوخارست رومانيا، لموسكو وجانيت ميتراى، ودرس العلوم السياسية والعلاقات الدولية بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، واستهل حياته فى الشؤون العالمية فى هيئة تحرير المانشستر جارديان من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٢، وأستاذًا زائرًا فى هارفارد وييل، وسمت كولييج وكان النائب الأوربى لرئيس تحرير موسوعة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للحرب العالمية من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٩ «تحت رعاية مؤسسة كارنيجى للسلام الدولى» واختير عام ١٩٣٣ أستاذًا بمدرسة الاقتصاد والسياسة بمعهد برنستون للدراسات العليا. وترجع شهرة ميتراى إلى كتاباته عن العمل الوظيفى (التوظيف) بخلاف مؤلفاته الأخرى: «صعوبة العقوبات الدولية»^(١) (١٩٢٥) و«ماركس غريم الفلاح»^(٢) (١٩٥١) و«نهضة الحكومة الدولية»^(٣)

The problem of International Sanctions.

(١)

Marx against the Peasant.

(٢)

The Progress of International Government.

(٣)

(١٩٣٤) إلى جانب كتب عديدة عن جنوب شرق أوربا، أما كتبه المتداولة عن العمل الوظيفي، فمنها: «طريق السلام العملي: عرض لتطور عمل المنظمات الدولية»^(١) (١٩٤٤) و«النظرية العملية للسياسة»^(٢) (١٩٧٥) والعديد من المقالات والتعليقات، ولم يكن ميثرائي ذا مكانة ملحوظة في ميدان العلاقات الدولية، ولم يل منصباً علمياً في أى جامعة أوربية أو أمريكية، وإن عرفت مكائته عندما تميز باختياره لمعهد برنستون للدراسات العليا، ولجامعتي هارفارد وييل، ولم يحظ حتى أيامه الأخيرة بأى اهتمام أكاديمي، وإن لم يتردد أساتذة أجلاء ودون حياء أحياناً في الرجوع إليه كملاذ أخير، حتى أن بعض أساتذته العلوم السياسية المعروفين يدعون أنفسهم أصحاب الاتجاه الوظيفي الجديد أو دعاة التكامل، دون اصطلاح العمل الوظيفي الذي استخدمه ميثرائي.

ولا يقف ميثرائي عند فلسفة بعينها، ولم يتمرس بحرفة التعليم، وإنما كان يستمد أفكاره من الليبرالية والراдикаلية والنقابية والاشتراكية الفابية والتفكير العقلي للقرن التاسع عشر ونظريات الاقتصاد المختلط وتجارب التيوذيل. وكان من رجال المخابرات في فترة الحرب، وصحفيًا ومراسلاً خارجيًا، ومخططاً لما بعد الحرب ومقررًا في المناقشات والحلقات الدراسية، ومستشارًا سياسيًا لأعمال دولية كبرى وهو بعد ذلك صاحب نظرية تقليدية في السياسة، ولم يرأس في حياته مركزًا للأبحاث، ولم

(١) Working Peace System: an argument for the Functional Development of International organization.

The Functional Theory of Politics.

(٢)

يصنع جيلاً ولم يتعلمد عليه أحد ولم ينشئ صحافة علمية أو شعبية، ولكنه بعد هذا كله ترك من التعاليم ما كان له أبعد الأثر.

ولا يعرف حتى الآن علة ما كان لميتراى من أثر، وما الذى دعا رينولد نيبور لأن ينعت كتابه «طريق السلام العملى» بأنه «أحسن ماقرأ فى هذا الموضوع» أو أن يحمل «هانز ج. مورجنتو» على الزعم «بأن مستقبل الحضارة العالمية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأداء الوظيفى للمنظمات الدولية؟»، ولماذا أذاع الملحق الأدبى لصحيفة التيمس فى فبراير ١٩٧٤، أنه «ما لم يكن للأداء الوظيفى جدوى، فأى سبيل آخر له جدواه؟ وما هى دلائل الأداء الوظيفى التى يمكن أن تجبه الأساتذة والمراقبين وتثير اهتمامهم وتورى ملكاتهم الذهنية على اختلاف مناهجهم وآرائهم؟ ولكن التمعن فى صيغته وحدوده ومصاعبه قد يجيب على هذا كله. فأما صيغة الأداء الوظيفى للفكر الدولى، فإنها تقوم على ثلاثة اعتبارات على الأقل:

١ - أنها تضع إطاراً لصورة التعاون الدولى فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية الناشئة.

٢ - أنها تقدم حلولاً معقولة لمشكلات النظام العالمى، وتقضى على الفجوة القائمة بين الفوضى الدولية والجماعة العالمية.

٣ - وأنها تضيف أبعاداً جديدةً للفكر الدولى الذى ارتبط طويلاً بالمسائل السياسية والدبلوماسية والقانونية.

فالأداء الوظيفي في مداه كنظرية عقلية متأسكة لا يقوم على تلك الأوضاع الثابتة كما يقوم على طبيعته الأوتوية البعيدة عن الاتجاهات السياسية والدستورية، فالمدى المحدود يعكس تأثيراً إيجابياً وإن حفّ به خطر المغالاة والمشكلات تنجم من فشل التنبؤ التاريخي، والاستهانة بالآراء، وقصور الشفافية العقلية والعلمية، والفشل لا ينفرد بالأداء الوظيفي، ولا أقل من أن يطيح بتأسكه التاريخي والفكري.

وليس من المجدي أن نمتدح الأداء الوظيفي أو أن نغفل حدوده والمشكلات الناجمة عنه، وما من شيء يتعدى نقد الأداء الوظيفي إلا ويبرر الإغضاء عن الدور الحقيقي الهام التي تلعبه في الدراسات الدولية وسنعرض بالتفصيل لجانب من هذه الدراسات، التي تفصح عن سداد الأداء الوظيفي للدراسة المتقدمة للتنمية، وسنجدها بادية في اثني عشرة وكالة للدراسات المتقدمة للتنمية في أفريقية، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، منها البنك الدولي، وبنك التنمية الأمريكي، واليونسكو، وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، واليونسيف، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (يوسيد)، ووزارة الخارجية الفرنسية، وإدارة التنمية البريطانية لما وراء البحار (أودا) والوكالة الكندية للتنمية الدولية (سيدا) ومركز الأبحاث الكندي للتنمية الدولية (إدرك)، ومؤسسة فورد، ومؤسسة روكفلر. ويقوم على الدراسة ثلاث فرق إقليمية من المعلمين في أفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية، قام على رئاستها «أكليو هابتي» وزير الثقافة والشباب في أثيوبيا حينذاك ورئيس قسم التربية في البنك الدولي حالياً، وكان من

قبل رئيساً لجامعة إثيوبيا، و «بوى انجفاكورن» وكان مديراً لجامعة بانجوك في تايلاند، و «الفونسو أوكامبو» وزير الصحة الأسبق في كولومبيا، ومدير جامعة قالى كولومبيا من قبل، وقد اضطلعت هذه الفرق الثلاث معاً بدراسة ثلاث وعشرين حالة على غاية من الأهمية، كانت الدراسات المتقدمة فيها انعكاساً لحاجات التنمية الملحة، كتنمية مصادر الغذاء، والرعاية الصحية وتطوير التعليم والثقافة، وتحديد النسل.

أما السؤال الجدير بالاهتمام فهو، إلى أى جانب من القيم ينتمى الأداء الوظيفي، وما الذى يمكن أن يقدمه للإمام بحقيقة التعليم الدولى والتنمية الاجتماعية؟ وإن سبقه سؤال ثانوى هو: هل يستطيع الأداء الوظيفي أن يضع إطاراً نافعاً لفكر يتناول التعليم الدولى؟ وهل يستطيع أن يقدم نظرة جديدة للتعليم ولنظام عالمى؟ وهل يضيف أبعاداً نظرية جديدة؟ ولما كانت الخطوط الأساسية للوكالات الاثنى عشرة قد أكدت الخبرات القومية المتعددة فى التعليم، فإن الحكم على الأداء الوظيفي لا يتأتى إلا من خلال إطار إقليمي معين دون الإطار العالمى الفسيح. وإن كان من اليسير أن يقدم بعض الانطباعات التجريبية على سداد الأداء الوظيفي مما يتطلب مزيداً من الحوار والدراسة، فالأداء الوظيفي فى إطاره الفكرى يقترب من المشكلات المحلية المعنية أكثر من أى بديل آخر، إذ أنه من ناحية يحقق جدواه فى غيخته، فالواقع السياسى يقوم على السلطة وإدارة الدولة تتوافق توافقاً صريحاً مع القاعدة الكلية، أما

المثالية التي تنشُد حلولاً عالمية عاجلة، فليس لها أية صلة بما تتطلع إليه البلاد النامية من الدراسات المتقدمة إلا في القليل النادر، والأكثر جدوى أن التعليم بالرغم مما يحيطه من اتجاهات سياسية وشرعية ودبلوماسية عمل اجتماعي بل وأكثر من هذا إجراء اقتصادي. ومن بين النظريات الملقاة لا يتسنى لغير الأداء الوظيفي العمل في هذا الاتجاه؛ ولهذا كانت افتراضاته الدقيقة أقرب إلى قضايا التعليم العالي من أي اتجاه نظري يباريه.

وعندما ننشد نظاماً عالمياً في التعليم، علينا أن ندرك تماماً أن تحقيقه لا يتأتى إلا على أيدي المعلمين الوطنيين بقدرتهم على تناول المسائل العامة أكثر منهم على تناول تلك الرؤى الطموحة لتعليم عالمي. ومرة أخرى، يتساءل المعلمون في الفرق الإقليمية عما كان من اتجاهات جديدة في المناطق الأخرى حيال تلك المسائل الأساسية كالتوعية الصحية أو زيادة إنتاج الأغذية، فالأفريقيون يرغبون في معرفة الكثير عن علم الصحة عامة، أو عن كاندلاريا (وهو برنامج عملي للتوعية الصحية بين الفقراء) في كالي كولومبيا، وبالتالي فإن أمريكا اللاتينية قد أثارها التدريب على المهن الصغرى في الهندسة والمحاسبة والأعمال الفنية التي قامت بها كلية نجى آن في سنغافورة، وهي من المعاهد التعليمية القليلة التي ألقت جانباً بالدرجات العلمية وأخذت تمنح شهادات التأهيل تبعاً لمتطلبات القوى البشرية، أما الآسيويون فقد راحوا يلتمسون الفنيين والعمال الماهرة في مثل تلك المعاهد الأفريقية كجامعة «أحمدوبلو» في

شمالى نيجيريا، وجامعة العلوم والتكنولوجيا فى غانا، وسواء أدرك أصحاب النظريات السياسية عن الدولة القومية أم قصرُوا عن إدراكه فإن هناك جماعة دولية من العلماء والمربين يشاركون فى مثل هذه الاهتمامات بل ويتشبهون بمواجهة تلك المشكلات وقد أخذ هؤلاء العلماء والمربون خبرتهم عن الغرب ووضعوا لها القواعد والأصول، وإن أخذت تلك الخبرات تتقدم وتصبح بعض تراث الماضى فتراهم يسعون لوضع برامج جديدة للمستقبل وخاصة فيما يتعلق بمشكلات العالم الثالث العاجلة. وأخيراً، فإن الأثر الإيجابى للأداء الوظيفى قد يتمثل فى تلك الأبعاد الجديدة الأخاذة فى التفكير الدولى، فلم يكن للتعليم غير دور ثانوى فى أكثر ما كتب عن الحرب والسلام والدبلوماسية أما السؤال الذى استغرق اهتمام الباحثين فى مسائل الحرب والسلام فهو عن الأثر الذى يمكن أن يتركه التعليم فى نمو الوعى القومى أو أنه بشير باتجاه عالمى حقيقى، ويبدو ذلك فيما يقوم به اليونسكو حول التاريخ القومى، أما الأداء الوظيفى فإنه على العكس من ذلك يرى التعليم محدود المدى لا يعرض لغير مسائل بعينها ولا يخوض إلا فى موضوعات محدّدة، والتعليم العالى وحده هو الذى يتسنى له أن يقترب من تلك النظرة السائدة ويعيها، ومن أبعد الأشياء أن ندعى أن الزراعيين ورجال العلوم والمربين ممن تلقوا تعليماً عالياً أو أن المحور الذى يدور حوله تعليمهم العالى قد عرضوا بصورة جادة للقومية أو للدنيا الواسعة على هذه الصورة، فإنهم لا يعنون بغير المطالب العاجلة للشعوب الفقيرة والأقطار والمجتمعات الغنية (وإن كنا لا نعدّ بلدًا كسنغافورة من هذا القبيل)

وليس من المحتمل أن يكونوا قد كتبوا أو فكروا كثيراً في تلك الموضوعات الكبيرة التي يعنى بها رجال العلوم السياسية من أمثال ميثرائي.

وجوهر الموضوع أن يمتد الاهتمام في الأداء الوظيفي للتعليم إلى أعماق الدولية عملاً ومنهجاً.

وتقف حدود الأداء الوظيفي عند طبيعتها الخيالية البعيدة عن الأمور السياسية والتنظيمية. وترجع طبيعتها الخيالية هذه إلى الإيمان بأن التعاون الوظيفي الناجح يقضي بالتدريج على تلك القبضة العنيفة التي تمسك بخناق الدبلوماسيين والساسة حول السيادة القومية، وهو ما يمكن استيعابه في حدود متواضعة من الدراسة اللاحقة. وقد حمل دعاة الوحدة الإقليمية الوزراء ودهاقين التنمية القومية، على الأقل إلى مناقشتهم، وانتهت بهم المناقشة إلى أن النظرة القومية الضيقة تقف حجر عثرة أمام التطور التعليمي الفعال في البلاد النامية الصغيرة، ولم يكن هناك من دعاة الوحدة الإقليمية من شدد عن الدعوة إلى التبادل الدولي أو وقف دون المناداة بمجدوى الخبرة الفنية الأجنبية في التعليم.

هذا وإن أبدت الفرق الإقليمية الثلاث نوعاً من الحذر والشك، وخاصةً فيما يتصل بوضع حلول تعليمية لكافة المشكلات، وقد جاء القاصي من الخبراء في الغالب ليلقى بكلماته دون أن يستمع أما الوكالات الكبرى للمساعدة الفنية فإنها ترى أن الاتجاه التعليمي السائد هو الحصيلة الوحيدة للإجابة على ما يثور من تساؤلات حول مسائل

فريدة بعينها، وإذا كان العالم الثالث قد أعدّ ليتقبل كل ما هو أمريكى أو بريطانى حلاً لمشكلاته، فقد مضى ذلك اليوم إلى غير رجعة. هذا، فضلاً عن أن الإجراءات التى اتخذت لمواجهة المشكلات المحلية. قد نجحت إلى حدّ يكفى لإثارة الكبرياء القومى، والإحساس بالذاتية القومية. فالكاميرون ولديها مركز من أنجح المراكز فى علم الصحة بأفريقية، ترى هذا المركز عنواناً فذاً على نجاح الجهد القومى لا يقلل أبداً من قدرة حكومته والواقع أن صدق الحكومات القومية وقدرتها على الإنجاز عنصر جوهري للإعداد لتعليم صالح. فإذا أتيح للأداء الوظيفى تلك الشعلة الوضاعة من التعليم الدولى إلى السياسة الدولية، فإن فشل اليونسكو فى حمل وزراء التعليم على النظر فى التجارب الناجحة بنوع من الموضوعية دون اعتبار للكبرياء القومى يترك ثلماً لا تسدّ فى الأداء الوظيفى.

أما الحد الثانى للأداء الوظيفى فإنه سند وقوة لهذا الاتجاه، إذ يرى أن السياسة القومية والدولية تغدو وليس لها جدوى كلما مضى التعاون فى طريقه قدماً بعيداً عن السياسة وللمرة الثانية لا يصح للتعليم العالى أن يكون محلاً للاعتراض، فالحكومات فى البلاد النامية ترى التعليم عملاً سياسياً لا يشوبه خطأ. فتصر على أن نظريات التعليم التى تقوم على الفصل بين الحكومة والجامعات نظريات غريبة، لا تستطيع أن تفى بالمطالب العاجلة والملحة للبلاد الفقيرة. ففى تنزانيا يشكل الوزراء ورجال الحكومة ٣٧٪ من الجهاز الإدارى لجامعة دار السلام، وفى مالى فإن ما يدعى بالجامعة يتكون من عدة معاهد تقوم وتعتمد فى أمورهما على وزارات معينة كوزارة

الزراعة أو التعليم أو وزارة الداخلية، أما كلية نجى آن الفنية بسنغافورة فإنها لا تقبل غير عدد محدود من الفنيين الذين تحتاجهم الأجهزة الحكومية. فالبلاد النامية على أقل تقدير، لا يمكن أن ترى الإقدام على الأداء الوظيفي كما في التعليم مثلاً سبيلاً للقضاء على سيادة الدولة والعكس هو الصحيح.

وما زال الأداء الوظيفي ضحية لعائق آخر، وما زال هناك غير القليل من الحديث عن الأنظمة وقياس كل منها بالأخرى وتفاعلها عبر الحدود القومية «فالعامل هو الذي يقرر الشكل» وهو ما يفرضه الأداء الوظيفي، وفي أضيق الحدود فإن العمل الفريد تجاه أى مشكلة قومية فريدة فى حاجة إلى تنظيم فريد، ولا يتعارض هذا الاتجاه مع الأهداف التى تنشدها أى نظرية للتنظيم لتحقيق نظرة عامة معينة عن الأنظمة فى حقل التعليم فحسب، ولكنه بالتالى تشويه لكل ما يتصل باتجاهات التعليم المقارن، وقد تبين من الدراسة الحاضرة أن النظم القومية للتعليم فى العالم الثالث تتأثر إلى حد كبير بترائهم التعليمى، حتى وإن برموا بها وثاروا عليها، وليس من اليسير مناقشة أمور التعليم العالى فى أفريقية دون الرجوع إلى النظم الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ولربما كان ما يفرضه الأداء الوظيفي فى حاجة إلى تنقية، ليكون أساساً «للعمل الذى يقرر الشكل»، وإن كانت السوابق التاريخية فى الواقع لا تجعل لهذه الصلة بين العمل والشكل وجوداً فى الكثير من الأحوال، وقد يحتاج رجال الأداء الوظيفي إلى معرفة أن التاريخ قد يصبح حجر عثرة تقف دون أى تبسيط للنظرية الاجتماعية، وإن كان ذلك لا يحول دون

تبين قيمة وفائدة النظرة التي يقوم عليها الأداء الوظيفي، وإن كانت نذيراً للمؤرخ حول الحدود التي تقف عندها ولا تتجاوزها كما كان من جاكوب بوركهارت حين أشار إلى خداع الذات لأولئك الكبار الذين «يسطون كل شيء».

ويرجع فشل الأداء الوظيفي إلى النظرة القاصرة للتنبؤ التاريخي وتحقيره للرأى، وقصور الحافز العلمى والفكرى، ومن الواجب إبراز أن هذا الفشل قاصر عليها. ويقع هذا الفشل ويبرز في كل موقف اجتماعى هام وفي أى نظرية، وما حوليات التاريخ إلا ميدان يتناثر فيه فشل الإنسان في رؤية التطور التاريخي، والقلّة من هؤلاء الذين يرصدون الأحداث، إن وجدت. هي التي استطاعت أن تتوقع قيام الثورتين الفرنسية والروسية، ومن هذه التوقعات للتجارب الاجتماعية كتجربة النظام الجديد «الينوديل» استوحى ميثرائى تجارب شبيهة للأداء الوظيفي أو الطابع الإقليمى الكفيل بالقضاء على الولاء القومى في الشؤون الدولية، ومن الناس من يرى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة على هذه الصورة في أعقاب الحرب العالمية الثانية ومهما تكن قيمة الدروس المستفادة، والعمل الذى تؤدّيه هذه الهيئات فإنها قد أثارت المزيد من التنافس والصراع القومى، وشبيه بذلك، لم يؤدّ الأداء الوظيفي بصورة عامة، إلى التهوين من شأن الأحاسيس القومية، وإن كان هذا النقد لا يسرى في الحقيقة على تلك الشبكة من المعاهد الزراعية الدولية المتناثرة في أنحاء العالم، فقد أثبتت إلى حدّ بعيد كفاءة الأداء الوظيفي،

وإن كان ذلك مما لا يسرى على التعليم العالى فى شرق أفريقيا ولا فى غربها، حيث ترتبط أنظمتها بالبلاد التابعة أكثر مما ترتبط بعضها ببعض، وهناك اتجاه فى بعض البلاد الأفريقية إلى تغيير وظائف التعليم، كما كان من تحول نظم التعليم القومية فى أفريقيا الفرنسية إلى النظام الفرنسى، وكان تفكك جامعة شرق أفريقية، والفشل فى تحقيق نظام موحد للتعليم العالى فى جنوب أفريقيا وفى أمريكا الوسطى سمة أخرى على فشل الاهتمام إلى الأداء الوظيفى.

وقد استطاع الأداء الوظيفى إلى حد ما أن يضىء الطريق عندما بدت التجربة العملية أكثر تحقيقاً للتعاون الدولى من كل الخطب والأفكار، وإن كان الناس - كما كتب ماكس ليرنر مرة - يملكون الفكر، أما الآراء فإنها تملك الناس، وهناك نوع من التناقض الفطرى فى ازدراء رجال الأداء الوظيفى للآراء أدعى إلى التفرقة منها إلى التوحيد، وهو تناقض يسود إيمان ميرانى بقدرة الفكر الذى يهتديه رجال الأداء الوظيفى، وقد يبدو صحيحاً أن فكرة مجدية كالفكرة التى تقوم عليها الخدمة الصحية الريفية فى التعليم الطبى، قد تبدو ولها فحواها، كما هو الحال فى إقامة عيادات صحية ريفية ييسر إقامتها حالياً، أما الغموض الذى يكتنف أحياناً أى مذهب تعليمى معلن، كما يحدث أحياناً عند ابتكار تجربة تعليمية، ثم التنكر لفكرة وامتداح غيرها فإنه خطأ بالغ، كالإلحاح مثلاً على أفكار مبهمة لا تستند إلى واقع عملى.

ويقع الأداء الوظيفي في النهاية تحت رحمة أولئك الذين يتقوّلون عليه ويرون أنه لا يقوم على أساس علمي ولا يستند إلى أساس فكري، وما هو إلاّ اتجاه عام، وليس نظرية اجتماعية مقنّنة، أولها فحوى ثقافي، ويأتى هذا النقد إلى حدّ ما، من خلال التعليم العالى والتغير الاجتماعى، فمن اليسير أن نقرر أن التعليم محاولة وظيفية، وإن كان من العسير أن يؤدّى هذا الاتجاه العام إلى دلالة لها فحواها لما يمكن أدائه أو توقّعه من تلك المحاولات المشتركة في التعليم الطبى أو الزراعى أو التعليم التربوى، وقد يتساءل البعض مثلاً، عما يمكن أن يأتى به الأداء الوظيفي لمراكز الصحة الريفية التى تختلف تماماً عن المستشفيات المركزية أو الإقليمية في الكامبيرون أو كولومبيا لتبين المشكلة، وهناك نوع من الإغضاء عن المشكلات العاجلة داخل قطاعات معيّنة من التعليم العالى قد تصور تلك التساؤلات التى تدور حول فحواها الثقافى، فالأداء الوظيفي شبيه بهذا النسق الكانتى يخلو من أى مضمون ومن ثمّ يصبح من العسير أن يتصدّى لأى واقع سياسى أو اجتماعى. ويرد رجال الأداء الوظيفي بأن ذلك هو ما يتميز به وهو مصدر قوّته، فإن ما يمكن أن ينسب إليه من فشل هو أن الذين يتشيعون له أو يتحاملون عليه عليهم أن يدركوا تماماً وأن يتبينوا أن الأداء الوظيفي ليس مثلاً أعلى أو أن فيه الدواء لكل داء.

ويرتكز الحكم على أى نظرية للعلاقات الدولية على أساس ما تحقّقه من صالح أكثر من جانب من جوانب التجربة الاجتماعية،

فالتعليم العالى فى البلاد النامية يعرض للوضع كاملاً، وهو ما يراه
ميترانى وضعاً اجتماعياً واقتصادياً، إلا أن الرباط الذى يصل بين التعليم
والنظام السياسى رباط وثيق، فالتعليم يلمس نواح بالغة الأهمية فى حياة
الشعوب، وهو قوام الولاء فى وجدان الشباب ويدعم قدرات القوى
البشرية، ويبدو من الغريب أن تسند الحكومات أمور التعليم وخاصة فى
البلاد النامية إلى الغير، وهو ما أدلى به إلى جوليوس نيريرى رئيس
تنزانيا عندما سأله عن المعونة الأجنبية للتعليم الابتدائى والثانوى فى
تنزانيا، بقوله «ما لم أقدم شيئاً لتعليم الشباب، فإن شعبى يسقطنى
ويسقط حكومتى».

إلا أن الأداء الوظيفى يصلح على الأقل لتفسير التعاون الدولى فى
مجال التعليم العالى مثله فى ذلك مثل أى نظرية أخرى. ورجال التعليم
العالى، وخاصة من يتمتعون بالكفاءة والقدرة المهنية يشكلون مجموعة
من الدارسين الدوليين من اليسير عليهم أن يعملوا معاً متحررين من
أى ضغط سياسى. ولم أجد ثمة عائق فى وضع أربعة وعشرين معلماً فى
البلاد دون النامية كانوا من الكفاءة والقدرة على العمل معاً لدراسة
ما يقدمه التعليم العالى للتنمية، كما كانت لهم سمعتهم المهنية الطيبة فى
الميدان، وعرف عنهم أنهم يستطيعون العمل معاً مهما كانت الخلافات
السياسية بين بلادهم، وإن كان كل منهم قد حقق بعض النجاح فى
التأثير على الوزراء ورجال الحكم، إلا أنهم كانوا يملكون القدرة على
التعاون فى كلا الميدانين السياسى وغير السياسى، وكان لهم تأثيرهم

كمعلمين أولاً، أكثر مما كان تأثيرهم في التجاوزات القومية لدى أصحاب القرار الحكومى. وقاموا بتقديم دراسات موضوعية لأصحاب العقلية المحدودة عالمياً من مواطنيهم، ولم يكن هناك أى شك في أن رجالاً في مجالسهم الحكومية الداخلية من أمثال «ج. ل. مونيكوسو» في الكاميرون و«أكليلو هابتي» في أثيوبيا، والسفير «سويدجاتوكو» في أندونيسيا قد وضعوا معالم بارزة للتعاون الدولى. هذا وإن كان الأداء الوظيفى يضيف أهمية بالغة على قوى التحول في الإجراءات والقدرات الاجتماعية والاقتصادية فإن الدور الذى يقوم به أفراد متفردون يجسدون خطوات التوظيف لا يقل عن ذلك أهمية.

ومن الواضح أنه عندما يتعثر التوافق والاتساق في خطوات الأداء الوظيفى فإنها تصبح أكثر تحديداً ويصبح من اليسير التعرف عليها، وتبدو التنمية الزراعية مثلاً بارزاً على ذلك، وخاصة عندما تتزايد الحاجة إلى إنتاج الطعام، وتقوم المعاهد الدولية لأبحاث الزراعة في المكسيك وكولمبيا والفيلبين والهند ونيجيريا وكينيا بتسخير كافة القوى البشرية والموارد المتاحة في أبحاثها لإنتاج محاصيل جديدة تغل عائداً أوفر. والفيلبين تركز على زراعة الأرز، والمكسيك على الأذرة والقمح، والهند على الطعام في الزراعات الموسمية. ويعمل العلماء من كافة الأقطار جنباً إلى جنب ليلقون بالاً إلى اختلاف أجناسهم، وأدت التجارب الناجحة إلى عقد اتفاقيات بين دول عديدة ذات برامج متنوعة للبحث والتدريب، وبغض النظر عن تعثر التقدم، فإن الجهد الدولى الكثيف والمقرر قد حقق

تقدماً علمياً وأدى إلى نتائج عديدة، وقد وضعت المجالس الدولية المشرفة سياسة المعاهد على أساس الاحتياجات والضرورات الإقليمية دون القومية، كما عيّنت المغامرات الناجحة في ميدان الصحة العامة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية الطريق للتعاون الدولي في ميدان الزراعة، حيث أورت تلك المعاهد الشعلة التي امتدت إلى كافة الميادين الأخرى. وغالباً ما استسلم قادة العالم الثالث لوعود لم تتم من جانب القائمين على أمور المعونة الفنية كان من الأجدي أن تثمر برامجها المشتركة محاولات أخرى فالنجاح يفرخ النجاح ويفرز التصميم على القيام بتجارب جديدة في محيط التنمية الفسيح..

غير أن التقدم الاجتماعي والاقتصادي مضى في خطوات ثابتة على مدى الزمن، ونادراً ما كانت تستسلم للحلول العاجلة إن وجدت. وتأصلت على مدى ربع قرن تلك القصص التي ذاعت عن نجاح معاهد الزراعة الدولية وما حققه برنامج مؤسسة روكفلر الذي بدأ عام ١٩٤٣ من نجاح للزراعة في المكسيك. وعندما حال القرن بدأت الحملة على الأمراض الاستوائية تقوم بها الوكالات الدولية للصحة الخاصة منها والرسمية، وليس للأداء الوظيفي حاجة إلى تلك الصورة من صور التقدم السياسي البطيء، ما دام التقدم الاجتماعي يمضي في خطى عاجلة ولا يفى العمل الوظيفي بعائد عاجل ملموس، وإن كانت المؤثرات الجانبية والفوائد غير المرتقبة قد تكون أكثر قيمةً وأقوى تأثيراً من أى نجاح عاجل. وليس هناك من ينكر أن التعاون وإن عاقه نوع من الولاء

السياسى للوطن فى بعض المجالات الاجتماعية قد حقق تقدماً سريعاً فى إطار التوظيف. وقد تضافرت الجهود التى قامت بها القيادات التعليمية والعلمية والتى نمت متسقة مع الجهود التعاونية للاتجاهات والحلول الإقليمية والعالمية فى منطقة من المناطق وجذبت إليها اهتمام المناطق الأخرى، مع تجارب الهيئات والمجالس الدولية فى تشكيل سياسات تتجاوز الإطار القومى فأسهمت جميعاً فى تقدير الاتجاه التوظيفى وتشجيعه.

ومع كل ما قلناه فإن تجربة التعليم العالى كانت تحذيراً ونذيراً لفكرة التوظيف، فالتعليم العالى بوجه عام أبعد مدى وأوسع مجالاً من أن يكون مشكلة مفردة، والأداء التوظيفى بكل قروضه مما يتسق مع التعليم الزراعى، وبالذات هذا التعليم وتلك البحوث التى تتناول تنمية إنتاج الطعام. ولكن التعليم العالى يمد نطاقه ويرمى بظلاله الفسيحة على السياسة العامة، ويمس مسائل حساسة من الاهتمامات القومية، ومصالح الطبقة والمجتمع إذ إنه على صلة وثيقة بالحكومة ولا سيما فى العالم الثالث؛ ولذلك فإن تجاربه الناجحة تقوم على التعاون الدولى وتعمل على تقوية الاتجاه القومى كما تعمل على الحد منه. فالحكومات القومية بقراراتها الصارمة حفاظاً على مواردها النادرة لنفسها، تعكس قراراتها تلك على التعليم وتمسك بزمام السيطرة على كل جانب من جوانب الارتقاء بالتعليم، وتصر على دورها الحاسم فى تسيير الجامعات، وليس من اليسير أن تسمح الحكومات فى البلاد دون النامية بالتنازل عن

دورها في التعليم العالي للهيئات الدولية.

وأخيراً، فإن التعليم العالي يتأثر في كل بلد بثقافته وما هو بسلعة نادرة تغلف لتوزع من بلد لآخر. ومعاهد التعليم العالي في بلد من البلاد مردها واعتمادها على الحكومات والوزراء كل فيما يخصه. وفي بلد آخر، حيث تستقل المؤسسات التعليمية وتنفصل بذاتها، لا يتخرج فيها غير من تدعو الحاجة إليه من القوى البشرية، وفي بلاد غير هذه وتلك، يكون الدور الهام الذي تضطلع به المعاهد المستقلة للمهن الحرة معروفاً ومقرراً. وعندما نضع في الاعتبار تلك الاتجاهات العديدة للتعليم العالي مثلاً لنسق معين فإننا نمهد الطريق للأوهام وسوء الفهم .

والشيء العام في كل من هذه الأشياء البارزة أنها تستمد قدرتها جميعاً من علاقة التعليم العالي بالحكومة، بينما هما. التعليم العالي والحكومة، في الكثير من البلاد الصناعية، يستقل كل منهما عن الآخر، أما في بلدان العالم الثالث، فإن كليهما يتصلان اتصالاً وثيقاً بالجهد القومي لتحقيق التنمية القومية وقهر الفقر مما يقف عائقاً أمام دور الأداء الوظيفي، وإن كان لا يودي بأي صورة من الصور بحسنات التعاون الدولي في التعليم العالي. ومهما تكن العوائق أمام الأداء الوظيفي، فإنه خطوة فريدة نحو النظام العالمي الذي يسفر عن نفسه « وهو التشخيص الصحيح لكل خلل في المجتمع الدولي والوصفة الناجعة لإقامة عالم أبهى رواء » وما من صلة له بأي مذهب أو عقيدة جامدة فهو موصول بالحقيقة الحية في النظام العالمي للرفاه العام والنفع الدولي وقد أصبح الفكر الوظيفي سمة بارزة في كل ما يكتب عن العلاقات الدولية، وهو

اتجاه أكثر منه نظرية محبوبة مقننة وما كتابات المنظرين للتجاوز القومى من أمثال «جوزيف ناى» و «روبرت كيوهين» و «كارل دويتش» و «أ.ل. كلود» و «إرنست ب. هاس» و «ج. باتريك سويل» و «ليون ن. لندبرج» إلّاوها سماتها من الفكر الوظيفى، فالأداء الوظيفى يخوض فى التعاون وفى المشاركة، وفى حراثة الأرض، وفى السلام، «وهو الرباط الوثيق للطبيعة الأصلية لكافة العاملين فى بناء المجتمع العالمى... والمجتمع الدولى لا يستسيغ الألاعيب الملتوية، والاهتمام يتزايد بالتواصل بين الدول، واعتمادها بعضها على بعض، وقد غدا مصطلح «السياسة العالمية» و «الجماعة الدولية» أصلح من مصطلح السياسة الدولية، كما أن دور الحكومات يتلاشى سريعاً بطرق غير مباشرة، ليحل محله نوع من التواصل يلقى التأييد والتشجيع بوسائل عملية تتجاوز الحدود القومية».

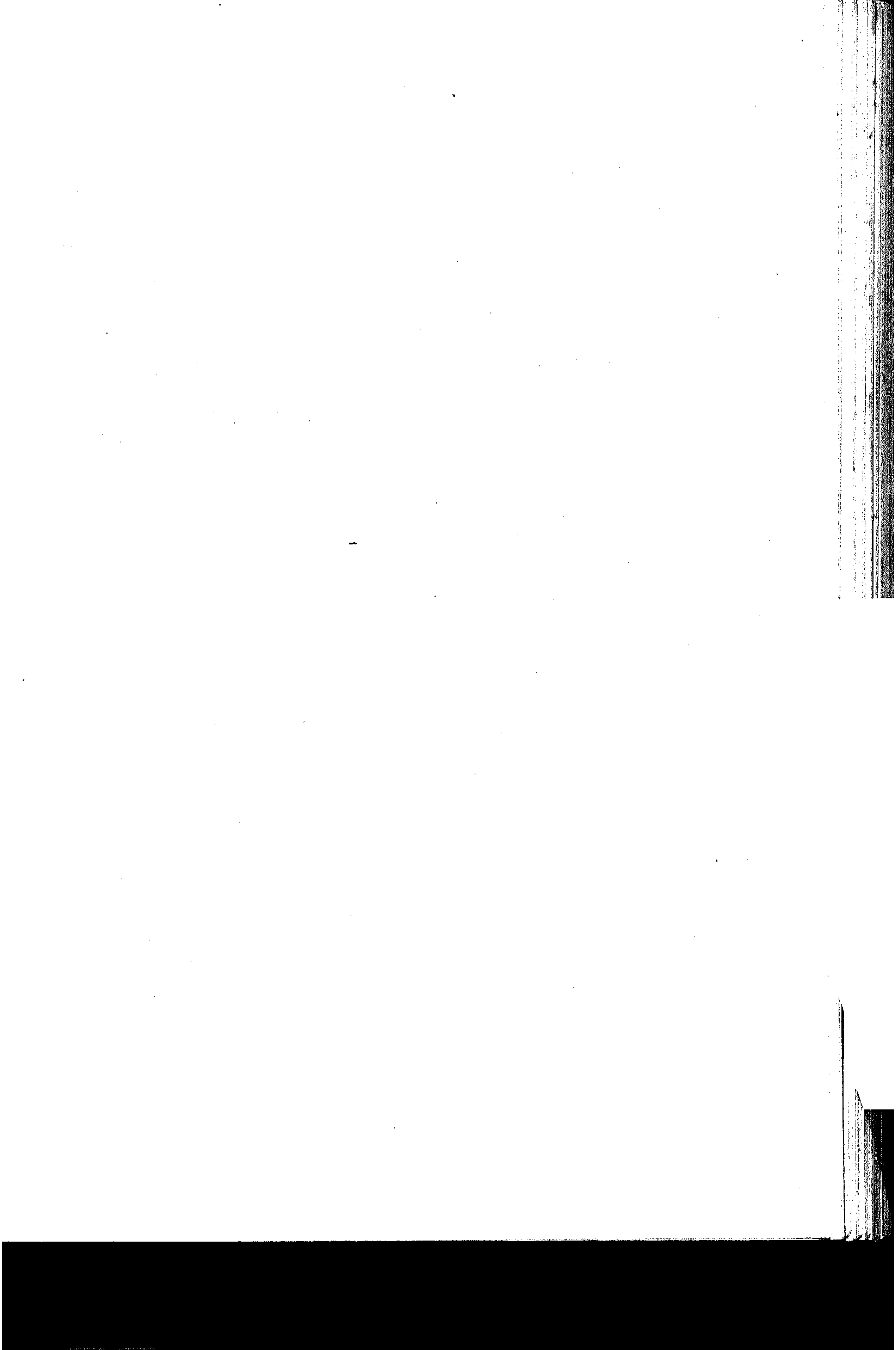
ويعد مؤلف ميثرانى «سبيل السلام الناجع»^(١) دراسة وافية محبوبة، كما كانت مؤلفات «ليونارد وولف» و «نورمان أنجل» و «روبرت سيسل» و «ج.د.ه. كول» وتتناول مؤلفاتهم التنمية الاقتصادية وقصور برامج الرفاه فى الدولة وأزمة الديمقراطية الفردية، كما تنادى بإنه إذا ما كان الاكتفاء الذاتى قد حقق السلام والاستقرار، القومى فهو كفى لتحقيق السلام الدولى إذا ما كان له مثيله من الجهد لسد حاجة البشر الاجتماعية والاقتصادية، فإذا كانت الأسرة تسلم أمورها للدولة، فإن على

الدولة أن تسلم أمورها للهيئات الدولية التي قامت لتواجه المطالب الاجتماعية والاقتصادية الملحة، والخبراء والفنيون أكثر استعداداً للاضطلاع بهذه المهام من تلك المجالس الشعبية المنتخبة. وقد أيد ميثاقى فكرة المجالس المتخصصة كمنظمة العمل الدولية والهيئة الاستشارية الأوروبية للفحم والصلب ومستشارى هيئة اليونسكو. وقد تم خلال القرن العشرين تنظيم المواصلات السلوكية واللاسلكية والهريد والتجارة الدولية فى الأنهار والطرق المائية على أسس عملية، وأصبح للوكالات المتخصصة للأمم المتحدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية استقلالها المادى، وكذلك المنظمات الإقليمية فى أوروبا والدول النامية، وكان أشدها إثارة وأثراً المنظمات الدولية غير الحكومية.

وبقى نجاح الأداء الوظيفى فى بناء السبيل الناجح للسلام ميداناً لدراسات متقدمة من النواحي النظرية والتاريخية والجانب العملى، وكان لميثاقى تأثيره البالغ فى الاهتمام بإنجازات المنظمات الدولية والوكالات الإقليمية الوظيفية، كما كان لنجاح هذه الوكالات فى الدول الصناعية ما اتخذ منهاجاً للأداء الوظيفى المشترك، وإن كان أثرها أبلغ وأقوى فى دول العالم الثالث فيما يتعلق بتطوير الأداء الوظيفى وتنميته «فحيثما كان التعاون فى العمل الوظيفى كانت له قدراته وعوائقه، فلم يكن التعاون الجزئى - كما قدر ميثاقى - ليجدى فى الحد من حمى السيادة القومية حين يواجه جهوداً مكثفة من العمل، فإذا تحكمت السيادة القومية كان أثرها بالغاً على الأداء الوظيفى. وتسفر عن سيطرتها على المنظمات ذات

العمل الوظيفى كاليونسكو، ولا يتسنى للأداء الوظيفى أن يتغلب على
الولاء القومى فحيثما امتدّ الميدان الأساسى للتعاون كان ردّ الفعل
القومى أشدّ وأقوى.

فالنظام العالمى ما زال بطيء الخطى، وما زالت المصالح
والاتجاهات القومية هى الصورة البارزة.



النظام العالمى
والواقع المشروع

شارل دى فيسكر

يعكس اتجاه شارل دى فيسكر نحو النظام العالمى والواقع المشروع تجربته الشخصية التى أسهم بها فى تطوير وتحليل القانون الدولى المعاصر وما وقع عليه من اعتداء بين كل حين وآخر، وعرف كمواطن بلجيكى حدوده وإمكانياته فقد تمسكت بلجيكا بدعوى الحياد الذى نالته بمقتضى معاهدة ١٨٣٩ التى حالت بينها وبين الاشتراك فى حريين عالميتين.. وكان لاستقلال بلجيكا الممتد أثره فى التأكيد إلى حدٍّ ما، على جدوى القانون الدولى، وكان مما يهم فرنسا وبريطانيا أن تحتفظ بلجيكا بحيادها.

وقد ولد شارل فيسكر فى الثانى من أغسطس عام ١٨٨٤، ودرس القانون وتخصص فى القانون الدولى العام والخاص، وعمل أستاذاً له فى جامعة لوفان وجنت، وكان كتابه الأول «وضع بلجيكا: دراسة قانونية»^(١) (١٩١٦) عرضاً لمشكلات حياد بلجيكا خلال الحرب العالمية الأولى، وقوام شهرته كمرجع فى القانون الدولى ومسائله الكبرى أكثر من ثمانين كتاباً قام بتأليفها، إلى جانب محاضراته السنوية فى أكاديمية لاهاي للقانون الدولى عام ١٩٢٣، ١٩٢٥، ١٩٢٩، ١٩٣٥ كما قام بنشر

Belgium's Case: A Judicial Enquiry.

(١)

أبحاثه في « مجلة القانون الدولى والتشريعات المقارنة » وفي « المجلة الأمريكية للقانون الدولى » وظفرت بحوثه بتقدير المحامين والمؤرخين وعلماء السياسة، وفلاسفة الأخلاق؛ وذلك لاتساع أفقه ونظرته الوافية. ومن قبيل ذلك ما كتبه عن القانون الدولى وقال فيه إنه ينمو ويتطور طالما اهتدى بالخلق الاجتماعى.

ونال فيسكر شهرةً بالغةً فاشترك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى الجهود التى بدأت لإعادة صياغة النظام الدولى، وشغل فى البداية بالوضع القانونى لعصبة الأمم، واختير عضواً ومقرراً للجنة تنقح الميثاق ولجنة وضع قواعد التسوية ونتيجةً لما أفرزته الحرب من القلق وعدم الاستقرار فقد أهمه الاستقرار وأصبح شغله الشاغل.

ويصور كتابه « الاستقرار الأوروبى »^(١) (١٩٢٤) تفكيره فى هذا الموضوع، فأخذ يؤكد قوة الواقع المشروع وإيمانه البالغ بالمستقبل. وأن عالماً أكثر صلاحاً يسير التحقيق، فرأى من واجبه أن يسهم فى أى جهد عام من المحتمل أن يؤدى إلى قيام الجماعة الدولية وظفر فيسكر فى أيامه الأخيرة بالمكانة والمنزلة العلمية التى حملت الجامعات التعليمية والمهنية على تكريمه، كما ظفر بالدكتوراة الفخرية من عدد من الجامعات من بينها جامعة ناتسى وجامعة مونبلييه، ورشح لعضوية الأكاديمية الملكية البلجيكية، وللاتحاد الأكاديمى الدولى، والمعهد الفرنسى، وأكاديمية مدريد لعلم الأخلاق، ومعهد العلوم السياسية والأخلاقية برومانيا. وكان له

The Stabilization of Europe.

(١)

دوره في أعمال محكمة العدل الدولية كمحام وقاض، وترافع أمامها في المسائل التي تتصل بأعمال اللجنة الأوربية للملاحة في الدانوب واللجنة الدولية للملاحة في نهر الأودر، وفي حق السفن الحربية البولندية في ميناء دانزج ومعاملة الرعايا البولنديين في دانزج والوضع القانوني لجرينلاند الشرقية وكان عضواً في لجنة التحكيم الخاصة بقناة كورفو، واختير قاضياً في محكمة العدل الدائمة (PCI) عام ١٩٣٧، ورشح في فترة ما بين الحربين للجنة الخبراء لتعديل القانون الدولي، وكان مندوباً عن بلجيكا في المؤتمر الأول لتعديله، وكان له من الخبرة العملية به ما كان له من معرفة علمية بما كتب عنه ونشر فيه.

وفي خلال الحرب العالمية تزعم دى فيستشر حركة المقاومة السياسية في بلجيكا وكانت على صلة دائمة بالحكومة البلجيكية في المنفى بلندن، واختاره مواطنوه عضواً بحكومة التحرير البلجيكية عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥، ومثل بلجيكا في عدد من المؤتمرات الدولية التي عقدت بعد الحرب مباشرة، كما اختارته بلجيكا للجنة القضاة التي اضطلعت بوضع مسودة قانون محكمة العدل الدولية، وحضر مولد الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو، ومثل بلجيكا في الدورة الأولى للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وفي فبراير ١٩٤٦ اختارته الجمعية العامة لمحكمة العدل الدولية لست سنوات تالية حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٢. بعد أن ترك بصماته على صفحة القانون الدولي، ووصل ما بينها وبين سابقته في عصبية

الأمم، وظلّ بعد تقاعده حفيّا بالقانون الدولي، معلّمًا، ومستشارًا، ومؤلفًا، وظهر له العديد من مقالاته في الكثير من المجلات واستمر يكتب حتى وفاته عام ١٩٧٣، ويعد كتابه «نظرية وحقيقة في القانون الدولي العام»^(١) أشهر كتبه على الإطلاق، وظهرت طبعته الأولى بالفرنسية عام ١٩٥٧ وأعيد طبعه أربع مرات كما ترجم إلى الإنجليزية، وبقي هذا الكتاب أعظم ما كتب حول نظرية العلاقات الدولية.

وفي مقدمة كتابه الكبير هذا، أعلن أنه يرمى إلى «إضفاء مزيد من القوة على سلطان القانون برده إلى القيم التي قام عليها، وتحريره، تمشيًا مع الحياة، من تلك الأنساق التي جردته من وظيفته الاجتماعية تحت رداء العلم والوحدة» فأخذ يعرض بمفاهيمه الباطلة تلك التي جاءت بها مدارس الفرديين والوضعيين، والإراديين التي جعلت من الدولة الفيصل الأخير للعدالة، فالوضعيون يعوزهم الاستقلال في الحكم على أعمال الدولة، في اعتمادهم على الفكر التاريخي المحدد - فالدولة - ليست على الدوام انعكاسًا دقيقًا للواقع، وقد تناول في الفصول الأولى من كتابه فكرة القانون الدولية منذ قيام العالم المسيحي، «إذ أن الفكر المسيحي قابع في ثنايا القانون الدولي» فقد كان هناك، حتى عند نشأة الدولة الأوربية ولدى جروتوس ذلك التفكير» عن المفهوم الأخلاقي الذي لا يقبل أن تكون قوّة الدولة الغاية الوحيدة للحياة» فالقانون الدولي يستمد سلطانه من وضعه الأخلاقي، ففي بواكير العصر المسيحي كان الطابع الإنساني يغلب

على الطابع القومى، وانتهى فى عرضه الأخير، بضرورة قيام القانون الدولى على أفكار معينة لها سلطانها على الطبيعة البشرية ومطالب الإنسان.

وقد اكتسبت الدولة طابعها الأخلاقى، بعد أن أصبحت قوة هائلة بتأثير نظريات توماس هونز وباروخ سبينوزا فأحلت القانون الطبيعى محل النزعة الإنسانية للعصور الوسطى، وإن زودها القانون الطبيعى بالحياة والقدرة من الناحية النظرية، ولكنه أخذ يبتعد وابتعد يوماً بعد الآخر عن الواقع العملى للحكومة ليصبح كل شىء بعد ذلك خاضعاً للسلطة. وقضت عقيدة السلطة المطلقة فى النهاية على نظرية الحرب العادلة» ثم جاءت الفلسفة الوضعية لتأخذ مكان القانون الطبيعى، فتعلن أن القانون هو القانون فحسب لأن السلطة هى التى وضعت.

«وقد جمدت الإرادة الوضعية تماماً وضائق خلال القرن التاسع عشر عندما غمرت الموجه القومية فطغت على كيان الدولة وسيادتها وقوتها.. إلا أنها أضفت على الدولة هذا النسق القوى عندما ضحت بفكرة النظام الوضعى لصالح النسق الشكلى الخالص لفكرة القانون الدولى، واستبعدت من القانون تلك الاعتبارات العليا للعقل والعدالة والمنفعة العامة التى يقوم عليها أصلاً»

ومع فكرة السيادة المطلقة للدولة برزت فكرة توازن القوى. وإن كانت ممارسة توازن القوى فى بعض الأحيان، فكرة مقبولة تسود عند

الاعتدال ولكنها لا تقيم نظاماً عالمياً حقيقياً « إذ إن التوازن كأي مفهوم آخر يقوم في الواقع على القوة وحدها، ولا يبدو على الإطلاق زيفاً أو خداعاً، فالفاهيم ليست دقيقة على الدوام. ما دامت القوة خيرة أو شريرة وفقاً لما تقوم من أجله ». وبدأ نظام توازن القوى أول ما قام في مؤتمر فيينا. وإن قام على أسس هادئة تدعمه نزعة القومية وقيام الثورة الصناعية حتى فقد آخر قواعده القانونية بقيام الحرب العالمية الأولى حين اشتدت المحالقات وفقدت الدول الصغرى الحماية. ولم يعد للنزعة الجماعية رباط. وبدأ هن الوضعية بقيام الحرب العالمية.

وكان رد الفعل ضد قانون الطبيعة الجامد القبيح أن ظفرت النظريات الوضعية بالحفاوة حين قدمت صورة عامة واضحة للعلاقات الدولية في حقبة حفلت بالاستقرار السياسي كان سمة للقرن التاسع عشر، وإن لم تتوار صورتها الواهنة حين تعارضت مع النزعة الإنسانية للقوة، ولم تتوافق مع الاتجاه الفردي للسلطة، حتى فقدت جذورها الأصلية لا شيء إلا إضفاء طابع علمي عليها وإن كان طابعاً شكلياً، فجمدت وأقفرت معالمها، وهو ما يفسر الفشل الذي واجهته.

وطرح دي فيسك بديلاً لهذا الخلل الأخلاقي والنظرة الباطلة للقانون الدولي نظرة هادفة لها مقوماتها الطبيعية لا تنكر حقيقة القوة وتقوم على الواقع فهذه الصلة بين النظرة الهادفة والواقع « تقوم على تحرر الواقع العقلي للمعايير، وتستعيد التلاحم بين الأداة المعيارية والحقائق الكامنة

فيها» فالقانون الدولي ليس فكرة جامدة ثابتة تعرضها حقبة تاريخية ولكنها فكرة حية متغيرة ومتطورة قابلة للنمو وتنظيم القوة خدمة للغايات الإنسانية.

«ومن قبيل الوهم أن نتوقع تنظيمًا لعلاقات الدولة الداخلية يضع نظامًا للجماعة، ولا يتسنى لها أن تضع قاعدة صلبة إلا عندما تنمو طبيعة الإنسان الدولية، وليس ما يعنينا أن نلجأ بالآلة إلى تلك الأصول التي تستند إليها القوة أكثر مما تعنينا طبيعة النظام بالنسبة لتصوير الوضع الحقيقي للقوة، ولا يحسم الأمر غير نزعة الدولة لتحديد إجراءاتها وفقاً للحدود المقررة لها تبعاً للمفهوم العملي الذي يقف بالقوة عند الغايات الإنسانية بدلاً من فرضها على المدى الذي تتسع له».

وبالرغم مما بدا من تحامله على السيادة القومية فقد كان يدلل في الواقع على أن تقدم الحياة الدولية لا يتم دون تقويض سيادة الدولة بصورة منظمة.

وأن علينا أن نعي ذلك، وأن تكون لدينا الشجاعة لنفصح عنه، وهو أن التحول عن الدولة إلى الحكمة الدولية لا يتم عن طريق اتساع المواقف الحكيمة الحاضرة للناس وامتدادها، إذ أن اقتسام القوة قد غرس مجموعة من الحكم من نوع خاص، وأن العلاقات التي انبثقت منها خلت من

أى إدراك للخير العام بعيداً عن القومية، ومن أى إحساس
بالمصير المشترك للبشر. وربما استطاع الإنسان بطريق
ما وبصورة أخرى أن يتلقى الحكمة التى تحمله على تأييد
الجماعة العالمية والتشيع لها.

وكان أقوى ما يؤكده دى قيسكر هو الفكرة القوية الناضجة التى
غابت عن أغلب الواقعيين فى إصرارهم على أن الفكرة مجردة من
القوة، وقد يقف هؤلاء الواقعيون دون الارتقاء المجدى فى تاريخ العالم.

«والجماعة الدولية نظام محتمل قائم فى عقول الناس : إنه
لايمثل أى نظام قائم فعال، قاصر عن إقامة جماعة قانونية
لعجزه عن السيطرة القانونية على استخدام القوة...
وحاجة الإنسان إلى القوة وحدها هى التى تمده بالحكمة
للعمل، ومردها إلى الإنسان حين يعى صورة الدولة،
بتنظيمها وإدارتها، وإلى الفرد وهو غايتها، حتى لنراها فى
صورة لا فردية وأن تجاوزت حدود الصالح العام للفرد،
والتبرير الأخلاقى والقانونى لطابع الإرغام فى القانون الدولى،
إذ أن فكرة الجماعة الدولية تنتمى إلى الانظمة العظيمة
والأفكار المتحضرة، وإن كانت بطيئة الأثر قابلة للإخفاق
فإنها بلا ريب قوى إيجابية تفرز متغيرات سياسية واجتماعية،
ولا يستطيع أى من الواقعيين الغلاة أن ينكر حقيقتها أو
قوتها، وهى رؤيا فى ذاتها لا تدين بطبيعة الإنسان الفعالة

وترى ألا فكاك من القانون، وأن طبيعته الأخلاقية تأبى
الثبات، وهذا هو ما يفرض نفسه بقوة في الواقع.

ومن ثم أصبح دى قيسكر في النهاية ذا نظرة، عملية في نظريته
للأشياء كما كان من أرياب المثالية التاريخية، فكتب عن الحاجة إلى
التمييز بين المسائل التي تخضع لولاية القانون الدولي وتلك التي تخضع
لسلطان القومية، وأخذ يحذر من القهر الذي وقع على القانون الدولي
في عصر القومية بداية من الثورة الفرنسية، وقد عرف ما ينجم عن
السيادة المطلقة من فوضى، فسيادة الدولة وما يتصل بها من نظائر لها
تقديراتها السياسية دون القانونية، والنظام الدولي المعاصر يعمل في إطار
من الكيانات الإقليمية، والمحامون الدوليون عليهم أن يدينوا بالإذعان
للسياسة وهو إذعان من العسير أن يتقبله رجل القانون، والمعاهدات
الدولية، لا تستطيع أن تتخطى السيادة القومية أو تتجنب تأثيرها القوى
وخاصة فيما يتصل بالمنازعات العسيرة على الحل. والالتجاء إلى القوة في
الوقت الحاضر دليل على قصور القانون الدولي، حتى أن قبول أعضاء
جديد في الأمم المتحدة لا يخضع للمستويات القانونية كما يخضع للعديد
من المصالح السياسية المتغيرة «ويجب أن يعزى تردى العمل القانوني في
الوقت الحاضر إلى الخلل الكامن فيه أو إلى عيوب الطريقة أكثر
منما يعزى إلى العوامل الخارجية لوضع سياسى صارم يعوق دور القانون
الدولي في العلاقات الدولية ويقوضه» ومن هذه العوامل هذا الاقتحام
المفاجئ لبلدان لها حضاراتها الغربية على أصول القانون الدولي وكذلك

كثافة التوتر السياسى ومداه، فالقانون لا يقوم فى أدنى ما يقوم عليه إلا على استقرار النظام الدولى، كما أن النظام فى فترة السلام هو المطلب الأول للجماعة الدولية، ودون هذا القدر من النظام تختل العدالة وتفقد جدواها ويستشهد دى فيسكىر بما قاله زميل قاض هو «ن. ليتيس» من أن «هناك من يفكر فى أن العدل يحقق السلام طالما كان هناك من يؤمن بأن العدل يقضى على الحروب، والعكس هو الصحيح، فحكم العدالة ضمان للسلام، إلا أن جواً مشحوناً بالانفعالات والصراع والمواقف العدائية، يجرّد القاضى من كل سلطة فسلحه الأول وهو القانون يفقد حيال القوة كل قيمته».

ويقف دى فيسكىر وحده بين المحامين الدوليين فى إدراكه للصلة القوية بين القانون ونظام السلام العالمى، ويقترّب بذلك من بترفيلد، ولييمان، ومورجنتو فيما كتبوه عن حاجة السلام للدبلوماسية، فالنظام العالمى كما يراه دى فيسكىر لا ينفصل أبداً عن معايير الأساسية ولا عن القوة أو السياسة، ومن ثم بقيت نظريات دى فيسكىر نظريات سديدة لعلاج المشكلات الدولية الملحة مما غاب عن الآخرين ممن كتبوا عن نظريات النظام العالمى، وإن كان دى فيسكىر قد ابتعد أحياناً عن الواقعيين السياسيين فى كثير من المناسبات الهامة، فقد كان عليهم أن يتفقوا معاً على أن عزلة القانون الدولى عن الظروف الاجتماعية والسياسية والأخلاقية خطأ كبير، «فالتمييز بين الفصائل الأخلاقية والقانونية وإن كان مقبولاً فى ذاته، وضرورياً فى جوانب كثيرة، فإن عليه أن يدنو من النقطة التى ينفصل فيها القانون تماماً عن التهويمات الأخلاقية الأولية» والزعم بأن الناس فى

حياتهم داخل جماعات قومية لصيقة أقرب إلى اعتناق الفكرة العالمية هو زعم باطل، أو كما يقول دى فيسكر:

«إن إثارة فكرة الجماعة الدولية، كما هى العادة، سريعاً ما تدنو بها تلك الإثارة من التائم، لأنها تفترض أن الناس حين ينغلقون على حياتهم القومية، يفتقرون دائماً إلى شيء ما هو روح الجماعة، والاقتراب الرصين من القيم التي تسمو على القيم القومية»

وثمة رأى آخر، وهو أن دى فيستشر والواقعيين يشتركون في تصور عام فصله دى فيسكر حين أكد: «أن مشكلة النظام المعيارى الأساسية قد أصبحت من الآن فصاعداً أقل من أن تكون حجة قانونية للإجراء الرسمي في إشهار القانون الدولي أكثر منها عقبة تقف دون سريانه» ومع أن فيسكر كان شديد الحساسية فيما يتصل بقيود القانون الدولي في الوقت الحاضر، كان أكثر من غيره من الواقعيين غيراً وحماساً لمحكمة العدل الدولية ولإقامة شبكة من المؤسسات الدولية تكون في خدمة الإنسان، وكان الواقعيون في ريبة من الاعتماد الكبير على الوقت ومن الحماس البالغ لإعادة صياغة المواثيق القانونية الدولية، والعمل على نشر المبادئ القانونية بينما تتحكم الوسائل غير القانونية في حل المنازعات، ولم تكن لهم أى ثقة في فعالية المحامين المهوشة وتأثيرهم على سياسة أمريكا الخارجية، فحملوا على اتجاههم لإقرار الأوضاع القائمة، ومن الأجدى كما يعتقدون وضع المواقف السياسية والاجتماعية موضع الاختبار لتجذب

انتباه الشعوب نحو الإجراء القانوني بدلاً من التسبيح بحمد التسويات
القانونية الرسمية التي تبدو في الغالب نكتاً لها أكثر مما هي حفاظاً عليها،
ويؤيد دى فيسكى هذا النقد ولكنه كان أكثر إصراراً على قيام نظام دولي
لصالح الإنسانية، حتى اختار في النهاية الدفاع عن موقف فكري آخر،
وغدا أقرب ما يكون إلى منظري النظام العالمي، ومثاليًا لا يتعلق بالأوهام.

الحضارة العالمية
وسياسة العالم

أرنولد ج. توينبي (١٨٨٩-١٩٧٥)

ولد أرنولد ج. توينبي بلندن في الرابع عشر من إبريل ١٨٨٩، وكان أبوه هاري توينبي أخصائياً اجتماعياً، وأمّه سارة مارشال توينبي من أوائل النساء اللواتي حصلن على درجة جامعية في بريطانيا، وقد دعى باسم عم له توفي في الثلاثين من عمره، وإن بقيت رسائله قواماً «لثورة الصناعية» (١٨٨٤)، وكتب ابن الأخ مقدمة الطبعة التي ظهرت منها عام ١٩٥٦ يقول فيها: «لقد سميت باسمه، فقد كنت أول طفل ذكر يولد للأسرة بعد وفاته عام ١٨٨٣ يحمل هذا الاسم»، وإن لم تواته الفرصة لمعرفة عمّه، إلا أنه اقتفى أثره في كلية باليول بأكسفورد، حيث كان عمّه أحد المشرفين على التعليم فيها. وورث عن عمه البساطة والنظرة الواعية لحجالي العظمة. وعندما توفي أرنولد ج. توينبي عدّت البساطة والودّ بعض شمائله، كما عرف بالتلقائية دون تصنع. فما كان يرفض الحديث أو النقاش مع من يريد، وقد أقيمت قاعة توينبي، مستقرّاً في لندن لطلاب الجامعة حيث يلعبون بكل شيء عن الفقر، تخليداً للذكرى توينبي الأكبر أما توينبي الأصغر فقد نشأ في

جُوَّ يغرى الطفولة بالقراءة عن الإغريق والرومان والاهتمام بحاجة الإنسان. وتلقى تعليمه بدايةً في ونشستر ثم انتقل إلى كلية باليول باكسفورد، وعلى النقيض من «ي. ه. كار» و«دافيد ميتزاني» ممن كانوا يصرون على معارضة الصفوة في سياسة بريطانيا الخارجية ويعتدون مساوئ الارث والحرمان، مضى توينبي في تعليمه وفقاً للطابع البريطاني الكلاسيكي ومساره في الحياة، فاستكمل دراسته في اليونان وتلقى تدريبه في المدرسة البريطانية للآثار بأثينا وبدأ يمعن التفكير في فناء الحضارات إلى جانب زيارته لآثار اليونان وكريت، وعندما رجع إلى بريطانيا عام ١٩١٢، عين معيداً للتاريخ القديم بكلية باليول، ثم استدعى للخدمة العسكرية في الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩١٩، واختير في إبريل ١٩١٨ للعمل بإدارة المخابرات السياسية بوزارة الخارجية، وكان عضواً في لجنة الشرق الأوسط في الوفد البريطاني لمؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩، ومرة أخرى في أعقاب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦ كان عضواً في الوفد البريطاني إلى مؤتمر السلام بباريس، وكان جديراً بهذا العمل لإلمامه بخمس لغات ولمعلوماته الوافية عن الشرق الأوسط، وفي الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٢٤ كان أستاذاً للدراسات البيزنطية واللغة اليونانية الحديثة والأدب والتاريخ بجامعة لندن، وفيما بين عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤٣ كان مديراً للبحوث الأجنبية والمطبوعات بالمعهد الملكي للشئون الخارجية ومن عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٤٦ كان مديراً لإدارة البحوث بوزارة الخارجية. وظلّ على صلاته القديمة بدارة تشاتهام (المعهد الملكي للشئون الخارجية)، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية شغل كرسي ستيفنسون لأستاذية التاريخ الدولي، ومديراً

للدراستات حتى تركها إلى التقاعد عام ١٩٥٥، وظفر بدرجات فخرية عديدة (أكسفورد، وبرمنجهام، وكولمبيا، وبرنستون) ورشح عام ١٩٦٨ عضواً مشاركاً بأكاديمية العلوم السياسية وفلسفة الأخلاق في معهد باريس، أما أثره الخالد «دراسة التاريخ» (١٩٣٤-١٩٦١) فقد نال شهرته أول الأمر في الولايات المتحدة، حين أغفلته «المجلة التاريخية الإنجليزية» فأخرت عرضه حتى عام ١٩٥٦، وقت أن حملت على التسلط الفكري لناشري موسوعة كمبردج للتاريخ الحديث، بسبب تحاملهم على التاريخ الكنسي (وقيل إن لجنة التأليف المشتركة لموسوعة كمبردج للتاريخ الحديث، قد عدت مغامرته تلك التي قام بها وحده في التأليف التاريخي جرأة هائلة)، أما المعلقون الأمريكيون ومنهم المعلق البارز «شارل أ. بيرد» فقد عرضوا المجلدات الثلاثة الأولى منه حال ظهورها عام ١٩٣٥ في المجلة التاريخية الأمريكية، وقال عنه معلق أمريكي آخر إنه عمل يثير السخط على أي نظرية تاريخية كتبت في إنجلترا منذ كتب كارل ماركس كتابه «رأس المال».

وهناك مسألة مزدوجة تواجه كل من يتتوى تقييم أو مناقشة الكتابة التاريخية : فعليه أولاً أن يتأكد من الموضوعية فيما كتب، والسبيل إلى ذلك أن يميز بين الكتابة التاريخية وفلسفة التاريخ، فالمؤرخون في العادة يتحرون الأحداث ويشرحونها، أما فلاسفة التاريخ فلإنهم عادةً ما يضطلعون بعمل إضافي، إذ يضعون أمامهم معرفة السبب الكامن وراء الأحداث عند وقوعها ويحاولون أن يسيروا غور المعاني ويقيموا

منهاجًا للتاريخ، ومن العسير وضع حدًا فاصل بين هذين الاتجاهين، وإن كان من المحتمل ألا يتفق المؤرخ من أى فصيل مع الفيلسوف فى كل ما يذهب إليه، مع أن ثيوسديد وأوجستين قد وضعاً منهاجاً للتاريخ وإن كان ثيوسديد قد اتخذ من التاريخ قصةً يرويها، ومن سمات المؤرخ أن تحكمه الدقة فيما ينقله عن الماضى، أما الفيلسوف فتحكمه جدوى النظرة التاريخية لمعرفة الحاضر وتفسيره. وهناك من فلاسفة التاريخ من أوقى الجراءة على رسم صورة للمستقبل وإن كانت تلك هى الغاية من فلسفات التاريخ جميعاً. ومع أن توينبى ظلّ ينكر باستمرار أى نزعة لديه للتكهن بالمستقبل، فإن المراجع والشواهد العديدة، والواقع البارز فى مؤلفه الكبير توحى بأنه كان يضع المستقبل نصب عينيه، وكان يطبق فلسفته على أحداث التاريخ، كما كتب عن الامتداد الزمنى الذى يدنو به النظرة العامة؛ ولهذا نعدّه مؤرخاً وندرجه بين فلاسفة التاريخ، وفلسفة التاريخ معان ثلاثة محتملة، فقد تردّد إلى المنهج التاريخى، وقد تركز على الميتافيزيقا أو إلى المنطق التاريخى، فأى فلسفة للتاريخ قد تكون ترديداً حرفياً للطريقة التى يتم بها تناول المسائل المحيرة فى التاريخ، وقد تكون تفسيراً لمعنى التاريخ أو تقريراً لأحكام التاريخ، ونقصر تطبيق ماقلناه على طريقة توينبى فى تناول التاريخ وسنرى أنها تم بطريقة غير مباشرة عن تصوره لمعنى التاريخ وأحكامه.

والتاريخ وفن دراسته فى رؤيا توينبى لا يعدوان كونهما توليفة غريبة من العلم والسرد الخيالى، وأكثر ماتقوم دراسة العلوم الاجتماعية وخطتها إما

بتناول الموضوع تناولاً منهجياً يخضع لخطوات علمية محددة مليئة بالشك والحذر وإما اتخذ صورة مخالفة ليلقى الضوء على بعض الأساطير العميقة أو حقيقة روحية من خلال الشعر أو الخرافة، وكانت الفكرة في ربط هذه الصياغة واستخدام بعضها في تعويض القصور في الأخرى غير شائعة، ولم يكن هناك من يستطيع أن يجارى توينبى في هذا الازدواج الأساسى، وبدلاً من هذا، عارضه التجريبيون ورجال العلوم الاجتماعية وأنكروا عليه نزعه الأسطورية بمثل ما أنكرها عليه أصحاب النزعة الإنسانية، وأصبح من الأهمية بمكان أن نتفحص تلك الصلة النسبية لكل منها كسندين متلازمين لمنهجه التاريخي.

ويبدو أن تمسك توينبى بالطريقة العلمية قد يضعه على الطريق التقليدي لكل من «هنرى ت. بكل» و«فيلفريدو باريتو» و«الزورث هنتجتون» وكان هناك قلة من الباحثين في حدة طبع «بكل» يبدون اهتماماً بقيام علم المجتمع والسلوك الإنسانى وكان توينبى يؤمن بأن أى ظاهرة اجتماعية يمكن عزلها ودراستها «عن طريق الملاحظة وهى من الكثرة بحيث تستطيع أن تقضى على أى اضطراب» وقد ألقت الإحصاءات «مزيداً من الضوء على دراسة الطبيعة الإنسانية» أكثر مما يقدمه أى ماض أو حاضر، وما من صورة من صور السلوك يمكن أن تند عن ذلك.

«فحين نؤدى عملاً فإننا نؤدى تبعاً لعامل ما أو عدة عوامل... وهذه العوامل لها مقدماتها... فإذا ألمنا بكل هذه المقدمات وبكل القوانين التى تحركها، فإننا نستطيع دون خطأ ما أن نتبين كل النتائج

التي تترتب عليها... فإذا ألمت، مثلاً، بطباع أي شخص عن قرب، فإنني أستطيع أن أعرف كيف يتصرف أمام ظروف معينة فإذا فشلت في ذلك فلا أعزو فشلي إلى غرابة أطواره أو تقلب هواه، ولا لإرادة عليا، فلا هذا ولا ذاك يمكن أن يقدم أدنى دليل أو برهان، وعلى أن أقنع بما أفترضه من قصور في الإلمام ببعض الظروف التي أحاطت به أو أنني لم أستوف دراسة ما يدور في خلده»

وإن كان باريثو أقل منه إلماماً بالقوانين والمبادئ الكونية، ولكنه لم يكن أقل منه إيماناً بأن الحقيقة لا يمكن اكتشافها أو الوصول إليها عن طريق البرهان العلمي أو التخمين، والميدان الوحيد للدراسة الحقّة هو ميدان الخبرة والملاحظة الجادة. على مستوى نستهديه من معنى الخبرة والملاحظة في العلوم الطبيعية كالفلك، والكيمياء وعلم وظائف الأعضاء وما إلى ذلك.

وهناك طريقتان، تقومان على أصول القانون العلمي بدرجات متفاوتة، فالعالم لا يعرض إلاّ لأسس بيّنة واضحة مقررة كل منها على حدة، ومن ثم يتناول العلاقات التي تربط بين هذه الأسس جميعاً، وقد عرض توينبي حضاراته بصورة واضحة منفصلة كل منها عن الأخرى في كل خطواتها على هذا الأساس فقال: «إنني في المنهج الذي اختطّه أطبق الفكرة العلمية «للقانون» و «الاطراد» و «التواتر» على التاريخ الإنساني لأكشف بالخبرة كيف تنتهي هذه النظرة إلى الأشياء في هذا

الميدان... وإننى لأرى أن تطبيق هذا الاتجاه العلمى على الشئون الإنسانية مثمر إلى حدّما، حيث تتأثر إلى حدّ كبير بالمحيط الطبيعى وبالجانب اللاشعورى القابع فى العقل، أكثر مما تتأثر بالإرادة والإدراك المتحكمين».

وقد استوحى توينبى بعض فكره الباكر من دراسة «ى. ا. فريمان» للتاريخ المقارن، واعترف فى كتابه «دراسة التاريخ» بأنه يدين بالكثير لكتاب فريمان «مقالات تاريخية» بعد أن قرأه فى صباه. ويرى أن فريمان هو صاحب الفضل فى تقرير دراسة المجتمعات كوحدات منفصلة متباينة ومقارنتها بعضها ببعض وهذه الطريقة المقارنة فى دراسة الأشباه والقرائن هى التى احتذاها توينبى وسار عليها، عندما أخذ يقابل بين طرق المشروعات الجارية والطرق المستخدمة فى الكتابة التاريخية.

«وبينما ينكر مؤرخونا الغربيون الدراسة المقارنة للحقائق التاريخية، فإن رجال المشروعات يمارسون طوال الوقت شئون حياتهم على أساس الدراسة المقارنة للحقائق التى تكتنف حياتهم، والسدليل على ذلك ما تلجأ إليه شركات التأمين من بيانات وإحصاءات تحليلية فى ممارسة نشاطها، ومن هذا القبيل أيضاً تلك المجموعات الإحصائية ومعدلاتها لمعرفة ما تم عنه من توقعات فى أى عمل يهدف إلى الربح.... وتلك محاولة، علينا ألا نتردّد فى اتّباعها جرياً على ما يراه سادة هذا العصر الأخير»

ويرى توينبى أن مجرى التاريخ يخضع لعلاقة الإنسان بمحيطه

الجغرافى كما يخضع لشخصه، فتأثير الجغرافيا على التاريخ هو الموضوع الأساسى للدراسة العلمية صحيحة أم كاذبة. وفى هذا يعترف توينبى بتبعيته للتقليد الذى سار عليه «الزورث هنتجتون» وقد ذكره «بأنه أحد دارسينا المميزين من ذوى العقول الأصيلة المفتحة» وقد أثارت مثل هذه البيانات الشكوك حول من هو الدارس ومن هو الأستاذ؛ إذ نرى توينبى يقرر مثلاً «أن دورة الفصول تحكم الحياة طالما أنها تتحكم فى موارد الطعام». وإن بدا منذ بكل إلى هنتجتون حتى توينبى ما يؤكد قوة العامل الجغرافى باعتباره العامل الحاسم. إلا أن هؤلاء الدارسين الثلاثة يشتركون جميعاً فى الاعتقاد بأن المحيط الطبيعى للإنسان يلعب دوراً دائماً ومستمراً بصورة ثقل أو تعظم فى تقرير مصيره، وهو ما يشغل المؤرخ بدراسته، ويعود توينبى أولاً إلى الأسلوب العلمى الذى يصل ما بين تقدم المجتمع ومحيطه الجغرافى، ويحاول أن يبحث عما إذا كان هناك عامل جغرافى مشترك بين المجتمعات تتسم به صور التقدم أو الانحلال.

وسرعان ما نذت هذه المحاولة بسؤال آخر عما إذا كانت العوامل الجغرافية بالذات، أم العناصر القياسية للتكهن عامة هى التى تستطيع أن تفصح تماماً عن الطبيعة البشرية أو عن نشأة المجتمع أو تقدمه أو فناءه، وقد حذر «موريس كوهين» مرةً من ذلك فقال:

«إذا قلنا إن المحيط هو العامل الحاسم فى شىء ما، فإنه كالقول تماماً بأننا إذا أردنا أن نفسر شيئاً فإن علينا أن نرى صلاته بأشياء، وهو

ما يصل بنا إلى لغو لا يرد، والحقيقة البارزة هي أن محيط الكائن الإنساني، وفحوى ما يقوم به، إنما يقوم في الواقع على عناصر إنسانية وأخرى غير إنسانية تتشابه بصورة معقدة، وكل ما نستطيع أن ندركه هو أن أحداث التاريخ الإنساني إنما تقوم على جانبين متواصلين من المادة والفكر، فلا نستطيع أن نتجنب تلك الأخطاء الكبرى التي يقع فيها أولئك الذين يجردون العالم من الفكر أو أولئك الذين يتخذون من الهواء والنار والماء أساساً لتفسير الظاهرة الإنسانية»

وفي هذا المجرى، يرى توينبي أن الأفكار والأساطير كغيرها من العوامل الحسية هي جميعاً بعض ما يستعين به المؤرخ، وقد اتخذ من الأسطورة عن يقين وإصرار أداةً للتحقيق العلمي ومؤشراً يهتدى به العقل إلى الطريق السوي. ولم يكن العامل الجغرافي أثيراً لديه إلى هذا الحد، أما الاتجاه العلمي الذي اتخذ منه بعض الكتاب فلسفةً ودينًا مارقاً، فقد عدّه شيئاً نافعاً ولكن تنقصه الحكمة الفنية، وجعل منه موضوعاً للبحث، فقال: «ألا نرتكب إثماً إذا ما جعلنا من الفكرة التاريخية التي تتناول حياة المخلوقات، منهجاً علمياً للفكر، هذا المنهج العلمي الذي قام أصلاً لدراسة الطبيعة الجامدة؟... فلنغض النظر تواء، عن القانون العلمي ولنفتح آذاننا لنسمع لغة الأساطير.

أما أثر توينبي الحاسم والذي يبدو من ثنايا مؤلفه «دراسة التاريخ» وتغلغل به منذ وقت مبكر في ثنايا الاشتراكية الإنجيلية المسيحية، فإنه يسفر عن نفسه على الدوام. وقد تمثل في صباه الباكر أفكار «سير فردريك

موريس» و «شارل كنجسلى» و «كانون بارنيت» وعمّه «أرنولد توينبى»
وحميه «جلبرت مورى» وصاغوا جميعاً ضميره الاجتماعى إلا أن الزاد
الأصيل لفرديته واستقلاله الفكرى فقد استمدّه من تأثره بهنرى
برجسون، فقد رفعت كتاباته إلى ذروة الإلهام الروحى. أما فكره الخلاق
ونظريته المتفتحة فقد شابتها فلسفته للتاريخ وامتزجتا بينائها. وأما إصراره
على التواتر وعدم الاستمرار والسببية فى محيط من القيم المتغيرة. والعقل
والبداهة كتوأمين متلازمين فى بناء الحقيقة فكانتا عنصراً جديداً سيطر
على نزعتة التاريخية أخيراً؛ ولهذا أصبح مؤلفه على أقل تقدير ملحمة
رائعة فى علم المجتمع، فالنبض الحى نفحة من روح الله فى الإنسان بينما
يقف الشيطان حياله. ويمضى الصراع بين هاتين القوتين الأسطورتين
للسيطرة على مصير البشر والتحكم فيهم. ليكونا قوتين متصارعتين فى
عقل الإنسان وفى دنياه هذه الصغيرة، وفى هذا الصراع الدرامى لابد
وأن تكون الغلبة لله، وإن بقى هذا العدو الأبد فى إصراره العنيف يلح
بالسوء والشر بما لا يرضاه الكمال الإلهى. وتلك هى مأساة العالم.
لانتقصاتها ولا نمنع النظر فيها عن طريق التجارب العملية، وإنما نراها
فى أفئدة الناس وفى علاقاتهم الاجتماعية.

ولا يعنى عنصر الأسطورة والخرافة هذا أن توينبى قد فشل فى
استقصائه العلمى، فإن ما ينشده كبار المؤرخين هو إعادة بناء الماضى
على أساس علمى ولكنه لا ينكر التخيل فى الاستقراء والصياغة،
والحقيقة هى التى ينشدها كل راء، لا بصورة تلقائية، ولكنه ينشدها

عن طريق العديد من الفروض والتوقعات، «فالسيد توينبي - كما يقول مؤرخ بريطانيا الكبير «ه. ا. ل. فيشر» لم يحصر نفسه تمامًا مع الوقائع، وأخصب ما يسفر به فكره التاريخي مقارناته الواعية... وإنه لم يعرف عنه التحيف أبدًا» ويقول الباحث الإنجليزي «ج.م. تريفلان» : «إن الحقيقة هي معيار البحث التاريخي وإن كانت الشاعرية هي التي تثيره والشعر هو محتوى الحقيقة، وفيه تتوأكب النظرتان العلمية والأدبية للتاريخ». وقد وضع «جاكوب بوركهارت» بطريقته العلمية في دراسة التاريخ هذين العنصرين عنصر الحقيقة، وعنصر الخيال معًا أمامه في نظريته للتاريخ «فغاية التاريخ أن يسفر عن هاتين الصورتين المتوائمتين في تميزهما وتشابههما، بدايةً من الحقيقة التي يكسوها أول ما يكسوها الخيال في أي ميدان يتجلى فيه. فهذا الخيال له صورته التاريخية التي يبدو في ظلها وكأنه متغير. أو أمر عارض، أو وهلة عابرة هي جزء من كل فسيح لا نستطيع أن نتكهنه. كما أن لكل حدث إطاره الخيالي الذي يشترك معه في فحواه» وإن كان هناك ما يمكن أن نعزوه إلى الخيال والأخلاق كعاملين لهما مكانهما في التاريخ، هذا عدا ما نضيفه من أهمية على تلك الأبعاد التي تعمى وتلوث المدركات المادية والعوامل البدنية إلا أن هناك من يدين الخيال التاريخي ويحمل عليه لأنه لا يجب أن يواجه المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعيش فيها الناس بعيدين عن حياتهم المادية المعتادة.

وكان لتوينبي صلته العميقة بالأدب الكلاسيكية، وألم بالإنجيل كما يلم به أي لاهوتي على الأقل، واستوعب آراء «سان جون»

و«جوهان فون جيتي» و«وليم بليك» واستعان بها كما لو كانت آراءه، هذا إلى ما كان لأزقلد شبنجلر من أثر في تمهيد الطريق لدراسة الحياة التاريخية لشتى المجتمعات، وإن كان توينبي قد بدأ أبحاثه، إلا أن قراءته لشبنجلر قد زودته من الناحية الإيجابية بالثقة في صحة ما يراه، ومن الناحية السلبية بأهمية الخطوات التجريبية، وفي كلا الجانبين كان لشبنجلر تأثيره على منهج توينبي، وقد حاول كلٌّ من الرجلين أن يضع قوانين للتاريخ تسرى على كل المجتمعات، فإذا اختلفا فإن خلافهما لا يتعدى طبيعة هذه القوانين، فشبنجلر يراها قوانين حاسمة لا ترد ولا تنقض بينما يراها توينبي دون ذلك حسماً، وزعم كلاهما أن هناك عنصراً من الابتكار في سلوك الناس لا يدع للعلمية الخالصة مجالاً عملياً ويلاحظ شبنجلر «أن هناك بوناً شاسعاً من التباين بين الإنسان وغيره من أنواع الحيوان... فحياة الإنسان واعية، متحركة متغيرة، وشخصية فضلاً عن أنها ابتكارية، يتعلمها الإنسان وينميها فالإنسان هو الذي يبدع طريقته في الحياة، وفيها مجده وفيها هلاكه، وجوهر هذا الإبداع هو ما ندعوه بالثقافة.»

ولا تغفل ذكر عالين لها شهرتهما الواسعة قد يكون لهما بعض الأثر على منهج توينبي فنظريته عن التحدي والاستجابة لها دلالتها المهمة في مؤلف «وينوود ريد» - استشهاد الإنسان^(١) - (١٨٧٢) وما دعاه توينبي «إثارة البلدان الجامدة» دعاه ريد «صراع الحياة البسيطة ضدّ

قسوة الطبيعة بدت معالمة الأولى ففما بذله كهان مصر القديمة من جهد عقلى؁ كما بدت فى صورة أخرى عند قبائل الصحراء فزودتهم بالحيوية التى خلقت منهم محاربين أشداء لمواجهة غوائل الصحراء. « كما بدت الصورة الداخلية والخارجية للبروليتاريا بارزة فى الفصل الأخير من «تارىخ العالم القديم»^(١) (١٩٢٧) للمؤرخ الروسى الكبير «ميشيل أ. روستو قترف» وقد اعترف توينبى فى لقاء خاص بما يدين به لروستو قترف؁ وإن أضاف أنه أخذ نظريته فى التحدى والاستجابة عن الشاعر «روبرت بروننج» كما قال إن فكر «آن روبرت جاك ترجوت» كما بدت فى كتابات «فردريش تيجارت» قد شدته إليها؛ ولهذا كان الأثر الثنائى لرجال العلوم الاجتماعية والإنسانية عليه؁ وكان منهاجه فى كتابه التاريخ يتم عن هذين الاتجاهين معاً بدلائل لا تخطئ.

ومن اليسير أن نتبين هؤلاء الذين سبقوه إلى هذا الاتجاه؁ وأكثر مما هو يسير أن نحلل منهاجه التاريخى تحليلاً مقنناً؛ إذ أن منهاجه قد تغير خلال ثلاث فترات متميزة من حياته ويسفر هذا التغير فى الإصرار وفى المراجع عن قدرته على وضع نظرية وأن يتابع مجراها ويكشف عنه من خلال المحاولة والخطأ حتى يغيرها إلى ما هو أحسن منها؁ كما يتضمن هذا التغير مفهومه التاريخى للحضارات كملحمة من ملاحم البطولة الإنسانية؁ حتى أخذ الفكر الدينى يزحف عليه فى النهاية.

التركية» ورجع أخير ليقول على نفس الوتيرة إن الحضارات تبرز من تلك الخلقة الكامنة في تلافيف الديانات الكبرى.

أما الأمثلة على الإيمان الواهي بتقدم بورجوازي من خلال القومية الإنسانية فقد تناولها التعديل هي الأخرى بصور عديدة فقد أعلن في البداية إيمانه العميق بصورة من صور السلطة الدولية، فأوروبا الشرقية بمشاكلها العديدة في حاجة إلى زولقرين بلقاني، والثقافة ليست ملكاً للغة واحدة، ولكنها ميراث شعب، وإن نمت تلك الأمثلة عن اتجاهه أخيراً إلى «العالمية» فقد كانت فلسفة مثالية للعلاقات الدولية أكثر منها إنكاراً لوضع الشعوب كوحدات تاريخية، وإن كان قد عدّ الحرب العالمية الأولى في الواقع حدثاً عارضاً، ليس له من أثر إلا أن عاق لفترة ما تقدّم أوروبا نحو نظام دولي خال من الحروب، وبدأ في تلك المرحلة من الدلائل ما ينم على صحة تفكيره المثالي والقومي، فغدت الدولة القومية في أوروبا معيار المجتمع المتحضر، وأنها تسفر عن «قدرة بالغة على النمو العضوي» وقد جاء في الجملة الأخيرة من كتابه «القومية والحرب» (١٩١٥) ما يشير إلى احتمال تغير تلك الرؤيا، فإن الشعوب إذا بقيت مقيدة ومحصورة داخل دولة ضيقة تكافح في سبيل وجودها وبقائها، فإن مصيرها لن يكون أكثر مما كان مصير دولة المدينة اليونانية، وكان ذلك هو الطابع الذي غلب على كتابته التاريخية في صباه حين كان في الخامسة والعشرين من عمره.

حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى قضت على نظريته تلك

التركية» ورجع أخير ليقول على نفس الوتيرة إن الحضارات تبرز من تلك الخليّة الكامنة في تلافيف الديانات الكبرى.

أما الأمثلة على الإيمان الواهى بتقدم بورجوازي من خلال القومية الإنسانية فقد تناولها التعديل هى الأخرى بصور عديدة فقد أعلن في البداية إيمانه العميق بصورة من صور السلطة الدولية، فأوروبا الشرقية بمشاكلها العديدة فى حاجة إلى زولقشرين بلقانى، والشقافة ليست ملكاً للغة واحدة، ولكنها ميراث شعب، وإن نمت تلك الأمثلة عن اتجاهه أخيراً إلى «العالمية» فقد كانت فلسفةً مثاليةً للعلاقات الدولية أكثر منها إنكاراً لوضع الشعوب كوحداث تاريخية، وإن كان قد عدّ الحرب العالمية الأولى فى الواقع حدثاً عارضاً، ليس له من أثر إلا أن عاق لفترة ما تقدّم أوروبا نحو نظام دولى خال من الحروب، وبدأ فى تلك المرحلة من الدلائل ما ينم على صحّة تفكيره المثالى والقومى، فغدت الدولة القومية فى أوروبا معيار المجتمع المتحضر، وأنها تسفر عن «قدرة بالغة على النمو العضوى» وقد جاء فى الجملة الأخيرة من كتابه «القومية والحرب» (١٩١٥) ما يشير إلى احتمال تغير تلك الرؤيا، فإن الشعوب إذا بقيت مقيدةً ومحصورةً داخل دولة ضيقة تكافح فى سبيل وجودها وبقائها، فإن مصيرها لن يكون أكثر مما كان مصير دولة المدينة اليونانية، وكان ذلك هو الطابع الذى غلب على كتابته التاريخية فى صباه حين كان فى الخامسة والعشرين من عمره.

حتى إذا كانت الحرب العالمية الأولى قضت على نظريته تلك

ومزقتها إرباً، فأوهام البورجوازية عن التقدّم الإنساني نادراً ما تقف صامدةً أمام القسوة والعنف الباديين في بشاعة الإنسان. وخلال خمس سنوات غاص توينبي في الدعاية وأعمال المخابرات الحكومية، وكلّف بمتابعة وصياغة التقارير عما ترتكبه ألمانيا من فظائع، ولم تكن هذه التقارير الكالحة. مما يتناسب مع كتابة مؤرخ فطن. حتى أنه أدلى بعد نهاية الحرب بقوله هذا: «تبدو الفظائع وكأنها غريزة وحشية كامنة في حنايا البشر لتسفر عن نفسها وتنشط تحت ظروف معينة، وتصبح غايةً في القوة حين تمتدّ بها الحدة والضراوة لتجرف معها أكثر الناس تحضراً» كما أخذ يسجل هواجسه حول الدولة القومية كمقياس لطبيعة الأشياء، وما من حضارة معروفة غير حضارته قامت على أساس اللغة، وقد أدّت هذه الصفة إلى إراقة الدماء ووقوع الكثير من المذابح في الشرقين الأدنى والأوسط، وبلغت ذروتها في المذابح الجماعية وفي المساعي الطائشة بعد التماثل والاتساق.

وثمة انفعال آخر يسيطر على ضمير توينبي خلال تلك الأزمة ففي ربيع ١٩١٨ عندما بدأ الهجوم الألماني الأخير بقيادة «أريك لودندورف» اجتاح توينبي نوع من القلق البالغ وكان قد قام برحلة لمدة تسعة شهور بعد أن حصل على درجته العلمية مباشرة عام ١٩١١-١٩١٢ طاف فيها باليونان وكريت، واجتاحه نوع من الأسى بقى قابلاً في ذهنه ففي كنف الرؤى الشاحبة للحضارة المينية في كريت نزل في بيت ريفي مهجور يملكه رجل من فينيسيا، وأخذ يمعن النظر في أطلال حضارة قرنين

ونصف القرن من الزمان، وتخيّل هؤلاء القادمين من بريطانيا يتكأون حول أطلالها، وقفزت إلى خاطره تلك الذكرى لمستوطنة رجل من فينيسيا في قلب كريت بقيت قائمة لأربعة قرون ونصف القرن أطول مما قامت خلاله أى مستعمرة بريطانية، وجاءه هذا النذير المشؤم بالهجوم الألماني الذي يمكن أن يكون ضربة قاضية للغرب، فأخذ يعيد قراءة ثيوسديد ولوكريتوس بما فيها رأى لوكريتوس الخالد الكتيب في الطريقة التي يواجه بها الإنسان الموت، وبقيت هذه التفاصيل الكثيرة لمآسى حرب البلوبونيز وحروب هانيبال، وللكوارث البشعة القاسية التي كان يقرأ عنها وأخذ يرويها وتأمل طبيعة تلك الحضارات البائدة، تحديق به وتتسلط على فكره خلال رحلته في البلقان. وكانت تلك هى العناصر الثلاثة التي قدّر لها أن تتألف وتتجمع في كثير من التوافق والمرونة لتزود توينبي بوعاء جديد للتاريخ.

وقد بدأت المرحلة أو الحقبة الثانية لمنهج توينبي التاريخي عام ١٩٢٢، عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره، وبدأ يعدّ الخطوط الأساسية لكتابه «دراسة التاريخ» وهو مؤلف يبلغ أضعاف حجم كتاب إدوارد جيبون، الضخم في تاريخ روما، واستوعب كلّ جهد توينبي العقلي وحيويته، وأكبرهته سنوات الحرب على رؤيا أخذت تسيطر عليه وتحيط بكلّ مرائيه التاريخية، وبدأ ذلك في صورة بيئة حين وجه طلابه إلى دراسة الأدب الإنساني في محاضرة له بأكسفورد عام ١٩١٩ وفي العام الأول لاشتغاله بالتعليم بجامعة لندن في أعقاب الحرب، وكانت

محاضرته عرضاً مركزاً لنظريته الجديدة للتاريخ، فلم تعد الدولة القومية الوحدة الأولى للدراسة إذ أن شرح الحضارة هو في عرضها تفصيلاً - كعرض الهيلينية أو عرض حضارتنا الغربية - فهو السبيل الأمثل لتعليم صالح. « فالمجتمع الغربي - كما زعم أخيراً - وحدة أكثر تقارباً وأكثر دواماً من... الدولة المستقلة التي تذوب وتتحلل داخل حدودها » وعندما بدّل بالقوميّات الحضارات بدأ توينبي بدعته الثانية. فكيف يتسنى لهذه الوحدات الكبرى أن ترتد إلى أصولها وتتحلل؛ ويتفق توينبي مع شبنجلر على إجابة واحدة، وإن لم يكن توينبي قد عرف ما كتبه شبنجلر بعد وهو أن تاريخ الحضارات يجب أن يصنف ويقارن ويعمم في الإطار « الميرفولوجي » للتاريخ فالحضارات تجتاز مراحل حاسمة من التقدم والانحلال ولشرح هذه المراحل، يمكن أن نعدّها « كيانات عضوية » ففي هذا الإطار المحدّد، يتيسّر شرح دورة الحياة في المجتمع كما لو كانت كائناً بشرياً.

وينفس النظرة، يعرض توينبي لأنماط الحضارات في الصورة المجازية الثانية في هذه الدراما أو المأساة « فالحضارات الكبرى... قد تحمل جميعاً نفس الطابع، إذا ما تيسر لنا تحليلها تحليلاً صحيحاً » وهذا الطابع بمشاهدته الثلاثة : النمو والتقدم، فالأزمات والانهيار وصحوة الموت، ثم التحلل الأخير، وهي التي يلتزم المؤرخ العالمى بدراستها، وكانت الحضارة الإغريقية الرومانية هي المثل الذي احتذاه توينبي وأفسح بحثه لتفاصيل انهيارها، وقد رأى أن لحظة التحلل الأخلاقي والانهيار قد بدأت بالحرب البلوونيزية عام ٤٣١ ق.م.

وعلينا أن نعرض للمرحلة الثالثة أو الصياغة الأخيرة، فبعد أن
اختار الحضارات موضوعاً، وراض تاريخها في أطرافها الثلاثة، أو
«مشاهدها» الدرامية، يعرض توينبي مشكلةً منهجيةً تتصل بالعلاقات
بين هذه الوحدات أو المجتمعات، فهناك مسائل في التاريخ تضع رؤيتها
إذا ما وقف بعرضها على ما فيها من تفرد فحسب، أو كما يقول
شبنجلر «جوهر الثقافة» في كل حضارة وحدها، أما أكثر المشكلات
الماثلة في التاريخ كما يراها توينبي - فإنها تقوم على الالتقاء والتناقض
الذين يلدان حضارة جديدة. أما التناقض الماثل اليوم بين حضارة
الغرب وغيرها من حضارات العالم فليس شيئاً جديداً أو فريداً في
ذاته، وإنما بالأحرى لدليل بارز على تكرار الظاهرة التاريخية ومن السير
التعرف عليها عن طريق المقارنة، فمن دراسة التناقضات بين الحضارات
التاريخية يمكن طرح «القوانين» التي تتصل بالالتقاء الثقافي، ومن
القوانين التي جاء بها توينبي ما يذكر على طبيعة هذه العلاقات أمام أي
مقاومة لمجتمع معاد، فإذا تصادمت حضارتان، فإن ثقافة الجانب الغالب
تتحلل إلى عناصرها الأولية، كما يتحلل الضوء إلى أطيافه في انعكاسه
على منشور، وإن كانت العناصر الضئيلة التي لا تتسبب في خلل عنيف
مباشر لتقاليد المجتمع الذي يقع عليه التهديد أقوى على الشروع
والانتشار، ويوضح ذلك الغارتان المتتاليتان للحضارة الغربية على الصين
واليابان، ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر رفض الشرق الأقصى
محاولةً لإدخال أسلوب الحياة الغربي، بمافيه الدين، ولكنه يستسلم في
القرن التاسع عشر لقوة تكنولوجيا تافهة، وتقبل الشرق الأقصى

التكنولوجيا في الوقت الذي أبقى فيه على معالم حياته الأصيلة.

ويؤدى تحلل الثقافة إلى عناصرها الأولية إلى صور تتواتر للتناقض بين الحضارات. وما من محفل أو ظاهرة اجتماعية لها كيانها العضوى في الهيكل الثقافى العام. إلا وتسنى لها إذا ما تحللت من كيانها الأصيل كاشعاع ثقافى أن تهدد أو تقوض المجتمع الذى يتعرض للهجوم؛ ولهذا فإن الدولة القومية التى قامت على أساس اللغة المشتركة في غرب أوربا كانت أقل عرضة للانفجار، أما في شرق أوربا، وجنوب غرب آسيا، والهند والملايو فإن الخريطة اللغوية لم تكن على الدوام عوناً منطقيًا للإطار السياسى. وكانت الدولة القومية على الدوام قوة ممزقة. فبقوام القومية الحديثة حيث تتواءم الوحدات اللغوية وتتجانس، هو في الغالب قوام المجتمعات غير الأوربية، حيث غدت فكرة القومية غامضة مهمة غير مستقرة إن لم تكن نائرة تقوم على الإرغام.

وقد مرّ منهج توينبى التاريخى بتغيرات جذرية منذ ١٩١٤-١٩١٥، أما التغير الكبير فقد بدأ لديه عام ١٩٣٩، وبدأ واضحًا في الفترة الثالثة في تطور منهجه التاريخى، وفي الخمسين من عمره تحوّل بأبحاثه عن الحضارات إلى الأديان الكبرى، ولم يكن الدين لديه قبل ذلك غير وسيلة لغاية، وأداة لبعث الحضارات وتخليدها وهناك نبذة في المجلدين الرابع والسادس من دراسة التاريخ لها دلالتها غير المألوفة، هى :

«عندما نضع الكنائس العالمية موضع البحث نجد أنفسنا أمام سؤال يراودنا، عما إذا كان للكنائس دورها البارز حقًا

في الهيكل العام لتاريخ الحضارات تسفر من خلاله عن بداية ظهورها التاريخي، أم أن علينا ألا نعدّها مثلاً لنوعية أخرى في المجتمع، تتميز على الأقل عن نوعية الحضارات، كما تتميز تلك الحضارات عن المجتمعات البدائية فلعل ذلك يهديننا إلى سؤال هام... تقدمه لنا دراسة التاريخ»

وقد انتقل توينبي من تاريخ الشعوب إلى تاريخ الحضارات ثم الأديان الكبرى بصورة وإن بدت غريبة إلا أنها واعية، وكان هذا الانتقال في رؤيته التاريخية هو الأساس في التغير العميق لتفسيره للتاريخ وللأدوات والأساليب التي يستخدمها. وقد لخص هذا التغير وعواقبه على الصورة التالية :

«تتركز نظرتنا للتاريخ الحديث على الاهتمام بقيام حضارتنا الغربية العلمانية الحديثة بوصفها آخر الأحداث العالمية الجديدة، وحين نتابع قيامها منذ بدت ملاحظها في عبقرية فردريك الشاف، آل هو هنشتاوفن، ثم في عصر النهضة حتى فورة الديمقراطية والعلم والأساليب الفنية العلمية الحديثة، نظن أنها أعظم حدث طارئ في عالمنا يستحق اهتمامنا ويوجب فخرنا واعتزازنا، فإذا تسنى، لنا، بدلاً من ذلك، أن نتمعننا كتكرار عابث للأمميين من قبل أو صورة مكررة لا معنى لها لما قام به اليونان والرومان قبلنا، وقاموا به على خير وجه، فإن هذا الحدث العظيم الذي جدّ أخيراً

في تاريخ البشرية، تتغير صورته في أذهاننا، ويبدو لنا حينئذ
أن هذا الحدث العظيم الجديد لا يعدّ طفرةً رتيبة مملّة
لحضارة علمانية أخرى، بعيدة عن حضارة الكنيسة المسيحية
خلال القرن الأخيرة ولكنها ستبقى ماثلة في صلب المسيح
وعواقبه الروحية»

ويعكس اتجاه توينبي نحو نظام عالمي إيمانه البالغ بوحدة الحياة
ووحده الفكر، وكم ودّ - كما يقول - أن يكون تلميذاً صغيراً في
خدمة الشؤون الإنسانية قبل الشؤون السياسية والثقافية والاقتصادية
والدينية، وقد حمل على إهمال الدراسات الإنسانية، لصالح «ما يسمى
بالتعاليم» فالبشرية وحدها هي الجديرة بالدراسة. وعندما اتخذ توينبي
هذا الموقف رأى نفسه يقفز من القرن الثامن عشر إلى القرن الحادي
والعشرين، متخطياً القرنين التاسع عشر والعشرين. وكان يعتقد في هذا
أن الماضي عنوان المستقبل، وأخذ يفسّر رؤياه تلك للمستقبل عام
١٩٦٤، كما تخيله في الخامسة والسبعين من عمره، بقوله: «إننا نعبّر
اليوم إلى فصل جديد من فصول التاريخ الإنساني لن يكون الخيار فيه
بين عالم ممزّق، أو عالم موحدٍ وإنما سيكون الخيار بين عالم واحد أو
لا عالم على الإطلاق» وقد سيطرت عليه فكرة المجتمع العالمي الواحد،
وشابه إيمان عميق بأن التشيّع الديني يوشك أن يستسلم لديانة عالمية
سمحة، وأن الانكباب على دراسة الشؤون الإنسانية يفسح المكان تدريجياً
لنظرة واعية شاملة للظروف الإنسانية، وبدلاً من تلك الإحن التي

تسيطر على القرن العشرين يبرز فجر جديد للوحدة العالمية في القرن
الحادى والعشرين.

وشاد توينبى أمله هذا على إدراكه للإنسان وللتاريخ، فالقوى
الروحية دون القوى المادية، كما يرى، هى التى تحكم صفحات
التاريخ، وأن الأفراد الذين أوتوا القدرة على البناء والهدم هم الذين
يرسمون معالمه (ولهذا نراه يحمل على الاتحاد السوفيتى وغيره من البلاد
الشيوعية، وإن كان قد كتب عن الحاجة إلى التعايش السلمى بين
الشرق والغرب)، فالتاريخ كما يراه أيضاً «إله يصدر بمكنونه» ونهاية
التاريخ نهاية مملكة السماء (ولهذا حمل عليه أولئك الذين يرون أن
الرب قد مات)، وندد بالأمريكيين ممن يأبون الاعتراف بأن الفردوس
الأرضى لا يخلو من الفجيعة وممن يعتقدون أن أمريكا إذا كانت مفاجئة
فلن تكون فردوساً على الأرض (ولهذا نبذه ولعنه أولئك الأمريكيون
الذين يعتقدون أن أمريكا دائماً على حق، ويقيمون من أنفسهم حراساً
على ذلك، وبينما ذهب محررو التايم يمتدحون نظرتهم الدينية، راحوا
يذمونهم ويتحاملون عليه لموقفه السلمى من الاتحاد السوفيتى ويصفونه بأنه
مؤرخ أثير طالما عرض للماضى البعيد فإذا عرض للحاضر فهو متفلسف
صغير)

ومن اليسير أن نعدّ نظرة توينبى للمستقبل نظرة رومانسية، والتواءة
خيالية فى الفكر مالبت أن غمرت فلسفته للتاريخ، فى عام ١٩١٥
لعبت بخياله وصفة ويلسون لحق الشعوب فى تقرير المصير، وفى

العشرينيات كان يعتقد أن تأثير الموجة الغربية سيقضى على أى اتجاه للفرقة بين الدول، وسيؤدى إلى وحدة عالمية على أساس مكين. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية راودته فكرة الوحدة الدينية بدل الأديان العديدة.

وبالرغم مما شاب تفسيره للتاريخ من مخاطر التفاؤل الكاذب، فقد كان يدرك تماماً أن الحضارة الغربية فى سبيلها إلى الأفول كما أفلت خمس وعشرون حضارة قد أرّخ لها من قبل، فإلى عام ١٩٣١ مضت الحضارة الغربية قدماً إلى الأمام لاثني عشر أو ثلاثة عشر قرناً لا تعرفها غير هزات ضئيلة، فلما حلت الأزمة الاقتصادية العالمية وقامت دول قويّة تهدّد الحضارة، ألحت عليه فكرة أن الغرب يدنو من نهايته التاريخية. وكان دقيقاً فى تحديد المراحل الأربع أو الفترات المتباينة التى مرّ بها تاريخ الغرب، وأولها من عام ١٦٧٥ إلى ١٠٧٥، كانت فترة البعث والميلاد على أطلال الحضارة الهيلينية، فلما اتخذت البابوية قرارها عام ١٠٧٥ بامتناع الحسام ضدّ الدول العلمانية كانت تلك هى النكسة الأولى لتبدأ الفترة الثانية، فترة الجمهورية المسيحية، وتنتهى عام ١٤٧٥ عندما تصل الدويلات الإيطالية ذروة قوّتها لتبدأ الفترة الثالثة وتستمر حتى عام ١٨٧٥ وفيها تحوّلت دويلات المدن إلى ممالك مع بداية الأنظمة الديمقراطية والتصنيع. فلما بدأت الفترة الرابعة أصبح التصنيع والديمقراطية مركبين دلولين للدول القومية وتفشت ظاهرة القومية بما جلبته من مشكلات أخذت تشتدّ وتتكاثر تحت وقر الحروب والصراع

الطبقى، ولمح توينبى فى تاريخ الحضارات الأخرى من النذر ما تبدو ملامحه فى حضارته، منها التسليح، فقد دمرت آشور نفسها بحروبها بالرغم مما كان لها من باع طائل فى الإدارة والعلم، حين أرادت أن تغزو العالم فأثارت جيرانها فاجتمعوا عليها ودمروها. ورأى توينبى فى بروسيا آشور الجديدة، وقد تجدد الإغريق دولة المدينة وكانت مشكاة عظيمة للتقدم السياسى والثقافى، ولم يكن من دويلات المدينة القوية تلك ما يرضى التضحية بكيانه وسيادته من أجل وحدة سياسية أقوى وأكبر فلما تحققت وحدتها أخيراً اجتاحتها الرومان وغلبوها على أمرها وشبيه بذلك فى يومنا هذا الإعلاء الكبير للدولة القومية وقد غدت ديانة أوربا الخالصة.

ويرى توينبى أن الحرب والطبقية هما آفة العالم ومشكلته الكبرى فقد كانت الحرب سبباً فى فناء الحضارات السابقة، وهى النذير الذى يهدد كل ما حققته الإنسانية من مكاسب فى هذا العصر، أما الطبقة فهى الأخرى تهديد مسبق بسبب الحاجة إلى إعادة تقويم المجتمع وهى حاجة تمتد بجذورها إلى القرن التاسع عشر، وقد حول التقدم التكنولوجى المعاصر الحرب والطبقية إلى أدوات شنيعة بشعة قد يكون فيها دمار الحضارات جميعاً وليس حضارتنا وحدها.

ومادمننا نواجه هاتيك النذر، فإن الخلاص لن يكون عن طريق الحلول الدينية التى تسفر عنها كتابات توينبى دون حل سياسى نهائى وعاجل. والحل السياسى العاجل هو الاستقرار السياسى والحل السياسى

النهائى هو قيام حكومة عالمية. والأساس العقلى للاستقرار السياسى هو الواقعية السياسية كما هو المثالية السياسية لقيام حكومة عالمية، والزمن وحده هو الكفيل بالاستقرار، وليس غير الحكومة العالمية ما يكفل السلام العالمى، وإن كان ذلك عسيراً فى ظلّ الأوضاع الحاضرة، وحتى لا يضيع الوقت لتحقيق تلك الغاية، فإن أنجع السبل هو تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ. ويرى توينبى : « أن من اليسير إقامة اتحاد فيدرالى يضم روسيا وأمريكا، فهو الصيغة الوحيدة لقيام حكومة فيدرالية عالمية لها جدواها، فإذا قام هذا الاتحاد بين أمريكا وروسيا وحدهما ليحول دون قيام حرب عالمية أخرى فأمر بعيد الاحتمال » إذ لا يعدو كونه حاجزاً وقتياً أقام العالم، « قد يكون عسيراً على البلدان التى تقع على الحدود الفاصلة، وإن كان من الخير لكل إنسان أن يتحقق ذلك من أن يواجه حرباً أخرى لاتعرف عواقبها، ومع هذا التقدم التكنولوجى يحذر توينبى من أن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة قد أصبحا قريبين كل منهما من الآخر، وقد كانا من قبل « شعبين مختلفان تماماً فى تاريخهما وفى تقاليدهما وأديانها وأيدولوجيتهما - ولم يتسنّ لهما الوقت ليعيشا سوياً فى دنيا واحدة بإزالة كلّ الحواجز التى تقف بينهما » ومضى فى قوله :

« روسيا والغرب وروسيا والولايات المتحدة، كانوا أبعد ما يكونون الواحد عن الآخر، ولم يتسنّ لروسيا أن تعيش مع الغرب ولا مع الولايات المتحدة فى دنيا واحدة حتى الوقت الأخير، ولا ندرى أيستطيع كلّ منهما أن يقترب من

الآخر أو يعجز عن ذلك فإذا كان ذلك يسيراً فإنها في حاجة إلى بعض الوقت الذي يعتاد كل منهما فيه على الآخر وليعرف كل منهما كيف يفعل ذلك، وهو شيء ثقيل على النفس لا يقدران عليه ما لم يكن لـديهما الوقت الكافي»

وكان توينبي المؤرخ يستلهم الماضي، فإلى ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت بريطانيا وفرنسا تتنافسان على أفريقية، وواجهت روسيا وبريطانيا كل منهما الأخرى في آسيا، «وفي عام ١٩٠٤، بدأت المشاورة، ووضعنا أمامها خريطة العالم، وحيثما تتصارعان في أي بقعة من بقاعه، أوقفنا هذا الصراع، وجرت بينهما المساومة مناصفة، لك ذلك، ولنا هذا، وعلينا أن ننسى معاركنا القديمة، وفي عام ١٩٠٧ جرت نفس المساومة بين كل من بريطانيا وروسيا» وتطلع آخرون إلى هذه التسويات السياسية، كما حدث من خلال مفاوضات قاطعة في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨، فخفت حدة التوتر الذي يندر بالحرب، وغالباً ما تنشأ التسويات السياسية عدواً مشتركاً، كما كان التنافس الأوربي حول أفريقية وآسيا في ختام القرن عندما أصبحت ألمانيا العدو المشترك، ويقول توينبي: «ولكن، بعد كل هذا... فإن لأمريكا وروسيا عدوهما المشترك أيضاً، يخشيانه معاً، كما اعتقد هذا العدو المشترك هو الطاقة النووية».

ولم يكن توينبي أقل إصراراً من ونستون تشرتشل، وولتر ليبمان وهانس ج. مورجنتو، وغيرهم على ضرورة إجراء مفاوضات للتسوية

السياسية بين أمريكا وروسيا، وإن لم يتقدموا بتفصيل (كتاب أزرق) عما يتوقعون. وستكون الحدود والخطوط الفاصلة. إذا ما تيسر ذلك تماماً، حصاد المساومات العسيرة والدبلوماسية التقليدية، وكان لأمريكا خلال الأربعينيات من القوة ما يمكنها من تعيين الحدود المتاخمة للنفوذ السياسى السوفيتى، وظفرت بنفوذ واسع يسع ثلاثة أرباع المساحة العالمية يضم من الناس أربعة أخماس سكان العالم» وقد تصوّر توينبى أن الصين والهند وأندونيسيا واليابان تقع جميعاً في دائرة النفوذ الأمريكى، وكان «للغفلة الطويلة ثمنها الغالى، فقد أخذ النفوذ الأمريكى يتقلص، ولم يعد له مكان في أى تسوية قادمة، ولم يعد للحدود التى أقرها اتفاق هلسنكى للوضع القائم في أعقاب الحرب مكان، ولم يكن توينبى بنزعته الإنسانية ليحفل بأى تسوية حول الحدود على حساب حقوق الإنسان.

وكلّ ما كان ينشده توينبى أن نؤدّى التسوية السياسية إلى تهيئة الظروف لقيام حكومة عالمية مختارة. فإذا استطاعت الدبلوماسية الجارية أن تزيل التوتر الدولى، وأن تعمل على تخفيف الصراع السياسى وتسويته فإن ما تنتهى إليه وضع أساس لقيام مجتمع عالمى، وفي هذا الإطار كان مسعاه وإصراره على التسوية السياسية فإذا ثم الاتفاق حول المناطق المعنية، وإذا لم يكن هناك ما يعوق (فإن مثل هذا الاتفاق) مما يتيح لنا بعض الوقت، بجانب ما يجرى، لمحاولة الاقتراب بين الدائرتين، لنمهد في النهاية لإقامة وحدة بينهما تؤدّى إلى إقامة الحكومة العالمية. فالحكومة العالمية هي الحلّ السياسى الوحيد، ولكن كيف تتحقق

فكرتها؟ ومع إصراره على أن وحدة العالم السياسية ستتحقق في المستقبل، وبقينه من التكافل العالمى، ومخاطر الدمار النووى العاجل، فقد أخذ يطرق السبل التى تحقق الوحدة العالمية وقد رأى من الناس إجماعاً على جفوة الحرب لم يكن له مثيل من قبل خلال ستة آلاف سنة مضت - وانتهى إلى بديلين لإقامة حكومة عالمية، فإما القهر وإما الخيار، ولا يتضح الفرق بينهما إلا فى النهاية.

ومع رؤيا مؤرخ الحضارات رأى توينبى أن قيام حكومة عالمية ضرورة حتمية، ولكنه أشار إلى أهمية الوسائل التى تؤدى إلى قيامها، فإما قامت دولة عالمية كحل أخير يائس لحضارة ذاوية (وهو ما رآه توينبى من صور عديدة ماضية) وإما جدّ مشروع جديد مبتكر لإقامة حكومة عالمية عن طريق الاختيار. وقد رأى توينبى أمثلة عديدة لحكومات عالمية قامت عن طريق الغزو كإمبراطورية الإسكندر المقدونى وإمبراطورية تسن فى الصين وفتوحات الرومان وكان للاتجاه العلمانى أثره البارز على الوحدات السياسية فزاد من قوتها، وأخذ يقلل باطراد بارز من أعداد القوى القائمة ففى عام ١٨٦٠ و عام ١٨٧٠ كانت كل من فرنسا وبريطانيا الصورة البارزة للدولة من حيث المساحة والموارد. وفى عام ١٩٥٠ أخذ توينبى يتأمل حجم القوتين الكبيرتين: الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية: «أما ما يقل عنها فهو أقل من أن يكون ذا أثر فعال أو عملى فى الواقع لا من حيث القدرة على شنّ الحرب ولكن من حيث القدرة على تحقيق السلم» والنتيجة المنطقية لهذا الاتجاه نحو الوحدات السياسية

الكبرى - كما يراها - ظهور قوة عالمية واحدة تسيطر على العالم أو تقيم دولة عالمية.

ويرى توينبي أن الظروف التي تؤدي إلى قيام دولة عالمية قهراً قد تمثلت في ثلاث ثورات معاصرة أولها تلك الثورة السياسية التي أدت إلى إزاحة ثمانى قوى عظمى كانت لها السيطرة على السياسة العالمية عام ١٩١٤ وتغيرت بذلك طبيعة ميزان القوى، كما توقع أن «يزداد اعتماد البلاد الأخرى إما على الولايات المتحدة وإما على روسيا ولن يقل اعتمادها عليهما بمرور الزمن» وقد رأى في مبدأ ترومان الذى تعهدت فيه الولايات المتحدة بالدفاع عن الحريات في كافة أنحاء العالم «ردّة إلى الوراء مهما كانت نوايا الرئيس... يمكن أن تدفع بالشئون الدولية بعيداً عن التعاون لتحقيق وحدة سياسية عالمية إلى الطريقة التقليدية القديمة حيث يستشرى الصراع بين القوى العظمى إلى أبعد مدى، ولا تتحقق الوحدة السياسية العالمية إلا عن طريق القوة التى تفوز بالضربة القاضية»

وثمة عامل آخر يقف إلى جانب الوحدة بالقوة هو ثورة التكنولوجيا العالمية فلأول مرة في التاريخ نملك دولة وحدها القوة التى تستطيع بها السيطرة على كل العالم أو على أكثر بقاعه، وقد صاحب الثورة التكنولوجية ثورة أخلاقية كانت زاداً وقوة لها فحلّ الإيمان السياسى بالقومية العالمية محلّ الإيمان الدينى (وكان هذا الإيمان الدينى طوال التاريخ عاملاً على تلطيف وكبح جماح تطلعات الشعوب) هذا إلى

جانب برم الناس من كافة أنحاء العالم بالحرب ورغبة الشعوب في السلام، وما دعاه توينبي «جو فيشي» وقد حمّله على تأكيد: «أن أكثر البشر كما يبدو ينجون مغارم القهر» وزعماء العالم تعصف بهم الرغبة في السيطرة على العالم، كما كان هتلر في الحرب العالمية الثانية حين ظنّ «أن المنتصر في الحرب العالمية القادمة سيضع العالم كله تحت قدميه» وقد امتدت موجة السلام لتغمر العالم بعد ما رأى من فظائع الحرب وآلامها العميقة، كما أن العقلية الجديدة للطبقة المتميزة ولا سيما في البلاد النامية قد حملتها على رعاية مصالحها والحفاظ على مراكزها أكثر مما حملتها على رعاية استقلال بلادها القومي، وهو ما بدا في بعض الاتفاقيات التي أبرموها مع هتلر، أو خلال الحرب الباردة.. وطبقة الملاك.. ما زالت تخاف الشيوعية.. وقد يلعب هذا الخوف دوراً بارزاً في الحرب العالمية الثالثة، وقد يحملهم على التهاون في استقلال بلادهم والتسليم فيه.

ومع ضالة أعداد القوى الكبرى، وانتشار روح الانكسار في العالم: «وكانها ضربة قاضية تنهال على رعوسها، فتفقد القليل من المقاومة التي تملكها، ومن ثم يبدو السبيل يسيراً لحتمية التوحيد» إلا أن عواقب الوحدة السياسية التي تقوم على الفتح أن الفاتح قليلاً ما ينبذ الطابع العسكري لتحقيق مآربه، والزمن ليس في صفّه وليس لشفار السيوف أن تحقق الاستقرار، فإذا لطختها الدماء، خفية أو علناً، فإنها ستبقى نذير شؤم يشير البغض» وقد كانت الحكومات العالمية شغل الأقلية

الطاغية التي رأت ملاذها في الغزو والفتح، وامتد العمر ببعضها أكثر مما امتدّ غيرها، كحضارة مصر القديمة، وحضارة الشرق الأقصى المائلة في الصين، ولكنها سقطت جميعاً سقوطاً نهائياً تحت وقر أثقالها، وقد تفوّقت كلّ هذه الحكومات العالمية عامة داخل محاربتها المغلقة، وبددت قوّتها في فتوحاتها ومغامراتها العسكرية التي أكلت الكثير من بنيتها. ولم تكن هذه الحكومات العالمية التي قامت على الفتح خلافةً ولا مبدعةً، وكان عليها أن تجدد شبابها لتبقى، وقد واجهت كل هذه الحكومات العالمية التي قامت بالسيف يوماً لقيت فيه حسابها بالسيف فتحطمت على شفاؤه. ولهذا يرى توينبى أن الوحدة العالمية لا تقوم إلا في ظلال حكومة يتفق عليها، وإن كان من اليسير قيام هذه الحكومة العالمية على الاتفاق طالما كانت تمثل الخطوة الأخيرة للأساس التي قامت عليه، ولكنه كان يرى أن الظروف التي تمهد لها مازالت قاصرة. أما كوينسى رايت وفيليب جيسب فقد كانا يريان أن الأمم المتحدة هي أقوم طريق لقيام حكومة عالمية - وأما توينبى «فإن الأمم المتحدة - كما يرى - لا تستطيع أن تقترب من الحكومة العالمية أكثر مما تستطيع الولايات المتحدة، إذ إن ميثاقها يقرب بين هاتين القوتين المتباعدتين إلى الحدّ الذي يمكن أن يعمل فيه سوياً» وكل ما تعانيه الأمم المتحدة من وهن أنها تمثل إلى حدّ بعيد اتحاداً واهناً مادام مداها السياسى دون مداها الدستورى كما تفتقد أصول الجماعة التي تجعل منها حكومة لها فعاليتها وقبل أن تغدو الأمم المتحدة حكومة عالمية فإن عليها أن تحقق كيائها السياسى من خلال الإجراءات الدبلوماسية الصالحة والمريحة معاً.

ويرى توينبي أن هناك طريقاً عملياً أقرب إلى تحقيق وحدة سياسية محدودة، يمكن أن تنمو وتتطور لتوايتها الفرصة لإقامة حكومة عالمية في المستقبل مما يستدعى في البداية إقامة اتحادات إقليمية يتيسر إقامتها كالاتحاد الذي يمكن أن يجمع الولايات المتحدة وغرب أوروبا وكندا ونيوزيلند وأستراليا وجنوب أفريقية وهو ما يمكن أوروبا من استعادة كيائها كقوة من الدرجة الأولى، إن لم تكن مساوية لقوة كل من القوتين الكبيرتين، ومن الأرجح أن يؤدي هذا التنظيم إلى تغيير العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا ويسمح بقيام نوع من المعونة الاقتصادية على أساس المنفعة المتبادلة. ويحقق في أقصر مدى ضماناً أكيداً لأمن أوروبا الغربية، كما يحقق على المدى البعيد الاعتراف بهذا الكيان في ساحة معينة يمكن أن تمتد إلى ساحات أكثر اتساعاً، وإن واجهتها مشكلة عملية حول التنازل عن السيادة لغرب أوروبا، وهي مشكلة لا شك عسيرة، إلا أن : « هذا على الأقل هو السبيل العملي الذي يمكن أن نسلكه في المستقبل القريب، أكثر مما نطرق أبواب وحدة عالمية لا تتحقق عاجلاً.

ولن تكون الحكومة العالمية هذا النظام الرتيب، إذ إن نظامها لابد وأن يعكس سلطان القوى الكبرى، سواء أكان هذا السلطان للولايات المتحدة أم للاتحاد السوفيتي أم لكليهما معاً، وهو نفس ما يمكن أن يحدث، أقامت الحكومة رضى أم كرهاً، فما تستطيع حكومة وحدها أن تحكم العالم حكماً مباشراً، وستبقى للسلطة المحلية ضرورتها، كما يبقى

للحكومات المحلية أن تتخذ بعض القرارات العاجلة في كثير من المسائل. وإن تمسكت جميعاً بالتعاون الدولي، وبأدركت ملحة في طلب الحكومة العالمية عن رضى.

ويرى توينبى أن الحكومة العالمية لا بد وأن تقوم على نوع من النظام المختلط، وتخيّل في النهاية أن يقوم بناء الجماعة الدولية، ما عملت الدبلوماسية على تخفيف حدة التوتر، وما قامت الوكالات المتخصصة في الأمم المتحدة بمدّ نشاطها الاقتصادي، وخلق مجالات أبعد مدى لمصالح مشتركة بين شعوب تتقارب في ثقافتها ومشاربها حتى يستمر الاتجاه ويمضى صعداً نحو الحكومة العالمية.

وهذا المشروع الذى يقدمه توينبى لإقامة نظام عالمى جدير بالثقة.

تمت

فهرس

صفحة

٣

تقديم

الباب الأول : البحث عن معيار أساسى للسياسة

١٣	الرؤية التاريخية.....	هربرت بتر فيلد
٣١	من اللاهوت إلى الصحافة السياسية	رينولد ينبور
٥٩	المسيحية والحرب.....	جون كورتني مورى
٧١	قيم الحضارة الغربية.....	مارتن وايت

الباب الثانى : القوة والسياسة

١٠٣	القوة هى المعيار.....	أ.هـ. كار
١٢١	أصول الواقعية السياسية.....	هانز ج. مورجنتو
١٣٩	الجغرافيا والقوة.....	نيكولاس ج. سبيكمان
١٤٧	التصور والوفاق.....	أرنولد ولفرز
١٦٣	التوفيق بين الواقعية والمثالية.....	جون هيرز
١٧١	المنهج العلمى للسياسة.....	كارل ولفجانج دويتش

الباب الثالث: الصراع وأزمة العصر

١٨٩	: المعقول والرشد السياسى	ولتر ليبمان
٢١١	: مشروعية الحرب وأخلاقياتها	جورج ف. كينان
٢٣٥	: الأزمة على امتداد التاريخ	لويس ج. هال الصغير
٢٥١	: الصراع والأوهام الاجتماعية	ريموند أرون

الباب الرابع: نظريات النظام العالمى

٢٦٧	: فى دراسة الحرب	كوينسى رايت
٢٩٩	: إلى العمل بعيدا عن السياسة	دافيد ميترانى
٣٢١	: النظام العالمى والواقع المشروع	شارل دى قيسكر
٣٣٣	: الحضارة العالمية وسياسة العالم	أرنولد ج. توينبى

١٩٨٥ / ٣٤٨٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٣٤٠-٣	الترقيم الدولى

١ / ٨٣ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب بعضاً من قادة الفكر الدولى من خلال أربعة جوانب هامة : معيار الفكرة، والتصور الأوربي الأمريكى للقوة والسياسة وتحليل الصراع فى الحرب الباردة، والنظرية السائدة للنظام العالمى.

وقد استعان الكاتب بمؤلفات كل شخصية وإن تفاوتت بين كاتب وآخر، ذلك أن أفكار كل كاتب تتضح من خلال ما يعبر عنه وما يؤمن به.

وقد استطاع المؤلف أن يحلل الأزمة العالمية من خلال نظريات هؤلاء القادة، وأفكارهم التى تتعلق بجوانب الدراسات الدولية، معلقاً على آرائهم بما يراه ويعتقده.

معرض جنتية